المختلـــــط

" وِد"

(روايـــة)

المختلـــط

" **ود** "
(روَاية)

الجزء الأول

داليا أصلان

* الطبعة الأولى ٢٠١٦ "دار الثقافة الجديدة للنشر"
© حقوق النشر محفوظة لـ " دار الثقافة الجديدة "

الناشر
دار الثقافة الجديدة
"شركة ذات مسئولية محدودة"
٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة
ت وفاكس: ٢٣٩٢٢٨٨٠
e-mail: elguindimohamed93@gmail.com
http: //www.facebook.com/Dar.Elthaqafa.Elgedeeda

تصميم الغلاف:

رقم الإيداع: /٢٠١٦
الترقيم الدولي (I.S.B.N): - - 221 - 977 – 978

داليا أصلان

المختلط

" وِد "

(روايـــة)

دار الثقافة الجديدة

٣

إلى
أمين أصلان

وإلى

ربات البيوت

كان الأمر حينما كان، أشبه بقصة أخرى.
لا،
أشبه بلافتة كبيرة على جانب الطريق السريع، كل شيء مثالي وواضح، الوجوه نظيفة، سعيدة.
لكن..

أقف أمام البيتين صامتة، أمط شفتيّ وكأنني أفكر في حل يرضي الجميع. بَيْد أني لا أفعل. سأنال ما طلبته من الشاب الواقف إلى جِواري، باقتناعه أو بدونه. وضعتُ يديّ في خصري رافعة بهذه الحركة الإسدال بضعة سنتيمترات عن كعبيّ الكبيرين. أسمع الأصوات المتزايدة لطلاب المدارس التي حولنا، وجرس كنيسة بعيد يعلن عن زيارة رجل دين مهم، أو موت أحدهم.

أبعد نظري بصعوبة عن وجه امرأة لا أعرفها، معظم سكان الحي لا يعرفونني. أفتش بعيني في ثياب وعيون ومِشيات المارة عن شخص أو شيء عاشرني في هذا المكان. وحدها صفاء الباقية. ليتني مكانها في غرفة الإنعاش.

هل استيقظ من الفجر، وقطع كل تلك المسافة ليخبرني بأن طلبي "صعب"؟ لم يقل مستحيل، ولكن نسخة طبق الأصل! صعب! إذن ما فائدة الأدوات في حقيبته، وأجهزته الرقمية الحديثة. قال سيحاول. نقف بعدها صامتين. هو ليفكر كيف يحاول، وأنا لأضغط عليه. يبدو عليه التوتر والطموح. بعد عشر دقائق سيعطيني وعدًا واثقًا من قدرته

على تنفيذ رغبتي، وسآخذ عليه شروطًا صارمة بتسليم المكان بعد عامين أو ثلاثة أقرب ما يكون لما أريده.

أنظر إلى الحجر الأصفر الكبير الموجود في قمة القوس، ١٩٢٠، المدخل، سُلم الخدم، شجرة الخروع، عريشة العنب الذابلة خلف نافذة جدتي، النخلة. سأعيد تدوير الحكاية. ألصق قطع الأحجية الكبيرة متجاورة، ألخصها في رأسي، في عمري هذا، بترتيبي.

البيت عمره مئة سنة، ارتفاعه ثلاثة طوابق، يمكنه تحمل خمسين أخرى مع الترميم الخفيف. لماذا أعيدُ بناءه؟ قال بعد أن طال سكوتنا. بعد نصف دقيقة أخرى سأل: لِأجل مَن أبنيه من جديد؟

رحل المهندس الشاب. صعدتُ لشقة صفاء. اتصلت بشعبان.

- بيسأل كتير.. شوف لي غيره.

أحمد جلالة

بالأمس ماذا كانت تقول الأغنية؟ "فراشة صغنططة؟ لابسة بلوزة منقطة، على جونيللة مخططة". كان صوت سارة رائقًا. تتحمس وهي تكرر: "منـــ ـــقـــ ـــطة، ومخططة". ثم تدغدغ الصغيرة بأصابعها البيضاء الرفيعة، في خصرها، ورقبتها. صفاء الطفلة تقفز وتقف فوق السرير، تضحك ملء الدنيا ببهجة وحب غامرين وكأنها ليست يتيمة. لم يزعجني أنني لم أغنّ تلك الأغنية لأطفالي في صغرهم، ولكن لأن التوقيت عجيب.

وضَعَت سارة طفلتها في الفراش، أغلقت النافذة بإحكام وجذبت الستارة نحو اليسار، تفردها. أخفضت الضوء وهي تنظر لطفلتها وتدندن نغمة مرتاحة: "سنتمشى.. في الظل قرب غدير.. رائحة صنوبر، طعم العسل.. نضحك ضحكات غير مهمومة". شيء هادئ بهذا المعنى. رغم كل ما مر بالجميع، روحها صافية، وَعَدَت نفسها بأحلام كثيرة ستجنيها أخيرًا بعد صبر طويل.

تمددت سارة على حافة الفِراش الصغير، على جنبها الأيمن، تكوَّرَ بطنها في مدار شهره العاشر ربما! ألم يطل هذا الحمل؟ نظرتُ لها نظرة خاطفة. رأسها المسند على ظَهْر السرير، شعرها الأحمر المعقوص كذيل حصان، ضوء الأباچورة الخفيف، حفيف ورق الرمان على نافذة مطبخ الدور الأرضي. دست البنت رأسها في صدر أمها، تمتمت بين النعاس ومقاومته بعبارة حب طفولية. مسحت الأم بظهر أصابعها على الوجه المخملي الصغير، تحسست قرطها

المستدير، الأذن اللينة اقشعرّت ثم استكانت بوداعة. نامت البنت. وجهها الجميل مسافر إلى المكان الذي جاءت منه الأغنية، وعيون سارة المغلقة بانضغاط تفكر "وبعدين؟"

راقبتهما بنظرات خاطفة من مدخل المطبخ الفسيح الماثل بزاوية أمام باب غرفتهما المفتوح عن آخره. وسّعَت صفاء الكبيرة هذا الجزء من الشقة بهدم الحائط الذي كان بين المطبخ وغرفة أطفالها، حينما كانوا أطفالًا، تغيّر هذا الجزء من عالمها منذ أعوام. أخبرتني في مكالمة طويلة أنها أيضا تغيرت.

صادفتني علبة البُن بين أغراض الخزانة، لكنني لم أصنع قهوة. لم أرتدِ الأسود أيضا كما فعلت صفاء وأجبَرَت سارة على ذلك. لازلتُ مُصِرَّة، سارة لم تحزن لموت زوجها. إحساس يخبرني بهذا. ملعقة سكر واحدة في كل كوب، حرصتُ أن أقلبها بأقل ضجة ممكنة، شدّت سارة الغطاء فوق كتفي الصغيرة. سحبت ذراعها من تحت رأس البنت وأطفأت المصباح.

تحركتُ بصينية الكاكاو نحو الصالون، تنحنح الضيف عندما سمع صوت شبشبي على أرضية الممر، زرقة السجادة السميكة الممتدة من ثلث الغرفة الأول حتى أسفل الأريكة، في الركن المجاور لباب الشرفة، تجذب عيني كل مرة. موديل طقم الفوتيه ولونه العاجي بلمعة خفيفة لم يناسب طراز النافذة التي جلس تحتها "حسن". المصاريع قديمة، عريضة، عالية، يصل ارتفاعها قرابة السقف، "إحنا أصل المختلط "؛ كانت أشهر عبارات جدتي.

فعليًا، لم يترك هذا الفرع من عائلة جلالة الحسينية، وينتقلون للعيش هنا قبل العام ١٩٣٥. جدتي مواليد ١٩١٥. عندما كانت في

العشرين خَرَجت من بيت حميها، زوجة شابة، حُبلى بأبي، وعلى كتفها عمي صلاح. لكن التاريخ الرسمي للبناء، المثبت في السجلات المصرية يرجع إلى نوفمبر ١٩٥٥. حكت في عدة مناسبات أن جدي أحمد، حماها، وشريكه عبد الرزّاق أخذا الأرض من خواجة طلياني "تخليص حساب". عقد معهما صفقة أقمشة كبيرة، مطرزات وحرائر، ليتقرب إلى الحاكم في ظروف سيئة. عباس حلمي يغادر العرش عام ١٩١٤ تحت ضغط العثمانيين، ويتولى حسين كامل بتعيين من الإنجليز، مما جعل فترة حكمه غير مستقرة، لأن الشعب لم يحبه. وقتها، لم تجد هدية الخواجة طريقها للقصر.

كانت الأراضي غربيّ البحر الصغير، ويحدها النيل من الشمال، مساحة بور منخفضة، يغمرها الماء وقت الفيضان. على أطرافها عشش لفقراء لا ينتمون لنَسَب يعتاشون على زراعة الورد، والصيد. ما لبث أن فطِن الأثرياء والأجانب لجمال ذلك الموقع، ومناخه المتميز عن بقية المنصورة، فرفعوا مستواها بالردم، ثم جاء قرار بناء المحكمة قرب شاطئ النهر. أو أن الأرض رُدمَت وهُيِّئَت منذ البداية لتقام على رأسها المحكمة، المختلطة، "استئناف المنصورة" حاليًا.

تبَاعًا قُسِّمَت المساحة حول المحكمة إلى قطع كبيرة، بيعت لجاليات أجنبية، وإقطاعيين، بسعر زهيد. شُيِّدَت فوقها القصور والسرايات، تتلوها صفوف متباعدة أنيقة، من قطع أصغر، بمحاذاة القناة (البحر الصغير)، أقيمت عليها بيوت فخمة تزخر بالخدم والأضواء والروائح الشهية. حفلات صيفية ترطبها نسائم النيل، وأخرى شتوية حول المدفأة والموائد والبيانو.

للآن اسم هذا الحي "المختلط". قطعة الأرض التي بُنِيَ عليها بيتنا هذا كانت للخواجة إيڤان، تركها لجدي وشريكه مناصفة مقابل

البضاعة التي مازالت بحوزته. حال البلاد وقت الحرب العظمى كان كدرًا، هكذا وصفها جدي مصطفى (ابن أحمد) حينما نبشنا في الماضي. كان صبيا ذا عشرة أعوام حينما أُجبِرَ الخواجة، لا أعرف كيف، على توقيع التنازل عن الأرض للمصرِيَيْن بعد أشهر من الفشل في مقابلة أحد مسئولي البلاط. كان هدفه في البداية أن يرد البضاعة لهما، فرفضا. سعرها مرتفع، واستجلباها له مخصوص، إذ ليس لهما معارف بين النبلاء ليصرفا تلك الشحنة. لماذا يقبلانها؟ لم يكن يملك ثمنها ليعوضهما، فكتب لهما الأرض.

سخرت منهما الحسينية وسوق الخواجات تلك الأيام. "الطلياني لعب بكم.. لا فلوس، ولا حرير، ولا اللي عرضه عليكم ينفع".

كان من المعروف ضمنا أن ذلك الحي ممنوع على العامّة من المصريين. لم يتملكوا فيه بيوتًا أو أراضي حتى يومهم ذاك. ومع ذلك حرِصَ جدي أحمد وشريكه على أن يوثق الخواجة ذلك التنازل في المحكمة تبعا لأي قانون يشاء من قوانين بلاده أو بلادنا. لكن، منعت الرجل قوانين دولته من تسجيل العقد، لا شيء يسمى التنازل في معاملاتهم بخصوص الحي، فسجله الرجل على هيئة بيع مشروط. تفرض المحكمة بمقتضاه وصاية الخواجة عليهما. فلا يبيعانها أو يبنيا عليها إلا في حضور إيڤان وبرضاه.

تطوّر الأمر، ربما بوحي من الحُكم، إذ أقنع الحاج عبد الرزاق إيڤان بطريقة أو بأخرى أن يبني الأرض شراكة هو وجَدي أحمد، وللخواجة من المباني الربع. على أن يساعدهما فيستصدر من المحكمة رخصة البناء، فطمع الرجل في النصف، ووافقاه.

كان لجَدّي أحمد مال كثير، منه ما ورثه، ومنه ما عمل بذكاء في جمعه فازداد. بيت مؤجر في الشيخ حسنين، وآخر في الطميهي،

غير بيت الحسينية، وتجارة في البحر، وأطيان حول المنصورة. لو أنه تركَ مال الحرير، والحرير، للخواجة ما ضرّه ذاك في شيء. لكنهم قالوا كان يكره الخسارة كراهية العمى. والحاج عبد الرزاق مذ ذاعت أخبار فشل الصفقة كانت عينه على أرض المختلط.

استخرج الطلياني تصريحات البناء باسمه، واستلم الرسومات من مهندس أجنبي مختص. كان الحي قليل السكان نظيفاً هادئًا، طرقاته المرصوفة محفوفة بالأشجار، مقسم لعناوين تحمل أسماء أثرياء مصريين. شارع سراي محمد بك الفلاني، ألبرت باشا العلاني. كما حمل بعضها أسماء طوائف وجاليات لفترة. الطلاينة، اليونان، الفرنساوي، الأرمن. ورغم أن البلاد حينها كانت تحت حكم الترك، وحماية الإنجليز، لم تكن هناك شوارع بأسماء تلك القوى، بيت واحد شركسي، وبضعة شقق مؤجرة لأسر إنجليزية عادية لم تختلط بأحد.

يوما ما، في خريف يشبه هذا، بدأ البناء. الشكل المعتمد على الورق من الطراز القوطي، ما بقي من بيوت هذا الحي كانت ولا تزال أجمل مباني المنصورة. استغرق العمل خمسة أعوام. الخامات باهظة بعد الحرب، شحيحة الوجود في المدينة، بعض الدهانات والتماثيل وحليات الجص جاءت من أوروبا، عمال الخشب الذين صنعوا هذه النوافذ، وشرفات الأرو، والأبواب، قلــّة. أجورهم مرتفعة. توقف العمل عدة مرات، في كل مرة عدة أشهر، في انتظار سمسرة قطن، أو باخرة بضاعة، أو انتهاء فصل المطر.

في شتاء عام ١٩٢٠، انتصبت العمارتان التوأم في الحي بارتفاع ثلاثة طوابق، وغرفتي غسيل فوق السطوح، على أرض رجلين مصريين ملكيتهم لها مشروطة. موقفهما القانوني من المباني مجهول بموجب الوصاية الأجنبية.

في صغري، حينما كنت أتأملهما، العمارتين، أرى إحداهما معكوسة في مرآة الأخرى، ارتفاع الطوابق، الزخارف، الأركان، المنحوتات والزوايا، كل شيء، كل شيء منطبق تماما على ما يقابله، النقش والمسافة نفسهما.

تفصل بين البنايتين عشرة أمتار، مبلّطة، كمدخل مشترك. فوقه يمتد بين كل طابق والمقابل له من العمارة المجاورة جسر حديدي مسور ومشغول بأباريق خشبية وأوراق نباتات معدنية تشبه اللبلاب. عند طرفي كل جسر سلم خدم ضيق، يتسلق البناء من أسفله وحتى الطابق الأخير. ثم مكان فارغ يحيط بالعمارتين في مستطيل مكتمل، ضلعه على الشارع ببوابة يعلوها القوس الحجري المحفور عليه ١٩٢٠.

لم يتمكن أحد من العائلتين المصريتين من سكنى البيتين. نقلوا إليه بعض الأمتعة الجديدة الجيدة، ثم بقي الحال على ما هو عليه. لابد من حضور إيڤان، الذي غاب لشهور ثم عاد ذات ظهيرة، ودخل على جدي دكان القماش: "فينه مفاتيح بيتي؟" يريدها كلها.

حاولوا إقناعه في البداية بأن يأخذ الثلاثة شقق من أصل ستة، كما كان الاتفاق سابقا، فلم يستجب. رفعوا العرض لأربعة، نفس النتيجة. كان قد أخبره معارفه من الأعيان أن الرجلين نصبا عليه، الأرض تحت وصايته، وترخيص البناء باسمه، من يصدق أن تاجرين من الفلاحين يمكنهما بناء هذا الصرح؟ إن أحدهما حتى لم يشترِ لقبًا، أو يناسب عائلة كبيرة، أو يشترك في حدث مشهور. وزاد دخان الحقد في رأس الخواجة أنه حتى يومهم ذاك لم يكن قد باع ربع شحنة الأقمشة.

"أعلى ما ف خيلك اركبه" قال الحاج عبد الرزاق، وهو يقترب من الخواجة يهدده.

"هتاكل تعبنا بالظلم يا إيڤان؟" قال جدي وهو يحجز بينهما ووجهه للخواجة يعاتبه.

لكن ذلك لم يُجدِ نفعًا، إذ أجاب الخواجة على الحاج عبد الرزّاق بأنه سيطرده من المنصورة. ثم في مشهد لم يصدقه أحد، دار جدي حول مكتبه نصف دورة، فتح المجرور الخشبي الأسود الثقيل، أخرج حلقة مفاتيح كبيرة، عاد للخواجة، نظر في عينيه مباشرة، تناول كفه ووضع فيها المفاتيح، وطلب منه ألا يريهم وجهه مرة أخرى.

قيل: خرج الخواجة من الوكالة مسرعًا، قبل أن يغير جدي رأيه. أمسك الحاج عبد الرزاق بتلابيب جدي في استعداد حقيقي لقتله وقال: "عملت عاقل وبتعاتبه؟" أدار وجهه وبصق على الأرض قرب حذاء جدي في احتقار، أفلته، ثم تناول عصاه وخرج على باب الوكالة، وقف ووجهه لتجار السوق، "اشهدوا إن أحمد جلالة مش راجل، آمنته على مفاتيح بيتي وهو سلمها للخواجة". وسعى بعدها بأيام في فض الشراكة.

***

كنتُ في العاشرة حينما حكت جدتي لـــ "دادة" شوقة قصة سَجْن الحاج عبد الرزّاق بسبب عناده لإيڤان، ضمن حديثهما عن نشأة بيت المختلط. كانت "دادة" تفرك كتفي جدتي بمسحوق القرنفل المخلوط بزيت اللوز، وتتعجب من أن الحاج أحمد سلّم البيت لإيڤان بسهولة،

فقالت جدتي أنها لم تحضر تلك الأحداث، حُكِيَت لها، بعد دخولها العائلة، كما روتها لنا.

انتقل إيڤان للعيش في شقة الدور الأرضي، بالعمارة البحرية، معيشة دائمة. توقف عن السفر إلى أوروبا والسودان وفارس والقاهرة وأقام في المنصورة. أجّرَ الطابق الأخير من كل عمارة لعائلة إيطالية، أما بقية الشقق فلم تُفتح.

لم يدق الخواجة صليبًا صغيرًا على باطن معصمه كما يفعل نصارى المصريين، ولم يرتد ضفائر اليهود. لم يكن أحد يتذكر أو يهتم لديانته، رغم انزعاجهم الشديد، وثورتهم فيما بينهم، حينما كان يعود المرسال الذي كلّفَه جدي الكبير بمراقبة الخواجة بين ليلة وأخرى بخبر: "نسوان ومزيكا وخمرة يا عم أحمد.. صوتهم لآخر الشارع".

وذات يوم ظن الحاج عبد الرزّاق أن استرداد حقه من الخواجة بالقوة أمر ممكن، فكلفه ذلك أعوامًا من حريته، وكرامته. اقتحم البوابة بالقوة، صعد، أدار مفتاحا في باب إحدى الشقق التي لم يستغلها الخواجة، ودخل. جلس في مجابهة المصراعين المُشْرَعَيْن على السلم، وضع ساقا فوق ساق، وبَرَم شاربيه، فليأت "الخواجة قطران" الآن وينفذ تهديده، قال وهو ينظر في رجاله من حوله، معلنا الحرب.

أمام محقق مصري وآخر أوروبي، قال شهود مصريون وأجانب أن الرجل كسر أقفالًا وتماثيل في المدخل وهو يغزو بجماعته البناية. أثاروا جلبة روّعت الآمنين. حاول دخول شققًا مأهولة، واستولى على أخرى غير مأهولة. لم يستطع عبد الرزاق أن يثبت ملكيته لأي شيء إلا نصف أرض تحت الوصاية. شهد جدي في صف صديقه بما دار

بينهما وبين الخواجة بالحق. بقيت أوضاع الملكية معلقة فعوقب الرجل بخمسة أعوام لاقتحامه مبنى لا يخصه بمفاتيح مسروقة. وأضافوا إليه عامًا سادسًا لأنه لم يكن حسن السلوك أثناء النطق بالحكم. ورغم ذلك قضى الرجل بداية حبسه لا يفهم أن عليه الطاعة طالما لا يملك نفوذا، الاستسلام، مادام أقل مقاما من هؤلاء. ثم لم يجد بُدا من إظهار الأدب، تفننوا في إشعاره بجريمته: الجرأة. جلدوه مع كل عصيان، أُرهِق، تصرف تصرف المهزومين في النهاية، فأطلقوا سراحه بعد خمسةَ أعوام، لحسن تأدبه. استقبلته أسرته وقتها بالأفراح كبطل. لكنه ألقى رأسه على كتف جدي أمام الليمان في انكسار وبكى: "أنا اتبهدلت يا احمد".

***

في العام ١٩٢٦ مَرِضَ إيڤان مرضا شديدا في أمعائه، أو رئتيه. كان يتقيأ ويسعل دما وسوائل ملونة. يسب ويلعن بالخواجاتي حينما يوقفه السعال عن السير في منتصف الطريق. لم تساعده الأسر التي سكنت معه في البيت، بل إن عائلة منهم أنهت عقد إيجارها مخافة انتقال العدوى. رب الأسرة الثانية أعطاه عنوان طبيب إنجليزي حاذق بالقاهرة، ونصحه بزيارته. وفي عصر نسائمه لطيفة، دق الخواجة باب جدي طالبا النجدة. فقد نصف وزنه، وتغيرت ملامحه، واختنق صوته وقد أنهكه اللهاث، حتى أنه لم يكن يكمل عبارة قصيرة وهو يتحدث. "زوجتي وأبنائي في نابولي"، كان هذا طلبه، "احملني إلى هناك".

جدي أحمد، ورغم أنه هو الذي قال لشريكه وصديقه، بعد خروجه من السجن منذ شهور: "دعنا لا نغامر ثانية مع الخواجات" إلا

أنه فجر يوم الأربعاء ٥ يناير عام ١٩٢٧ سافر على متن الباخرة آجوستينا بصحبة إيڤان على نية الرفقة. قال سيُودِعْه بسلام بين أهله ويعود. لكن، حدث أمران.

الأول؛ أنهم حينما صعدوا ثلاثتهم إلى السفينة، وكان جدي قد اصطحب معه خادمه "عفيف"، قدموا أوراق سفرهم للضابط الذي يفحص جوازات المرور، فأخبرهما بأن التذاكر التي بين أيديهم واحدة لسيد إيطالي، واثنتان لاثنين من الخدم. غرفة مريحة نظيفة كانت للخواجة بتوجيه الضابط، وأخرى مشتركة بسريرين صغيرين، قرب مراجل السفينة، للمصْرِيَيْن. تخطّى جدي الموقف بأن طلب من عفيف أن يهيئ له مكاناً للصلاة. طلب من الله أن يبلغهم مقاصدهم بأقل الأضرار. أنهى صلاته وفتح منديل الطعام، فرده على الأرض، قطَع الخبز، نادى على "عفيف"، تناولا الجبن القريش والجرجير والعسل المطبوخ بالحلبة في صمت، بكى عفيف بكاءً مكتوما، عل سيده لا يلحظ، رآه جدي ولم يقل شيئا، لسان حاله: "الخواجة ابن الكلب، تاني مرة ياكل عليّ تعبي" إيڤان.

في اليوم التالي انطلقت صافرة السفينة بإنذار في غير أوانه. ركض موظف لم يحدد أحد وظيفته نحو غرفة جدي وطلب منه أن يأتي فورا. يتحدثون إليه بعربية بالغة التشوه، فهم في المجمل أن إيڤان بصق دما في صحن غذائه، فنقلوه إلى الحجر الصحي بالسفينة حتى لا ينقل المرض لباقي المسافرين. أخبروا جدي أنهم أغلقوا غرفة إيڤان حتى إشعار آخر، وتحفظوا على أغراضه، ومنعوه من زيارته.

الأمر الآخر، أن أحمد جلالة الذي غادر الإسكندرية ذلك الأربعاء في جلبابه وقفطانه، يعتمر طربوشه الأحمر، ينتعل حذاءً من

جلد الماعز، عاد إلى الإسكندرية يوم جمعة في منتصف يونيو من العام ١٩٣١، بنفس الملابس والطربوش والحذاء، ولكن بروح أخرى زائغة، ونظرة تحمل من الحيرة الكثير.

***

في الميناء الطلياني ألقى جندي التفتيش جرة العسل في برميل كبير، مالت الجرة وسال الدبس القاتم على بقية الأطعمة. فاحت رائحة الحلبة، وبغبغ الرجل بكلام سريع لم يفهم منه جدي ولا عفيف شيئا. ألقى إليهما أوراقهما تنقصها جوازات السفر، أشار لهما أن يجلسا هناك. اكتشفا بعد حضور أحد الوسطاء المتحدثين بالعربية، وهو شاب ثلاثيني من أصل تونسي، أن إيڤان لم يُفرج عنه صحيًا، سيبقى في حَجْر الميناء حتى يطمئنوا لنوع مرضه، وتستقر حالته. وبما أن إقامتهما في إيطاليا مشروطة بضمانة الخواجة، فهما أيضا لا يمكنهما مغادرة الميناء.

صاح جدي بكل حق اعتقد أنه سيشرح حريته، تحدث بالعربية فصحى وحضري وفلاحي، توسل بالإنجليزية ما تيسر له من عبارات متآكلة: "أنا جاي أوصّل الراجل شهامة مني.. بقى ده جزائي؟" أجابه التونسي بما معناه: "هنا قانون، لا شيء يتعلق بالشهامة والأمانة".هيأ عفيف لجدي مرة أخرى مكانا للصلاة.

كان معهما خمسة وعشرون جنيها مصريا ظنّا أنها كافية لإقامتهما وعودتهما إلى مصر في غضون شهر. الجنيه يومها يساوي أكثر من عشرة ليرات إيطالية. احتاجا سريعا إلى شراء الطعام، التفتيش لم يترك لهما إلا البسكوت البلدي والخبز الجاف. عاشوا على خضر غير معروفة وأسماك مطهوة بشكل غريب خوفا من لحم الخنزير والطيور باهظة الثمن التي لا تذبح على شريعة الله.

هل أرسلت السلطات في طلب أهل إيڤان؟ هل فعَل التونسي؟ لم يكن شيئا مؤكدا، الخادم لم يتوقف عن البكاء كلما اختلى بنفسه، أو انفجر موقف مهين في وجهيهما، وواصل جدي الصلاة.

نظف عفيف مكانا يسع لاثنين بصعوبة، الروائح متداخلة كريهة، الأرضية قذرة، خيمة الحَجْر تعج برجال ونساء وأطفال من كل الألوان والألسنة، إلا العرب. في أحد الأيام الغائمة، التي لا يمكن أن تميز فيها الوقت بمجرد مراقبة الظل على الأرض، ولم يكن هناك قرص في السماء، نوى جدي لصلاة، مُفتَرِضا أنها العصر، لم يكونوا يسمعون آذانا، ولم يشاهدوا عباءة، ولا عمامة. كاد يهم بالركوع في السجدة الأولى، حينما سمع حفيف قفطان يطير حول خطوة مسرعة، وعبارة: "استناني يا شيخ" بلهجة شامية صريحة، صوت عريض هادئ. استوى الرجل بخفة خلف جدي مباشرة، وكَبّر تكبيرة الإحرام. رقص قلب جدي في مكانه، وطفر الدمع من عينيه للمرة الأولى منذ أن وطأ بقدميه يابسة هذا البلد، نهض من الركوع وهو يكاد يغشى عليه، قال: "سمع الله لمن حمده".

الحاج "يَسلـــَم"، تاجر حلبي يقارب الستين، جاء من سوريا على متن سفينة بحماره. اممم، نعم، حماره. يبحث عن أخيه الأصغر في إيطاليا بعد أن دله أهل الخير على أنهم شاهدوه هنا. كان رجلا أشهبا، أبيض اللحية، طيب الرائحة طيب الكلام. انفعل بقصة جدي ووعد بمساعدته طوال إقامته في نابولي.

"ما راضيين يعطوني حماري، إلا ما لازم دبر له زريبة برات المدينة بالأول" الحلبي يبين سبب دخوله الميناء كل يوم.

ولأن الرجل كان قد أحضر حماره معه لإيطاليا لأسباب عاطفية، إذ أنه لم يفارقه منذ عشرين سنة، ويتفاءل به. لا أعرف كم من

المنطقي أن تعيش الحمير لأصدق الرقم، لكنه المذكور في القصة. كان الحلبي يخطط للتجول بحيوانه دون عربة في شوارع نابولي، لكن لسوء الطالع ذلك الفعل أصبح مجرّما في عهد موسوليني. الخيل والحمير صارت لها طرقات خاصة خارج المدينة وفي الحقول. ولما كان سعر المبيت في زرائب المدينة أغلى من إيجار المكان الذي يشغله الحمار في الحَجْر، فقد رأى يسلم أن يتركه مكانه ويعود كل يوم ليتفقد أحواله.

"أسباب.. ربك مسبب الأسباب"، يقول جدي مصطفى معلقا على القصة.

جاءت بوينا ابنة إيڤان بعد أسبوع من هذا الحادث، سألت عن أبيها، ونظرت باستهجان لجدي وخادمه، غادرت وهي تصرخ بكلام غير مفهوم، فقال التونسي: "تقول: خذاه وعودا من حيث جئتم..لا أحد يريده هنا"، تعني أباها. بعد شهر حينما علم جدي أن معنى اسم بوينا هو الجميلة، نظر إليها مطولا وهو يقول بمصرية خالصة: "هي جميلة فعلا".

تقصّى الحاج "يسلم" عن عنوان زوجة الخواجة في نابولي، كما أخذ عنوان عبد الرزاق في المنصورة من جدي، ودّعه على اتفاق بأن يقنع أهل الخواجة باستلامه، ومن ثم تنقضي مهمة الحاج أحمد، ويعود لمصر. لكن زوجة إيڤان لم تكن في البيت حينما طرق بابهم، كانت فقط بوينا، في حضن ماريليو.

لم يعلم أحد ماذا قال "يسلم" للفتاة، أو بماذا ردّت عليه، لكن قيل إنه كان لصديقها الشاب دورًا جيدًا في عدولها عن رأيها. عادت الفتاة للميناء بعدها بأيام لتتم إجراءات الإفراج عن الثلاثة، وقّعَت استلامهم،

وعلى الضمان الخاص بعلاج والدها وانصرفت. لم تودع أحدا ولم تدعهم إلى البيت.

تباكى إيڤان حين رآهما، جدي وعفيف، بدا عليه الهزال أكثر من ذي قبل، شكا لهما في عويل يكاد يكون حقيقيا كيف أنهم في الحجر عاملوه بلا رحمة، كم ليلة قضاها تحت غطاء خفيف بغير تدفئة أو ملابس أو طعام. نقطة ضعف جدي كانت قلبه ونواياه الحسنة.

كونستانيتا، زوجة الخواجة، ذلك اسمها، صورها المعلقة على حائط البيت القديم في حي بسيط بنابولي أخبرت الزائرين المصريين أنها امرأة جميلة كان لها تاريخ مع الأناقة والنُبل. ومع مرور الأيام اكتشف جدي قصتها، كانت فوق العشرين بعام أو عامين حينما عزم زوجها على السفر، حيث لا جهة محددة، فقط وعدها بأن يرجع بعد بضعة أشهر بمال يكفيهم لشراء شقة كبيرة ودكاناً لبيع السمك. وحينما نفد مالها، وجاع صغارها، صبيين وطفلة، عملت نادلة. تحملت سخافات العاطلين، وقهر المهنة في بلد دخلت الحرب لتوها. بعد عامين، استجابت لعروض صاحب الحانة بأن ترفع مدخولها، وتعزز جهات نفوذها بجسدها وصوتها الجميلين. بعد خمسة عشر عاما قضتها في الغناء والرقص وقعت في غرام بحار متقاعد، انتقلت إلى بيته، واشترت دكان سمك. حينما وصل جدي إلى بيت إيڤان كانت على وشك أن تضع طفلها من البحار بعد أيام.

غاب إيڤان عن بيته ما يقارب التسع عشرة سنة، وكان ظنه أنه سيعود ليجد زوجته وأبنائه بنفس الحالة التي تركهم عليها، لكن جدي وعفيف كانا أكثر منه اندهاشا بما حدث. الولد الأكبر توجه إلى روما قاصدا الاعتكاف ودراسة اللاهوت. انطلق الأوسط في بداية مراهقته نحو البحر، ألقى بنفسه على متن أول سفينة طلبت بحارة ولم يعد

لوقتها. بوينا منذ أعوام امتهنت مهنة أمها ثم التقت بماريليو، الاشتراكي الطويل الشاحب، المناهض للملك عمانويل، وموسوليني، ولليبرالية، والرأسمالية، وقمع الحريات. فتاهت معه في متاهاته حتى حين.

بدت نابولي كلها لجدي كباب واسع يبتلعه في وقت قصير. كان صفرا من كل شيء وأي شيء. يسأل الله أن يعيده إلى المنصورة، ودكانه، وذراعي زوجته، أم مصطفى. مجددا فرد سجادته الفارسي القطيفة، وتهيأ للصلاة.

ذات يوم أغلق على نفسه باب الغرفة الضيقة ذات القرميد الأحمر القاتم في علـــّية بيت إيڤان، التي يقيم فيها منذ أسابيع. كان في كل مرة يحاول التَأكدَ من اتجاه القبلة، ولما اطمئن قلبه، رفع يديه وبصره للتكبير، لاحظ بقايا أفيشاتَ الأفلام الإيطالية مرسومة بخط اليد، وصور القديسين، معلقة على الحائط. فتح الباب ونادى على بوينا بلهجته المنصوري، طلب منها أن تزيل هذه الصور أو تسمح له بإزالتها. لكنها كالعادة هزت كتفيها بلا مبالاة، وقالت: "هذه الغرفة كانت لأخي الأكبر، ولا يحق لأحد إزالتها إلا هو". قوانين، حتى في بيت إيڤان المحتال.

أخرج جلابيبه الداخلية التي كان ينام فيها ببيت الحسينية، رائحة مسك أم مصطفى في طياتها هزّت حنينه، وأكدت غربته. صعد فوق الأسرّة والمقاعد وغطى الصور بها، ثبتها بنفس الطريقة التي ثبت بها صاحب الغرفة الأفيشات. وقفت بوينا تراقبه حينما عاد للصلاة. الحنين الذي تنامى بداخله، ساقه في النهاية إلى البكاء وهو يتضرع إلى الله: "هاتها جمايل من عندك يا رب". لم تفهم بوينا حرفا من خشوعه، ولكن صوته وهو يجهش أخذها بقوة. سألته: "ماذا كنت

تطلب؟" فقال: "أن يعيدني إلى بيتي وأولادي". فقالت: "وهل كان أبي يدعوه وهو بينكم؟"

المفاجأة التالية التي ألقاها إيڤان على جدي أنه لا يريده أن يعود إلى مصر هذا العام. اتهم بوينا وزوجته أنهما تخططان لقتله، أو رميه في الشارع، لولا وجود جدي. ناح كالعادة بأنه مريض، مسكين، وليس من المروءة أن يتركه صديقه المصري الشهم في مثل تلك الظروف. طلب منه أيضا أن يبعث لأهله في مصر كي يرسلوا ما يكفي من المال.

كان المال يصل لجدي على عنوان الطلياني في كل مرة أقل من المطلوب بمقدار الثلثين. بعد العام بعث للحاج عبد الرزاق، ولابنه مصطفى، برقية شديدة اللهجة ليرسلوا المال كاملا. وذات صباح لا يعلم من أين جاء عفت ابن عبد الرزاق بهاتف وصل بصوته إلى نابولي، وكان عبثا منذ شهور قد أرسل لهم رقم تليفون البانسيون المجاور لبيت الخواجة. أكد عفت بصدق تحرك له صدر جدي بأنهم يرسلون المال كاملا، دائما، وختم حديثه بـــ "هو مين اللي بيستلم لك النقدية يا عمي؟"

***

هل أحب جدي بوينا؟ جدتي وِد قالت إنه أحبها.

كانت طقوس صلاة المسلمين تجذب بوينا، أو أن صوت جدي الخاشع برجاء العودة يسرق سمعها. كانت تقف في بعض الصلوات على باب غرفته تراقب حركاته، أو تنصت لدعائه. تحدثا في النهاية ووجدا لغة تجمعهما. اصطحبته بجلبابه وطربوشه وحذاء جلد الماعز إلى الشوارع والشواطئ والحانات وصالات عرض الفنون، قرأ عليها يس، وغنت له "Nonna Nonna".

بعد عامين عندما تركت كونستانيتا دكانها، قصدت بيت إيڤان، دخلت على جدي أحمد غرفته، دافعة الباب أمامها بقوة حتى ارتطم بالحائط، كانت تعلم أن زوجها لص، وأن المصري الممدد على فراشه في استسلام الآن إما غبي أو كريم أكثر من المطلوب. "لهذا بلادكم مستعبدة حتى الآن" قالت لجدي. ألقت بورقة نصف مبتلة على الطاولة، جففت يديها في المبذلة الملطخة بدماء وقشر السمك."اطلب من أهلك أن يرسلوا المال هذا الشهر على هذا العنوان، ولا تخبر الشيطان". بعد شهرين دخلت عليه بنفس الطريقة، وفي نفس الموعد، ذلك الذي يغيب فيه الخواجة عن الوعي بفعل الشراب، ألقت هذه المرة برزمة كبيرة من الليرات على الطاولة، قسمتهما نصفين دون عد. وضعت نصفا في جيب ثوبها وتركت له البقية. أشارت إلى بضعة أوراق كانت مع المال عليه أن يملأ بياناتها بالإنجليزية أو الإيطالية بمساعدة بوينا. ومجددا، إياه أن يخبر الشيطان.

في الشهر التالي أعطته المال كاملا. سأل إيڤان لماذا لم تعد تأت نقود من مصر؟ فأجابه جدي بأنهم "افتقروا"، ولم يمنحه ليرة واحدة مما وصلته. تكرر الأمر حتى بدأ الخواجة يرتاب في جدي إذ لم يره يشكو حاجة، ثم استثقله كضيف، يستهلك أكثر مما يقدم. بعد ستة أشهر جاءت كونستانيتا بالتذكرتين السياحيتين الفاخرتين اللتين ستعيدان أحمد جلالة وخادمه إلى بلادهم كسيدين مكرمين، ولم تعطه مالا.

قبل أن يستقل الباخرة المتجهة إلى الإسكندرية بيوم، ذهب إليها في محل عملها، كانت تصرخ في الزبائن، ووالد طفلها يضع في فمه غليونا فارغا، عيونه نصف مفتوحة يهدهد الصغير بأغنية غير واضحة، تركت ما بيدها وتوجهت نحو جدي متعجبة. سألته هل حدث مكروه؟ أجابها بـــ لا.

ذهب ليشكرها ويوصيها بإيڤان. مطت شفتها السفلى في وجوم وقالت: "لا فائدة.. أنت أحمق، أو قديس..إيڤان سيعيش أطول منكَ ومني".

"لماذا ساعدتني؟" سألها جدي.

"لأن ابنتي أحبتك، وهذا خطأ.. احزم أمتعتك وبِت في المرفأ الليلة.. وإياك أن تخبر الشيطان".

***

مصطفى أحمد جلالة

"الحمد لله ربنا نجاك من البلاد النجسة يا آبا الحاج" قال عفت في صالة الفندق السكندري المتواضع ليلة وصول جدي أحمد لمصر.

"لا يا عفت، فيهم ناس نضيفة كتير". قالها جدي أحمد شاردًا.

بعد شهور وصلت باسم جدي أحمد، وشريكه عبد الرزّاق، مبايعة موثقة بأختام مصرية وإيطالية تمنحهما حق امتلاك بيت المختلط، من الأوصياء على المحجور عليه إيڤان أبرامو مانيتتي. توقيع كونستانيتا، وأرمانو وبوينا آبرامو. أعاد جدي غلق المظروف في شجن بعد قراءته. كمن ترك جزءًا من نفسه في نابولي، أو تعلم درسا صعب التهجي في نهاية عمره. نصف هذه الأوراق مكتوب بخط بوينا في غرفة السقيفة، يوم كان معها، خطه تحت خطها، لم تمت تلك الأيام في أحمد جلالة حتى مات. لهذا لم يعترض بعد عامين على زواج مصطفى من "وِد"، فتاة فندق الإسكندرية؟

إن مسألة شبهي بجدتي "وِد" كانت محسومة دون أن يخبرني أحد. أنظر لنفسي بالمرآة وهي خلفي على أريكتها فأرى الدليل. جدتي سمراء، عيونها واسعة ناعسة، أهداب طويلة، أنف وفم صغيرين، خدود ممتلئة، قامة طويلة وقوام مكتنز.

ملامح أبي وهيأته التي لم أرث منها شيئا، أمي بقسماتها الروماني البيضاء، بشرة جدي مصطفى الحمراء، عيونه الرمادية، أنفه العريض، كل ذلك كان جديرا بأن يضعني في قائمة منجزات

جدتي بالتمام والكمال. جيناتها التي عبرت أولادها دون أثر يُذكر، أصابتني أنا بالذات.

"فَرَسَة.. كانت تمشي، شعرها يلف وراها، ساقط لحد وسطها" هكذا تغزّل جدي مصطفى فيها حينما سألتـــُه عن سبب زواجه من "واحدة من آخر الدنيا".

كان مصطفى قد جاوز عامه السادس والعشرين، حينما صادف حبا حقيقيا يعلمه معنى اللوعة ومشاعر الاحتياج. متزوج من إحدى قريباته ولم ينجبا أطفالا. ورغم قلق أمه، وإصرار زوجته في كل الاشتباكات على أنها سليمة، أمها أنجبت تسعة، ولكل واحدة من أخواتها خمسة أبناء، العيب في مصطفى، عالجوه. إلا أن جدي مصطفى، قبل أن يصافح قلبه وجه "وِد" لم يكن ينوي الزواج مجددا.

بعد وصول أبيه من إيطاليا بشهر، عاد مصطفى إلى الإسكندرية، حجز غرفة في نفس الفندق، وتقرَّب من "وِد" بتهور جعله يحكى عن قصة ختانه. ضحكت واستاءت في وقت واحد، لم تفهم ماذا أراد، كان أغرب طلب زواج مَرّ بعائلتنا.

لم يقل جدي ذلك لجدتي يومها لتستعجب، أو تضحك، وإنما يمهد لفكرة أن خصوبته معيبة، ربما لن ينجبا، لكنه يحبها، هذا في حال وافقت على طلبه. لكن، في عمري هذا، أرى أنه حينما يحكي رجل لفتاة لم تبلغ الخامسة عشر قصة ختانه المزعجة فهو قد استراح لها.

حدث ومصطفى الطفل في السادسة من عمره، أن قفز نصف عارٍ هاربا من فوق طاولة الحلاق. جرى كفأر يخشى أن يقطع البشر ذيلهً. جدي أحمد لعن الشيطان الذي سوّل له تأخير ختان هذا الولد حتى يكبر. توالت المحاولات بعدها عدة مرات وباءت بالفشل، كلها. في الثامنة عشر ضربه ولَد "حابسة" على مؤخر رأسه ضربة قوية،

وحينما أفاق منها، وجد نفسه مقيدا في أعمدة سرير أمه النحاس من الأربع جهات، هناك ما يقرب من عشرة رجال في الغرفة، يعرفهم كلهم، إلا واحدا، ذلك الذي أمسك بالموسي وهوى بين ساقيه يقطع الزائد من عورته، كان يصرخ مذعورا وهو يشعر بكل شيء. ضحك الرجال من حوله وباركوه. وطلب جدي أحمد من زوجته أن تواليه بطعام جيد. ثم أشار لمصطفى الذي مازال مقيدا، يبكي ويشتم وقال بصوت مرتفع: "وإنتَ.. كده بقيت جاهز نجوِّزَك". فزوجوه ابنة خاله، "جازية"، التي إذا ذكرتها جدتي "وِد" قالت: "جارية". "طبعها طبع عبيد يا بنتي، زنخة وضِلمة وما تمشيش إلا بالخرزانة".

***

رفضت "وِد" الزواج من مصطفى في العام ١٩٣١، والعام الذي تلاه. لم يتوقف عن زيارتها كلما حمله الشوق لهذا. يتأكد من أنها لم تقبل الزواج من غيره. لم ييأس، ولم يعد نفسه بالكثير. يسكن قلبه حينما يراها متاحة، تستقبله في صالة "كارَول"، الفندق، وتسأله: "قاعد قد إيه.. وتتعشى إمتى؟"

"كارول" اسم المغنية اليونانية التي بَنَت ذلك المكان. كازينو صغير يقدم الأطعمة الخفيفة والشراب والتسلية اللطيفة بذوق خاص. ومن ثم رفعت فوقه عدة غرف، واستخرجت رخصة من نظارة الداخلية للسماح بمبيت البحارة والمسافرين، على ألا يلعبوا القمار، أو يصطحبوا بنات الهوى. ثم جاء عنتر، الصياد البدين، ملابسه رثة تفوح منها رائحة اليود والعرق، لكنه أيضا قوي أمين. فعمل مع كارول حارسا، وطباخا، ورئيس عمال ومسئول مشتريات ومدير فندق، ثم قررت السيدة الرحيل فجأة، سألته إن كان معه مال. فأخرج أربعة جنيهات من بين بطنه وحبل لباسه وقال: "ما احتكمش على

غيرهم". أخذت كارول المال، وكتبت له المكان بالأرض وشقتها التي خلف المسرح بيعا وشراءً. أعطته العنوان الذي سترحل إليه في صَيْدا، وقالت: "كل ما وفرت أربعة جنيه ابعتها، لحد ما يوصلوا سبعين". لم تأخذ عليه ضمانات، لم توص به محامياَ أو صديق ليتابعه. تركته لضميره.

تغيرت معيشة "عنتر"، استقدم من القاهرة تختًا عربيًا بمغنيات وراقصات مصريات ذوات أجور أقل، يغنين أغاني أكثر شعبية. قدّم السمك بكل أشكاله وأنواعه مطهوا بكل الطرق. صار مسرح "كارول" قِبلة الطبقة المحلية من أعيان مصر، حتى الصعيد. ثم مع الوقت تزوّج "عنتر" شابة جميلة من رشيد، تصغره بأعوام كثيرة. مرحة، مطيعة، راضية. أنجبا ولدا في البداية كان جميلا لأمه، قويا لأبيه، ثم رزقا بعده بـــ "وِد". وِد السيد عنتر، والعترة السيد عنتر.

العترة أُخِذَ للجهادية عام ١٩٢٥ ابن أربعة عشر عاما حينها، رغم أنه ولد وحيد، ورغم توسلات أبيه لكل من عرف من كبار القوم ومن لم يعرف. أم جدتي التي كانت تحب الحياة، بعد ذلك الحادث لم تكن تفعل أي شيء طوال الوقت سوى الجلوس على باب الشارع معصوبة الرأس تبكي وتضرب وجهها وفخذيها بكفيها والنسوة حولها. تضاربت الأقوال حول أنه لم يدخل الجهادية، وإنما السجن، كانت تحبه ابنة مأمور الجمرك واستجاب لمغازلتها. لكن أحدهم زاد الطين بلة حين قال: "قلم السياسة خدوه، كان بيساعد أعداء الوطن". بعد ثلاثة أشهر جاء أحد الوجهاء بنفسه للفندق عند الظهيرة، أخبر عنتر بأن اسم ابنه مقيد بالجيش، وبأنه في إفريقيا منذ أسابيع يشارك في قمع القوات المتمردة، "نال شرف خدمة الملك".

هدأت أم العترة، لكنها لم تعد كما كانت. عنتر أيضا، هدم المسرح وجعل في جزء من مكانه صالة متوسطة لاستقبال رواد الفندق، وأقام في الجزء الباقي مطعما منفصلًا، له باب خارجي على شارع، للفقراء. قدم الطعام قليل السعر بجوار أطباق السمك الفاخر، وتعلم أن يزور المسجد وأولياء الله الصالحين. يبكي على ضريح المرسي: "يا رب ما تحرق قلبي عليه". لكنه لم يره ثانية في حياته. في العام الذي عاد العترة لمصر كان عمي صلاح قد قُبِلَ في المدرسة العسكرية.

مات عنتر بعد أن طلب من زوجته أن توقظه بعد ساعة ليستلم السمك من التاجر بنفسه، كان ذلك عصر يوم ربيعي مشمس، في بداية إبريل ١٩٣٢. سبعة أعوام بلياليها ونهاراتها، فكّر كل ثانية في حال ولده، كم صار عمره؟ كيف أصبح شكله؟ بصحبة من؟ كل ذلك لا يفيد، مات وعزاؤه الوحيد أن وسيطا من عِلية القوم يرسل له من آن لآخر يطمئنه أن الولد على قيد الحياة.

أرسلت وِد إلى مصطفى في فبراير ١٩٣٣ خادم الفندق، أعطته نصف جنيه، وشددت عليه ألا يبوح بالرسالة إلا لمصطفى: "الست وِد بتقولك موافقة".

باعت أم العترة المكان، الفندق، المطعم، شقة "كارول". أوراق رسمية ينقصها إمضاء العترة باعتباره حي غائب لا يُرجى عودته يومها، لكن مقبولة. "هنستنى لحد امتى؟ أخوكي لما يحب يرجع هايلاقينا.. إتجوزي الجدع، بيحبك"، قالت لابنتها وعادت لأهلها في رشيد.

دَخَل مصطفى بـــ "وِد" بعد سنوية والدها مباشرة. حاضت مرتين بعد زواجها، ثم انقطع الطمث. وبعد شهرين من انقطاعه

صارحت زوجها، فتأثر، كاشفها مجددًا بمخاوفه. جريمة هروبه من الختان ظن أنها تطارده، وأن الله يعاقبه. في اليوم التالي، وقبل أن يفكر في قيلولة، طلبت منه "وِد" أن يوصلها حيث أمها. جزع مما سمع وسألها عن السبب. فقالت: "النسوان ف بحري لما تقطعها العادة يقولوا حبلت، مش غضب ربنا؟ ودّيني لأمي".

لم يذهب بها لأمها، بل للقاهرة. استأذن أباه في أن يزور آل البيت بزوجته الجديدة، فقبِل، ووافقته أمه بنصف قلبها، ثم دعت لهما بالسلامة والصلاح. النصفَ الآخر كان مع الجازية، تلك التي حبست نفسها في غرفتها منذ مدة.

لم يزورا الحسين فقط، إنما وقصر العيني أيضا. فحص جدتي يومها طبيب مهندم قصير القامة، أخبرهما بحرفية وحزم أنها حامل. مصطفى لم يصدق، انفعل وبدأ في حكي غير مرتب عن ختانه، وكيف أن زواجه الأول لم ينذر عن بشارة مماثلة.

"إنت بتشك في أهل بيتك يا معلم؟" سأل الطبيب

"لأ..بس.." جدي.

"طيب تحب نكشف عليك انت؟" الطبيب.

" تكشف عليّ؟ لأ طبعا" جدي.

عادا إلى المنصورة سعيدان بأنها حامل، ولكن في رأس مصطفى مسمار يؤلمه. لم يَشُكّ في "وِد" لحظة واحدة، تزوجها عذراء، ولم تخرج من دارهم حتى يومهم ذَاك، والدار أمان. ربما هو سليم؟ طيب، والجازية؟؟

الجازية منعته من غرفة "وِد" ثلاثة أسابيع بعد عودته من القاهرة. ووافقتها عمتها أم مصطفى، فإن كان مصطفى سليما و"وِد" حامل، فلماذا لا تحمل الأولى أيضا؟

يسرق مصطفى وقتا من قيلولة "جازية" ليتسلل لغرفة "وِد"، التي تستقبله بتمنع هي الأخرى. الجماع في الشهور الأولى يسقط الأجنة. يوما بعد آخر كثرت المشاكل، خاصة وأن عادة "الجازية" الشهرية تكررت بانتظام.

قضت ود بقية حملها تعمل في البيت مع الخدم، بالطابق الأرضي، لتختفي عن عيون حماتها وضرتها. تخبز وتكنس وتطعم الدجاج، ترتب جلسة زوجها، وتطهو طعامه. لكن التعب، والاجتناب من أهل البيت كرامة للجازية، عوضه حب الشغالات. "شوقة" بالذات لتقارب السن. واحدة تنصح والثانية تدلل، والثالثة تمدح طريقتها في الحديث وإدارة العمل. كانت "وِد" تحمل معها في شوار عرسها من الزيوت والمساحيق والعطور وزينة الأيدي والرقبة والخلاخيل، ما كفي لأن تعطي كل خادمة هدايا لطيفة غريبة على فترات. تحمل أطفالهن أثناء قيامهن بالعمل عنها، تغسل وجوههم الصغيرة المتسخة حتى لا يحط عليها الذباب، وتقبّلهم، وهذا ما لم تكن تفعله أم مصطفى.

مالت دفة الأمور بين يدي الحماة، لم تجد ما تحنق به على السكندرية غير أنها هادئة جميلة، حبلى، ويحبها ولدها وأبوه، وخدم البيت. إن استمرت في الاستماع للجازية فستخسر الجميع. ثم خطر ببالها مخرجا كلاسيكيا للمأزق. طلبت من الجازية أن تسأل مصطفى زيارة طبيب قصر العيني كما فعل مع "وِد"، ربما تكون حبلى هي أيضا، أو على وشك.

الجازية كانت كالبغلة الحَرون، ترفس وتتعالى في كل عبارة تقذفها نحو زوجها، لم تكن تتحدث إليه بل تأمر. رفضه لطلبها أو قبوله لم يكن يثنيها عن سلوك الرَّكُوبَة العصيانة. فيلجأ لضربها، هي تصرخ، تسبه وتسب أسلافه واليوم الذي زوجوها له فيه، تطرق أم مصطفى الباب "سيبها يا بني.. كفاية يا مصطفى"، ويوليهم الحاج أحمد جميعا ظهره.

***

حسن حافظ

كان بالإمكان أن أقود سيارتي هذا الصباح إلى القاهرة. أفتح زجاج النافذتين الأماميتين وأهرب مسرعة فوق طرقات لم تزدحم بالحياة بعد، وأتنسم رائحة انتهاء الصيف المنبعثة من أعواد الأرز وقد شارفت على الحصاد. أطارد كتل الضباب التي ستحرقها الشمس بعد قليل، أوهم نفسي بأنني أنتصر في معركة حقيقية. لو أنني استقبلت "حسن" هناك، لخلقتُ لنفسي مكانا أفضل للسيطرة على أحبولة معقدة، أعلم أنني قاضية فيها ومتهمة. فكرة خطرت ببالي وأنا أرمق الساعة منذ قليل، مازال الوقت مبكرًا.

لم أنم البارحة بعد أن غادر "حسن". واصلتُ تقليب قنوات التليفزيون، وتبديل أماكن الاستلقاء حتى رن منبه سارة بعد الفجر بساعة. أعترف بأنِ حديثه بعثر رأسي، لم يسهل مهمتي لأصارحه بما أريد، أو أنني كنتُ مبعثرة من قبل الموعد. خاصة عندما ابتسمت لنا سارة عند باب الصالون بوجهها الأبيض وجفونها الممسوحة لتقول: "منورنا يا عمو".

رغم معرفتنا القصيرة التي تطورت في الشهور الأخيرة، إلا أن "حسن حافظ" منذ البداية شخص رائع. حين رأيته أول مرة وجدتني أثبّت في عقلي صورة نفسية هادئة بجوار وجهه الذي تنبسط ملامحه في تعبير مسترخٍ، أو غير عابئ بشيء، وكأنك ترقب نائما عينه مفتوحة. ثم عندما يبتهج، يبتسم ابتسامة صغيرة لا تستقر في مكانها، ما تلبث أن تغادر وتعود قسماته للسكون. أتأمل رأسه المثلث، وشعره الرمادي المسحوب للخلف تسري فيه موجة تجعيد مائلة، على رقبته

تجعيدة مشابهة، قميصه الأبيض بخطوط زرقاء متوسطة ذكرني بقمصان أبي في أواخر السبعينات.

الأفكار لا تأتيه وإنما تسكنه، يسلسل احتمالات الاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة بالتاريخ بترتيب وترابط رغم تشعب الفروع وجفاء القوانين. يسترسل في الوصف والاستنتاج وتحديد الأزمنة دون توقف. شردت وهو يتكلم، صوته العريض يشيع في الجو غيبوبات متقطعة، أحرك عيني وأهز رأسي بـــ"نعم"، "لا"، "معقول؟"، "طبيعي"، وأشرب الكاكاو.

ندبة هلالية مستعرضة تحت عينه اليمنى، ببعض الحدس أتصوره في شبابه بنظارة كبيرة يمر نصف إطارها الأيمن تماما فوق الندبة. كان معدنيا، أو أن زجاج العدسة خرج من مجراه وانغرس في الجلد."الرأسمالية اللصة، أهلكت كل الطبقات المنتجة، المفيدة، المعطاءة، إحنا ماشيين لمصير همـــ جـــ ـــي.." يقول، وتركيزي ينسحب. عيناه في الماضي كانتا أكبر، هذا ما تخيلته، شفتاه أغلظ، أنفه هو التفصيلة الوحيدة التي وقفت مرتفعة دقيقة في منتصف الطريق غير مرتبطة بسن، كان يقول الكلام بتدرج مفهوم في البداية ثم تعقد الكلام، كان عليه أن يتوقف ليستمع إليّ، لم أطلب لقاءه ليشرح حال البلد. حينما اتصلت به رحّب بالفكرة ولم أعرف أين أقابله إلا هنا.

ظل يثرثر، وسارة تحاصرنا، بعد أن نامت ابنتها أدخَلت زيها المدرسي من على الحبل ولم تغلق الشرفة. فردت طاولة الكي قربنا، وتحركت بخفة، بالنسبة لوضعها، تبحث عن بخاخ الماء في الحمام، رشيقة كجدتها نفيسة، لا تتورم في شهور الحمل الأخيرة كما كان يحدث معي، بشرتها ذات النمشات القليلة على وجنتيها تعيدني بالزمن ثلاثة عقود أو أربعة، حيث كان يُعيَّر أبوها بأن أباه "مش مصري".

عبر مشهد الليل الهائل الذي ملأ الغرفة بعد فتح البلكونة شغلني ضوء أزرق مركز على لافتة محل عريض الواجهة في عمارة قريبة، طريقة الـــ spot القديمة للإعلان عن اسم الشركة: [الأمانة للأجهزة المنزلية]. قط ضخم متسخ يتشمم حاوية القمامة الحديدية الكبيرة عند تقاطع ش ألبرت مع شارع المحكمة.

"حسن، أرجوك اسمعني، إحنا لازم نتقابل تاني بكرة، بس مش هنا" قلتُ في النهاية.

***

ذلك الفجر، بعد مأتم محمود بأسبوعين، لم أخَفْ من طلب رقم هاتف رجل غريب قبيل آذان الفجر. لكن أخافني السؤال: هل سيفهمني؟ قلت لنفسي وأنا أفتش في قائمة الأسماء على هاتف ابني، الذي أعطوني إياه مع بعض توافه نجت من الكارثة."أنا، أنا.." قلت حينما أجاب الطرف الآخر. ثم غبتُ في بكاء غير قصير.

لازلت أتذكر جيدا حينما لم ينفد صبره. لم ينهِ المكالمة، لم يسألني من أنا، تمتم بما يشبه الحوقلة، حشرجة النوم نافست صوته العميق. بعد دقيقة قال: "اهدي بس". ألقيتُ الهاتف على المقعد القريب، بكيتُ ثانية، كان الرجل أحلم من أن ينهي المسألة ويعود للنوم. قال: "آسف" ثم لم أسمع بقية قوله، أغلقتُ الخط.

بعد ساعة طلبته من جديد وسألت: "كلمني عنه" أعني محمود. يتنهد الرجل. أحبس أنفاسي كي لا أبكي، صوته المتمهل ينبش الجروح الحية، ويوقظ آلاما قديمة تركتها في مكانها منذ زمن باعتبارها غير موجودة. قال: " محمود كان أفضل شاب قابلني في حياتي". حاولت ألا أرفع صوتي، قلت: "عرفته فين؟" سحب سحبة هواء قصيرة ثم قال: "على كورنيش المنصورة، صدفة، في وقفة خالد

سعيد". أخبرني أن ابني شخصية ملفتة، كان من الصعب ألا يلحظه، وما أن انفضّت الوقفة، حتى بحث عنه ثانية. ألقيت الهاتف مجددا، شهقات البكاء كانت ستوقف صدري، لم أسمع البقية. مكالمتنا الأولى، من أقسى ما يكون، ولم تكن الأخيرة.

"حسن" أصعب لغز سهل اقتحم حياتي بعد رحيل محمود، أكاديمي مثقف، أسير حقبة ما بين السبعينيات والتسعينيات لكنه لم يتوقف عن رصد الألفية الجديدة بتواتر أحداثها ومزاجية أهلها. لم يستغل أحدا أو شيئا في حياته، لكنه اهتم بتحصين نفسه كي لا يُستغل. حين قدم إلينا في بداية سهرة الأمس بطبيعته المتعاطفة، ظننتني سأقرب مقعدي منه وأقضي ساعات أثرثر وأبكي وأشرح شكوكًا، هو الوحيد من سينفيها أو يؤكدها، لكنه فاجئني برغبته في الفضفضة كجريح أخير في ساحات الحب والحرب.

ودّعته عند مدخل البيتين، لفت نظري أنه ركن سيارته في أظلم مكان من الشارع، قرب القصر المحروق. وقفتُ مكاني تحت القوس الحجري، راقبته وهو يختفي في العتمة بقامته الطويلة وخطوته البطيئة، سمعت محرك سيارته يزمجرُ بصوت مُتعَب ضاع صداه في الطلل المجاور ونباح الكلاب، فصعدتُ إلى الشقة.

عند الباب قابلتني سارة، نظرتُ لبطنها نظرة غير مقصودة، لم أجب على سؤالها:

"مشي خلاص؟ راجل رائع!"

أصابتني نفس الغصة التي تباغتني كلما ركزت تفكيري عليها، تنتقل الغصة بعد زفرتين إلى قلبي في حرقة يتبعها غثيان في المعدة، جاءت خلفي حتى الغرفة التي وضعتُ فيها أغراضي ونمت منذ أيام،

وهي الغرفة التي كانت لصفاء وأنور في الماضي، ثم لسارة ومحمد بعدهما، الآن سارة تبيت في غرفة ابنتها، وصفاء في المستشفى.

حاولَــت الإمساك بيدي لتضعها فوق بطنها، قالت: "شوفي يا طنط بيتحرك!"

كسور من كسور الوقت مكنت يدي من الإفلات، ضَحكَت ببراءة وزمّت أنفها، كانت مطمئنة منشرحة الصدر، هذا ما يوقظ شعوري الدائم بأنها سعيدة لموت زوجها.

قابلتُ ذراعيّ ببعضهما بالعكس، لأنزع عني العباءة، تنهدتُ، خلصتُ الملابس من رأسي وكتفي، أيضا لم أجبها. من البداية كان من الغباء أن أظن أنه يمكنني سؤال "حسن" عن كارثتي مع سارة في بيت سارة. شقتي، التي كانت لجدتي "وِد"، في العمارة القبلي، لم أدخلها منذ رحيل الجميع، حتى عندما سكنَها محمود لم أزره فيها إلا مرة. استأذنتها لتخرج من الغرفة لأنني سأنام، ولم أفعل.

عند السابعة صباحا حينما طرَقَت باب غرفتي، لم أكن نسيتُ محاولتها وضع يدي على بطنها المنتفخ بالحَمل. تصنعتُ النوم حتى غادَرَت البيت هي وطفلتها. اليوم الدراسي الأول. أحب الصغيرة، تذكرني بابنة محمود، وبصفاء الكبيرة، وبيحيى وهو صغير. سارة أيضا تشبه يحيى. لكنني لم أحبها كما أحببت أباها.

***

سجايا

جدتي "وِد" وضعت صبيا كان أزرق اللون يوم مولده، قالوا سيموت، فلما أتى عليه اليوم التالي احمرّ لونه باسوداد، فقالوا سيأخذ لون أمه، وبعد شهرين تحول ذلك اللون إلى الأبيض المُربــك، حيث قزحيتا عينيه سوداوان بوضوح، شعره في طريقه للسقوط يكَشف عن جلد رأس رقيق، قريبا ستنبت منه خصلات أقوى ولون مستقر.

قبل السبوع بيومين قال جدي مصطفى: "هسميه أحمد"، فقالت "وِد": "ما يبقاش عنتر والا العترة ليه؟" قالت أم مصطفى: "عبد الخالق علَى اسم.."، قاطعتها "وِد" لتقول: "العترة".

كان جدي أحمد يعد نقوده على الأرض في الغرفة، أنهى العد ووضع المال في كيس قماش حال لونه للأبيض المتسخ، ربطه جيدا وتركه جانبا، أخرج من جيبه جنيهين وأعطاهما لِوِد، جنيهين آخران للمولود في يد أمه، وجنيهين للجازية في يد زوجهاَ، وسأل عنها، قالوا "في غرفتها". ستة جنيهات سنة ١٩٣٤ تؤثث دارا لعروس. كان سعيدا بحفيده الذي يحمل اسم العائلة، لكنه لم يظهر فرحا إلا بهذه الفعلة.

أخبرتني جدتي أنها بقدر ما احترمت ذلك الرجل وشكرته في نفسها لنبله وسخائه، لكنها لم تطمئن تماما لجانبه، خشيت سفراته إلى الصعيد والقاهرة والقرى المجاورة، حدس بداخلها يحذرها من أن يعود بخبر زوجة جديدة لولده الوحيد. "كان معاه فلوس تعمل جُرن عيال"، طالما قالت ذلك جدتي فأشعر بكم أحبت جدي مصطفى وأرادته لنفسها فقط.

سألهم جدي أحمد فجأة عن اسم الطبيب الذي بشَر مصطفى بأن زوجته حامل، فأجابوه: "محمد صلاح"، فقال: "خلاص الواد ده كمان محمد صلاح".

في تلك الليلة، ليلة "نقوط الولادة"، دخل مصطفى غرفة الجازية يلاعبها، يطيب خاطرها ويسألها ألا تفسد على البيت فرحته، أخرج الجنيهين، ولثم جبينها، وقال: "النوبة الجاية عندك.. أنا مبيت معاكي الليلة.. فرفشينا يا ست".

هذه الغرفة كان الجميع يسترق السمع إليها بشكل دوري، للاطمئنان، أم مصطفى لا تكف عن مصمصة شفتيها في السر على حال ابنة أخيها المكسورة بعدم الخلفة، الحاج أحمد أيضا كان يراعي شعورها، يراقب أفعالها بصبر، محبة في صهره.

"كمان أفرفشك؟ ده انتو عيلة ما عندهاش دم" قالت الجازية بصوت مرتفع، تجمّع من تجمع حول الباب إلا "وِد"، كانت تتوقع هذا منذ وضعت، لم تتدخل. ألقت الجازية النقود علَى الأرض وبصقت عليها، ثم على مصطفى، "يلعنك أنت وأبوك وجدودك، مستنية منك نقوط بسلامتها؟ ياكش ناسي أنا مين؟ لكن إنتم مقامكم بنت السمّاك، والصرصار ابنها اللي.."، لم تنهِ عبارتها، فقد كان الحاج أحمد قد اقتحم الغرفة صائحا في ولده: "حالًا ترمي عليها اليمين".

"يابا.." جدي مصطفى.

"حالا" جدي أحمد بصوت يرعد.

"طالق يا جازية" مصطفى، برأس منخفض ونبرة تحمل من الاستسلام الكثير.

"الصبح توصلها بيت أبوها" قال الحاج أحمد وخرج من الغرفة.

عاد مصطفى من بيت خاله بالشرقية في اليوم التالي، فوجد زينة وطبلا وخيلا، فقراء عند الباب الكبير للدار، طبليات مرصوصة هنا وهناك، لحم وفاكهة وأرز، نسوة يدخلن ويخرجن من الباب الخلفي بهدايا ملفوفة، خدم وهوانم، خرج الحاج أحمد في ساحة البيت بسلاحه وأطلق خمسة أعيرة نارية في الهواء، أجابه عليها بعض رجاله وأصدقائه من التجار بأعيرة أخرى.

"كانت ليلة طين" كما وصفتها جدتي، إذ لم تنم، ولم يتوقف رضيعها عن الصراخ. زاد الأمر سوءًا أن دخل عليها جدي مصطفى أسود الوجه، حزنا، لفراق "الجازية"، وكانت المرة الأولى التي شعرت "وِد" بأن زوجها متعلق بابنة خاله.

في ذلك العام تزوجت جدتي سجايا، الأُخت الكبرى لجدي مصطفى. حينما أخبروني بقصة زواجها، وكنتُ شابة، كان المحكي وكأنه أسطورة. خاصة وأنني لم أر تلك العمة قط في حياتي. بعد أن سافرت مع زوجها، قالوا جاءت مرتين، مرة بعد موت أبيها بشهرين، ومرة بعد موت أمها بعام، ومن ثم لم تسأل عن أحد، ولم يسأل عنها أحد.

بعد شهر أو أكثر أو أقل من ليلة "سبوع" عمي صلاح، جاء "يَسْلَم" إلى دار جدي أحمد يركب حماره الذي كان بصحبته في نابولي. قالوا، فضحكت، أكذّبْهُم، ولم أصدق. لم يكن السبب الرئيس لقدومه معروف، قال أبي الاستطباب، وصفوا له شيخا يعالج بالأعشاب والرُّقى في أجوار طنطا، فانتهى منه وأتى لزيارة جدي أحمد ليطمئن عليه. وقالت جدتي "وِد": "لا، كان متسكعا بطبعه يحب التجوال وإنفاق المال على الموالد والنزول ضيفا على الغرباء". في حين أحبه جدي مصطفى وقال في حقه وقت رواية القصة كلاما

كريما، وأضاف: "سيبك منها" يعني جدتي، لا يثمّن الرجال إلا الرجال. فأقسمت جدتي أنهم "ما صدّقوا" رموا له البنيّة، وكأنه خلّصَهُم منها.

سجايا أول بخت أحمد ونجية (أم مصطفى). رُزِقا بعدها بالبنات فقط، أربعة، لم تعش منهن واحدة. قالوا دخلت على نجية امرأة حائض أو أرملة في عدتها ليلة ميلاد سجايا، فكبستها. كبستها؟ نفَسَتها؟ ولا أدري نَفَست سجايا أم نجية؟ لم أفهم. الفكرة أن هذا الفأل تسبب حسب معتقدهم في ألا يعيش لنجية أبناء بين مصطفى وسجايا. ذلك الذي تفصله عن سجايا خمسة أعوام أو ستة، ثم جاءت بعده أُلفت. ثم لم تحمل نجية أبدا.

"أُلفت" تزوجت قبل أن يتزوج مصطفى. طلبها أحد أبناء عمومة أبيها، يكبرها بعشرة أو أحد عشر عاما وإنما كان شابا مليحا، هائم بجمالها منذ طفولتها، فزوجوها، أنجبت له سبعة بنين وابنتين. كانت حتى ماتت مضرب مثل في عائلتنا، يقول أبي: "ما فرّعش وفروعه عرَّشت إلا عمتي ألفت"، وبقيت سجايا. كانت كالشبح في دار أبيها، لا تتكلم، لا تبكي، لا تضحك، تطالع أهل البيت عن كثب بلا تدخل، تستيقظ بلا طائف، وتنام في وقت لا يعلمه أحد. كان لها قنديل أبيض من الخزف، أوصى أبوها أحد الحرفيين بجوار "مقام السيدة" أن ينقش اسمها واسم صاحبة المقام عليه، يضاء في بداية الليل في غرفتها ولا يُطفأ إلا مع طلوع الشمس. لم تكن قسمتها من أشغال البيت إلا غرفتها فقط، تشمس فرشها وتكنس أرضيتها وتفركها بالماء والصابون. تجدد بساطها كل عام بآخر مثله، وكانت تكره الحشرات والزاحف كراهة الموت. لا تأكل من طعام البيت، وإنما من طعام تصنعه بنفسها في قدور صغيرة بديعة من الفخار. قالت الخادمة لجدتي أن حتى هذه الأواني تصنعها "سجى" بنفسها، من طمي النيل.

"كانت بتقرا وتكتب وتصلي وتسبّح زيها زي الرجالة بالزبط " قالت جدتي. بل إن ما كان يخيف "ود" منها حينما دخلت دارهم عروسا، أن سجايا تشبه مصطفى شبهاً كبيرا. طولها يقارب طول أخيها، الوجه نفسه، النظرة، المشية، توأم، مع فارق العمر. وكأن مصطفى كان سجايا ثم تحول إلى رجل، أو أن سجايا كانت رجلا في الأصل "واتسخط حُرمة".

"ف الأول كنت مفكراها خرسا، أو منحوسة، عيانة، ما كانتش بتاكل ولا تغسل هدومها معاهم، وبعدين أمها قالت إن دي طلباتها. بتاعة ربنا. مش عايزة تختلط بحد" جدتي.

حينما حاضت الجازية في شهر عرسها مرتين اتهمت سجايا بأنها السبب."متجوزة عفريت، جتتي بتشيل منها كل ما اشوفها". فاعتزلتهم سجايا.

أقسمت جدتي في الحكاية الآتية أنها استيقظت فجر أحد الأيام، بعد ليلة بات فيها جدي بغرفة الجازية، على صوت يشبه البكاء، ممزوجا بتراتيل أو تعاويذ مبهمة، كلام يشبه كلامنا "وكأنه بالعربي بس ما فهمتوش يا بنتي". شيخة سجايا تدور في الغرفة بسرعة ثم ببطء، بسرعة ثم ببطء، ترفع يديها كمن يستعد للطيران ثم تخفضها، ترتدي شيئا رقيقا شفافا وإنما مطرز، جميل، هدأت، وقفت في منتصف غرفتها فوق البساط، تعرت، سكبت على نفسها الماء الحار، كان الدخان يتصاعد من ثناياها، ظهرها للباب حيث تسترق جدتي النظر من ثقب المفتاح. "بيضا. جسمها مفسر، شعرها إسود، سواد شعر ورموش عمك صلاح، دراعاتها طويلة، وصدرها، لما اتدورت، زي حَب البرتقان. حورية". عصرت سجايا شعرها وملـّسته بشيء ما ثم جدلته، ارتدت جلبابا قطنيا غير منقوش، "سادة، زي هدوم

الرجالة"، فتحت النافذة وأسدلت الستائر، أطفأت القنديل وجلست حيث جلست، تنظر لموقع الشمس، وعادت للبكاء. من كان يدري عنها؟ حينما جاء "يسلم"، رغم شبابها وكهولته، صريحا في طلبه بأنه يريدها زوجة، لم يعترض أحد. ظل ذلك رأي جدتي للنهاية.

"شوفتها بعد موت أبوها، ما اتغيرتش، بس ف سنوية أمها كانت حاجة تانية، وبتتكلم شامي"، قالت جدتي ود.

أنجبت سجايا من "يسلم" ثلاثة بنين، وعمّرت طويلا بعد موته.

***

المختلط

كان عمر عمي صلاح عاما حينما انقطع الطمث عن "ود" مرة أخرى. صلاح مواليد مارس ١٩٣٤، وأبي وُلِد في ديسمبر ١٩٣٥، كان جدي أحمد قد توفي قبلها بشهرين.

جاءت الجازية أثناء المأتم إلى بيت الحسينية لتخدم عمتها، وتواسيها، ثم لم ترحل بعده، رأت ود في عيني ضرتها ووجنتيها الشاحبتين وجسدها الضامر حزنا شديدا، أكان لموت زوج عمتها، أم لفراق مصطفى؟ كان الدور قد حان على "ود" في العصبية، إذ رأت أيضا في عيني ضرتها أنها ستستعيد مصطَفى، وقد كان. في نفس اليوم الذي نقلت فيه الجازية أغراضها من غرفة عمتها إلى غرفتها الزوجية الأولى، حيث ردّها مصطفى، طلبت أم صلاح منه أن يساعدها كي ترحل إلى بيت المختلط.

"اعقلي يا وِد ما نعرفش حد هناك، وخواجات، لو قولتي إلحقوني ماحدش هايفهمكَ" قال جدي مصطفى.

"هاتوديني المختلط أنا وابني، والا آخده ونطلع على أمي؟" جدتي ود.

حزمت "ود" ما تستطيعه من أغراض في حقيبتها التي جاءت بها من الإسكندريةَ منذ عامين ونصف، أصرت أن ينقلوا خزانتها وسريرها قبلها لتبيت عليه ليلتها الأولى في البيت الجديد. اختارت من الخدم "شوقة" لتساعدها في البيت الجديد، ومن صبيان الطلبات،

منصور حفيد عفيف، الذي استبدلته جدتي بعدها بأعوام بالنادي ثم شعبان، أبناء دادة شوقة.

"وِد" وأم مصطفى رغم مشاكل الضرائر والكنّات كانتا على وفاق. حينما أصرت جدتي على الخروج من بيت حميها بعد موته وجدت نجية بداخلها من المحبة والحزن ما يكفي لاستعطاف "وِد" لتبقى. لكنها لم تتحمل البقاء. "وانا كان سهل عليا؟ عيطت وأنا طالعة، بس ما طيقتش" قالت جدتي وهي تحكي. "سنة ونصف ينام معايا وحتة منه معاها.. الهبلة بس اللي ما تحس.. قبل طلاقها ما كانتش مهمة كده".

حينما وضعت جدتي "ود" طفلها الثاني، أبي، كانت بمفردها مع شوقة والقابلة. رغم أن جدي قد بات ليلته عندها. جاءها المخاض في الظهيرة. أرسلت شوقة إلى دياماتنا، الفرنسية التي وضعت طفلا جميلا منذ شهور، أرسلت دياماتنا بدورها شوقة إلى الأرمنية المخضرمة في مهنة توليد سيدات العائلات، ورعايتهن بعد الولادة.

مرت الأعوام، ولم يكن للشابة "وِد" صديقات مصريات من الجارات. إيطاليتان ويونانية وفرنسية يتحدثن عربية مخلوطة بلغات أخرى، مع إيماءات من الشفاه واليدين والعينين. أكثر من عرفت لغتنا منهن هي من استخدمت مصرية لتساعدها في أعمال البيت. يدخِنّ في الصالونات ويستمعن للموسيقى الغربية القديمة والحديثة، يرقصن الفالس في اجتماعاتهن النسائية أيام السبت والأحد، يصنعن الحلوى المسكّرة بالسنترفيش ويقدمنها مع القهوة. تعلمت جدتي منهن قَص وحياكة التنانير الضيقة التي تصل إلى قصبة الساق، ونظام الـــ"روب" فوق قميص النوم، والمعطف المنزلي ذو الأكمام النصفية أو بدون أكمام من قماش خشن فوق أردية النهار للعمل في المنزل والحديقة.

ذات يوم، وقفت جدتي في شباك كبير بالدور الأرضي مطل على حديقة أمامية ضيقة تفصلها عن شارع ألبرت بوابتنا ذات القوس الحجري. كانت ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام المشرقة. عمي صلاح بلغ سنا قد حفظ فيه القرآن كاملا والتحق بالمدرسة، تسعة أعوام؟ عشرة؟ أبي يصغره بعام وتسعة أشهر، يكبرهما النادي، الابن البكر لدادة شوقة، وثلاثتهم نائمين. بهذا أرّخت جدتي للحدث ووصفت حالة البيت يومها.

تابعت جدتي خادمتها وهي تشتري الحليب بالعيار من اللّبّان، ثم خطر لها أن تزيد الكمية لتصنع البالوظة كتحلية بعد الغداء. وفكّرَت أن تطلب من جدي فولية من الشيخ حسنين، حيث اقترب موسم المعراج. لكنها لم تفعل. وشوقة لم تدخل بالحليب. انفجار هائل انطلق بدخان كثيف من قصر مجاور. صرخت أم عديلة خادمة الجيران صرخة طويلة عالية دخلت بعدها في نوبة عويل متقطع. خرجت امرأة إيطالية من شرفتها بالدور الأرضي في البناية المقابلة للقصر، وضعت بسرعة يدها على فم المرأة المفزوعة الملتصقة بجدار البيت من الخارج. لكنها عادت فتركتها تصرخ بعد انفجار آخر زاد بعده تصاعد الدخان وتحول من الأبيض للرمادي ثم الأسود.

كانت أم عديلة في منتصف العمر ذلك اليوم. عملت غسّالة ومرمطون مطبخ في قصر الخواجة سيرافينو، أو سارافين كما سماه عامة الحي من المصريين. الوحيد الذي يظل يردد لعقود أن اسم الرجل إسرافيل على اسم مَلَك النفخة، هو عم مكي أبو ستيت. بل وأفتى فتوى في أصل الرجل فقال إنه عراقي تزوّجَ من إيطالية كاثوليكية فدان بدينها، وحمل جنسية بلادها، وورث مهنة أبيها.

هذه الرواية على عهدة عم مكي، حكاها لنا حينما تسكعتُ أنا ويحيى حول الأنقاض وكان هو شيخا متهالكا تخطى عمره الثمانين.

خلاف ذلك فإن جدي مصطفى وجدتي أكّدوا أن سيرافينو إيطالي خالص، جاء من صقلية أعزبا ثريا، ولعائلته في أعمال ريبوستو قرى كاملة بمزارع ومزارعين، لكنه في مرحلة من حياته قرر البقاء في مصر. عمل بالسمسرة، أراضي، محاصيل، وله هواية جانبية في تجارة الذهب والفضة، ظلت تتسع حتى أكلت جل وقته، وأشعلت شغفه، خاصة حينما دخل الألماس القائمة.

لا يمكنني اعتبار حتى قصة جدي مصطفى وجدتي دقيقة. لا أحد تعامل مع الرجل. فقط، ذات مرة، ألقى الخواجة تحية الصباح على جدي مصطفى، وكانت سيارته تمر قرب بوابتنا. بقية القصة كانت من أم عديلة. التي بدأت سردها بأن سيرافينو وزوجته ذات الخلق والمكانة التقيا بصنعة قدر في أحد فنادق الفيوم، حيث سهرات الربيع قرب البحيرة. كان هو بمفرده وهي مع أسرتها. عذراء عفيفة، لم يمسّها قبله رجل، تقول أم عديلة. أنجبا طفلة معاقة في بداية زواجهما لم تعش طويلا، ثم أخرى سليمة لم تعش أيضا، ثم آخر. أسباب الوفاة مبهمة، يموتون في أسرّتهم وحيدون بلا ضجة، وفي أعمار متفاوتة. اتجهت بعدها سيدة القَصر إلى الرب وكل ما أو مَن يوصلها إليه، وانتقل هو إلى مزاج الخمر، يشرب حتى تنطفئ عينيه ثم يستيقظ ليشرب.

لوريتا مدّبرة القصر، تطبخ بنفسها وتشرف على نظافة المكان، ومربية أطفال، والوحيدة المسموح لها من الموظفين بالصعود للطابق العلوي، أو الدخول بالقهوة لمكتب السيد، أو صالون دونا ماري، السيدة. كانت تحضر حفلات البيانو معهم وتشرب الأنخاب، كأنها منهم. على عكس أم عديلة غير المسموح لها بمغادرة المطبخ من باب الصالة، وإنما من باب الجراج. تأكل أو تحمل ما يسمحون لها بحمله وهي عائدة لبيتها، وما تصدر التعليمات بعدم لمسه لا تلمسه.

كنتُ أرى القصر من نافذة حمّام شقتنا ونحن أطفال. أراقب المكان المقبض. لم يكن بعد سنوات من الحريق على حالته التي وصفوها لنا وهو عامر. لغرفة أمي نافذة على حديقة القصر لم تكن تفتحها أبدا. استقصيت وأنا شابة عنه وكان برفقتي يحيى. أتأسف لأن الحياة لم تجعلني أعاصر ما حدث. بل إنها من البداية للنهاية حدثت وأبي طفل. أعلم أنه عبث، لكن القصة التي سمعتها حول الرجل وزوجته وخدمه أكثر عبثية، تتراوح بين الحب والوحشية، الإخلاص والغدر، القبح والجمال، المحكي دائما كان فيه الشيء ونقيضه.

كان للوريتا قريبة ليست أكثر منها جمالا وإنما أصغر في السن، شانتال. أشد غنجا وجرأة، عملت فنانة في واحد من مسارح القاهرة، جاءتا سويا لتجربة الحظ في مصر، أو أن كل منهما تعاقدت على عملها في فرنسا قبل أن تأتيا، الأمر متروك لخيال السامع، لا معلومات مؤكدة. تفجرت المشكلة حينما قررت قريبة لوريتا زيارتها في المنصورة، استأذنت لوريتا الطيبة رب عملها ليسمح بمبيت قريبتها في القصر لليلة أو اثنتين، فوافق. قريبة المدبرة تعلم مسبقا أو لا تعلم أن سيرافينو لديه من المال ما يكفي لردم البحر الصغير، لكنها في تلك الزيارة قررت الاستحواذ على قلب الرجل، أو على الأقل على نصفه السفلي.

طردت لوريتا قريبتها حينما استفحل الأمر بينها وبين السيد، طال مكوثها في القصر، وشُوهِدا يشربان معا، يتنزهان، ويتحدثان طويلا بشأن أكثر أمرين يحبهما سيرافينو في الحياة، الألماس والكلاب. ومع ذلك لم تغادر تلك القريبة المنصورة. استأجرت غرفة تضاء بالكهرباء في مبنى الجالية الفرنسية الذي تفصله عن النيل حديقة خاصة بديعة، وردهة استقبال عصرية. خدم مؤدبون، طعام نظيف، وسيرافينو يتكفل بمصروفات الإقامة.

قالوا إن غضب لوريتا سببه فحش القريبة، ممارساتها غير اللائقة مع الرجل في صحن الدار، إذا شربا يتعريان ويتبادلان العناق وأشياء أخرى. أثارا حفيظة الزوجة وعرّضها تكرار المشهد للانهيار العصبي. دافعت لوريتا عن سيدتها ووظيفتها بمهاجمة المرأة الدخيلة. ومع ذلك فقد أصرت أم عديلة على أن غضب لوريتا كان سببه أنها عشيقة سيرافينو الأساسية. كانت تتحكم في كل الأمور حتى ماله، وهي من قتلت أطفاله، ومن ثم تسببت في مرض زوجته، ثم وضعتها تحت الإقامة الجبرية بحجة العلاج، لأن للوريتا من صاحب القصر ولد، وتبعا لهذه الرواية فالمطلوب فقط هو أن تضيق الخناق على الرجل حتى يعترف بولده منها ليرث، ذلك حينما ظهر حب سيرافينو لشانتال فأفسدت القريبة بعلم منها أو بغير علم ما كان يُدَبّر.

في كل الأحوال سافرت الزوجة إلى حيث موطنها، وحينما فتح البوليس والمطافئ القصر ظهيرة الانفجار لم يجدوا فيه إلا جثة شانتال ملقاة في المطبخ، وصبي أمهق محبوس في غرفة شبه معتمة بالطابق الأرضي، ملحقة بأخرى دمرها الحريق. جاءت تصريحات الشرطة للناس عجيبة؛ السيدة والسيد سيرافينو بخير وهما في بلادهما بأمان منذ مدة.

اختفت لوريتا. لم تظهر بعد ذلك اليوم. قالوا هربت حيث نهبت من القصر جواهر وحليا وتحف. وقيل استُدرجَت وقتلت في مكان بعيد حول المنصورة، لا بيانات محددة. أصبحت أثرًا بعد عين، من الناس من شكك في أنها كانت موجودة في القصر أو في الحياة من الأساس.

حسنا، لنعد للبداية، إن لم يكونوا جميعهم في البيت وقتها ولا في الحياة، فمن قتل شانتال؟

الأسئلة الأهم، من حبس الصبي؟ منذ متى؟ من هو؟

من أحرق القصر؟

قالوا إن من ضمن سيئات أم عديلة التي كانت تثير جنون لوريتا، أن الأولى معتادة على الغلي بالبوتاس، وفرك الملابس بصابون أسمر، ثم الشطف والتزهير، خطوات ممنوعة في القصر. ولكن كانت أم عديلة من وقت لآخر تغافل لوريتا لتقوم بما تعرفه، البوتاس والتزهير. لوريتا تكتشف، ترغي وتزبد، وربما ضربت المرأة على رأسها وأكتافها لتتخلى عن جبلتها الغليظة وتطيع الأوامر.

"برضك ما كنتش بسمع كلامها، العفشة، روريتا، ده ريحتها.."، تقول أم عديلة وهي تحكي، مشيرة إلى عورتها من فوق الجلباب ثم ترفع يدها لتحك بها أنفها بقرف، وقد قاربت السبعين. يومها وضعت جدتي كفيها على أذني بسرعة وكنتُ طفلة، ثم أمرتني بحزم أن أصعد لأمي.

انتهى خلاف البوتاس والتزهير في القصر بأن أحضر السيد في إحدى سفراته غلاية كبيرة بالكهرباء. لها تعليمات تشغيل، وصيانة خاصة إثر كل مرة يعقمون فيها الملابس بعد غسلها. يوم الانفجار وجدوا في جزء من تلك الغلاية خيوط دُبارة من التي كان يستعملها الحَفَظة والجباة لضم الأوراق والملفات، وبقايا حقيبة جلدية، وخصلات شعر مستعار، وأداة القتل نفسها. انفجرت الغلاية، مدة التشغيل كانت لا نهائية، والحرارة أقصاها، تطايرت الأجزاء وانتشر الحريق في أماكن متفرقة أسفل البيت وأعلاه، ومع ذلك بقيت جثة شانتال في مأمن قرب طاولة المطبخ، سابحة في دمها في وداعة، وجهها لا يوحي بفزع ولا سعادة.

أكاد أجزم أن رجال البوليس الذين أخرجوا عم فهمي من تلك الغرفة ذلك اليوم كانوا خائفين منه ومن القصر أكثر مما خاف هو منهم، بل غالب ظني إلى الآن أن وراء فبركتهم قصصا ساذجة لحل القضية علمهم اليقيني بالفاعل، أو خوفهم من المكان. في كلتا الحالتين لم يكن الأمهق له محل من الإعراب.

هل هو قريب لوريتا أو سيرافينو؟ لماذا لم تصحبه معها حينما هربت؟ لماذا لم يرسل الرجل في طلبه فيما بعد؟ لقد أنكر علمه تماما بوجوده في بيته، حسب رواية الشرطة. أكان طفلا تبنته دونا ماري بعد موت أطفالها لتعطف عليه؟ منذ متى وهو في القصر؟ حسنا ومن حبسه هناك؟ لوريتا؟ حددت إقامته هو الآخر إلى أن تجد طريقة للتخلص منه ومن السيدة؟ لم نعرف! لا دليل.

في تلك الآونة الضاجة بالقيل والقال، حين صار سارافيل وقصره حديث العابر والمقيم، ظهر في المحيط صديق لسيرافينو ادعى أنه يعرف الصبي، وقال عنه كلاما خبيثا التصق بعم فهمي وقتا طويلا. قال إن سيرافينو يهوى الغلمان، وأنه كان ينتقيهم مشوهين معاقين أو ذوي إصابات كسيري النظرة والنفوس، لا يتحدثون لغته أو لغة البلاد حتى لا يفشون سره ولو حاولوا.

عم فهمي فعلا لم يكن وقتها يتحدث الإيطالية ولا الفرنسية ولا اليونانية ولا الإنجليزية أو التركية أو الروسية وبالطبع ولا العربية. كل تلك الألسنة عُرِضت عليه بعد إنقاذه من الحريق ولم يفهم منها شيئا، كان بليدا كالمصاب بتخلف عقلي، أو الميت الحي الذي لا يشعر بشيء، ثم يفيق من ذهوله فيبكي وينطق بأسماء غير موجودة، أو كلمات لم تصادفنا من قبل، هكذا قال أبي.

الأكيد الأكيد، بعد كشف الأطباء الشرعيين عليه، أنه ذكر غير بالغ، عمره أحد عشر عام تقريبا، أمهق، سليم العقل والأعضاء، ارتخاء مؤقت بالأعصاب ناتج عن حقنه بالمهدئات الخفيفة لشهور، سيزول بزوال الدواء من دمه. وقالت الشرطة لم يقتل شانتال.

***

عفت عبد الرزّاق

عائلة عبد الرزاق لم يسكنوا عمارتهم الجديدة في المختلط، حتى بعد أن أصبحت عمارتهم بالمستند ملكا لهم. تشاءموا. وأخبرهم خبير أن الداء الذي أصاب الخواجة سيصيب كل من يسكن شقته من بعده. لم يستطيعوا تأجيرها أيضا، فساءت سمعتها. ثم سكنها موظف مصري أعزب صاحب مقام وراتب كبيرين، وجدوه بعدها بخمسين يوما طافيا فوق مياه البحر الصغير. الترعة التي كان تشق المنصورة حينها نصفين، انتحر. أغلقوا أبوابها ونوافذها من الداخل والخارج بالخشب العريض حتى لا تنتشر لعنتها بين الناس.

الباشمهندس عفت، كما كان يحب أن يناديه الناس، ولَدٌ ثالث أو رابع للحاج عبد الرزاق مرعي شريك وجار ورفيق عمر جدي أحمد، أحمد شُهدي صدِّيق، مع العلم بأن شُهدي صدّيق اسم مركّب لرجل واحد، لقب عائلته "جلالة". هذا اللقب في وثيقة ميلادي ظل مكتوبا بالخط الديواني الكبير فوق الوكالة حتى ماتت جدتي ودِ. ثم اشتريتها أنا واستبدلت الديواني بآخر إليكتروني، خيروني بينه وبين خطوط أخرى يوم تصميم اليافطة، "جلالة للأقمشة والمفروشات".

هذه الوكالة في نفس المكان بمساحة الضعف أدارها جدي مصطفى بعد رحيل أبيه، لكن وبرغبة من أبناء الحاج عبد الرزاق في حياته انفصلت التجارتين. كانوا ذكورا خمسة وابنة واحدة، لم يتعلم منهم حتى أتم الابتدائية إلا عفت، الذي كان كل نصيبه من تركة أبيه عمارة المختلط. سعى والده لتوظيفه في الحكومة، قصد باب فلان بك، وأحد أبناء علان باشا، ووعدوه خيرا. لكن لم يتم تعيينه إلا بوساطة

قبّاني، يشتغل بميزان القطن في عزب الإقطاع، يدخل أجران المحصول والبيوت المهمة وغير المهمة. وجد الرجل طريقه لسمع أحد أقارب موظفي المديرية الذين يملكون أمرا ونهيا. المنغص أنهم لم يجدوا لعفت درجة شاغرة إلا في مصلحة المجاري. بعد ثورة يوليو بأعوام طلب الانتقال بدرجته إلى كوبانية المياه بدلا من الصرف الصحي، فصدقوا على طلبه بعد حين. منذ ذلك التاريخ تعامل عفت مع زملائه في العمل وجيرانه الجدد في المختلط، على أنه مهندس ري. لم أستوعب يوما علاقة الري بهيئة مياه الشرب، لكن الرجل الذي يصغر جدي مصطفى بأعوام قليلة، كان يقدم نفسه دائما للجميع باعتباره مهندس ري.

نفيسة الأولى، شقيقة عفت، وابنة الحاج عبد الرزاق، ماتت في حياة أبويها وهي تضع ابنتها الوحيدة، نفيسة الثانية. حدث ذلك بعد أن تركت جدتي ود الحسينية بأربعة أو ستة أعوام. وكما تجري الأمور عادة ترك الشيخ عبد الراضي (زوج نفيسة الأولى) ابنته لدى جدتها (زوجة عبد الرزاق)، على أن يرسل لهما ريالا كل شهر نفقة البنت. كان الاتفاق أن يضمها إليه بعد سبعة أعوام حين تستطيع الاستغناء عن أم أمها، لكنه لم يعد، مات هو أيضا بداء تفشى بإحدى المديريات التي يعظ بها، ذلك بعد أن تزوج من مطلقة ثرية في قريته وأنجب منها صبيين.

نفيسة الأولى لم يكن لها مال عند أبيها، ولم يترك الشيخ عبد الراضي أيضًا، بعد موته، لابنته أو ولَدَيْه، قرشا واحدا. فلم تنل الطفلة مالا من هنا أو من هناك. بقيت في رعاية جدتها لأمها حتى ماتت، وقالوا أنها ورثت ذهب تلك الجدة بحكم أنها ابنة الابنة الوحيدة.

وقبل أن يموت الحاج عبد الرزاق أوكل أمر حفيدته نفيسة لخالها عفّت يربيها بين بناته. وكانت صبية جميلة، حين انتقلت للعيش في

المختلط. يومها قال عبد الرزّاق لابنه: "انت المتعلم الوحيد في اخواتك، حق دهب أمها وجدتها حطيته في التجارة باسمها، تحاسب أخوالها على نصيبها بالسحتوت، يوم جوازها تسلمها مالها ما ينقصش مليم".

أعجب عفت بالفكرة، هو الذي كان قد انقطع ذكره ورسمه من وكاله أبيه أعواما طويلة بعد القسمة، أخيرا أوُجِد له السبب الذي سيزرعه بينهم من جديد، وعلى هيئة رقيب.

***

فهمي

فهمي صنو ذلك الجيل، الصبي الأشعل الذي أتى من المجهول ليصبح طرفا في حياتنا ونصبح صلبا في حياته. كان أكبر من عمي صلاح بعامين أو ثلاثة. أطلقت الشرطة سراحه بعدما راسلت جميع القنصليات أو القائمين بأعمالها بصوره، فلربما قيدته إحداها في قوائم المفقودين. كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت ووقف العالم مكانه يلهث ويتفقد أجزاءه المبتورة، أوروبا تعد خسائرها، وألمانيا تتجرع ذل ما فعله هتلر بهم وبالثلاث قارات.

هل راسلت الشرطة هيئات الجيوش المتحاربة على أرضنا؟ ربما كان من ضمن الجنود الهاربين من نيران المعارك، ولهذا عولج بالمهدئات؟ سنه كان أصغر من التجنيد، لا لم يكن، سمعت أنهم كانوا يجندون حتى الأطفال في تلك الحرب. إنني أرجم الغيب.

هل مارس معه سيرافينو الفاحشة فعلا؟ هذا ما وددت بدافع الفضول الشديد معرفته ولم أفلح. لم أتمالك نفسي ذات عصر، وقت قيلولة الحي، دخلت المحل على عم فهمي وهو يستمع إلى فيروز، تغني شيئا لجارها الذي لا يشعر بها أبدًا. كان ممددا بقامته النحيلة فوق كرسيين من كراسي المحل خلف واجهة العرض، مغلق العينين، غير نائم، يهز يده بمروحة اليد يمينا ويسارا في حركة آلية. رحب بي في كسل في البداية ثم سألني لو كنت أريد شيئا من الحلوى، فنفيت، اكتسى وجهه بجدية الفزع وسألني: "حصل حاجة؟ بابا كويس؟"، فأجبته بنعم، "يحيى مضايقك؟" قلت لا، "مامة يحيى؟ مامتك؟ مالك يا بنت؟" لا أدري لماذا رفّت عيني يومها بشيء من الطفولية، وكنت

مراهقة."انت صحيح مش فاكر مامتك؟" قلت أخيرا. عادت ملامح الرجل لوضعها الأول، خطا بضع خطوات نحو إحدى الكعكات، غرس فيها السكين بلا تردد وأخرج في طبق خزفي رقيق قطعة كبيرة، ثم في طبق آخر قطعة مماثلة، وفي الثالث وضع قطعة صغيرة، خرج من باب المحل ورفع نظره وصوته للأعلى "يحيااا.. تعالى".

"على فكرة معيز بلغني من أسبوع إنه شافكم بتنطوا من على سور القصر، جِه قاللي، وأنا قلت له روح خوفهم، ها ها ها ها"، ضحكة قصيرة صاخبة لا أعرف إن كانت صافية أم مخيفة. "أنا فاكر بس وشها، مش متأكد من اسمها، كنت بناديها بس بـــ يا ماما".

"طب هي كانت معاكم في القصر ده؟" قلت.

"لأ.. لما بفتكرها بافتكر بيت تاني.. وغنوة أطفال..ألماني" وضحك من جديد. طأطأت رأسي أتأمل الأشكال السداسية القاتمة في البلاط الأبيض لأرضية المحل، وضع أمامي طبقا به قطعة كبيرة، وأمام يحيى مثلها، وتناول هو القطعة الأصغر، عاد لوضعه الأول على الكرسيين، وسأل يحيى: "اتغديت؟" فأجابه بنعم ثم لا، ثم ابتسما.

قال عم فهمي بعد خمس دقائق من الصمت، بلا سخرية أو جدية: "يحيى حنين زي أمي، وشبهها، صاحبيه لو عايزة تعرفيها"، وكان مغمض العينين.

لم يجبني على سؤالي السري التافه، هل مارس سيرافينو اللواط معه؟

ليكن، لم يعد ذلك مهما.

***

ذات يوم سألتُ أبي بجدية: لماذا المعلم سلطان؟ لم أكن قد استوعبتُ ذلك الجزء من قصة جدتي عن عم فهمي. فقال أبي إن الأشعل كان يعرف سلطان قبل الحريق، إذ يراه من وقت لآخر قبالة القصر عبر نافذة الغرفة المحجوز فيها كلما أفاق من غيبوبته. بل إن فهمي كان يشجع نفسه على النهوض من فراشه أحيانا كثيرة فقط ليراقب سلطان. أعجبه صوته، وقفطانه المخطط من وراء حديد السور.

سلطان رجل أربعيني، يبيع البسبوسة، وحينما يئست الشرطة من أن تجد للصبي مخرجا أو توصيفا أعادوه إلى حيث كان، من تركه هنا حتمًا سيعود ليبحث عنه. ولما لم يعد أحد للبحث عنه، ارتفعت أسهم قصة أن الفتى كان مجلوبا للمتعة المحرمة في السر، وبدأت المعاناة.

لم يكن صوت المعلم سلطان فقط الذي يعجب فهمي، وإنما بضاعته أيضا، لم يجدوا للفتى أية أدلة على هويته. لكنه وبكل إصرار اتخذ موقعه بجوار عربة سلطان واستقر. كان للقفطان المخطط أيضا حكاية، فقد استحقه سلطان بعدما ظل يبيع البسبوسة لطالب أزهري "شُكُكْ". فلما عادلت كمية البسبوسة ثمن القفطان تركه الطالب لسلطان.

زجر سلطان الصبي عدة مرات حتى يبتعد عن عربته وصواني البسبوسة، لكن الأخير لم يستطع مقاومة رائحة ماء الورد ولمعة القطر على المخبوز الشهي، الجوع كافر، ذلك اليوم تحديدا لم يبع سلطان إلا قطعة واحدة لمصري ينتظر خارج المحكمة، ارتفعت الشمس ونال منه إرهاق الوقوف فجلس مكانه على الدكة، وإذا برأس الولد مسنودة عليها، فرفع منشته ولسعه على وجهه ليبتعد عن دكته: "ابعد يا نجس يا ابن الكلب".

كان فهمي نائما من الجوع والإرهاق واللسعة أيقظته، قام مفزوعا مذعورا يبكي بعواء هزيل. خرج جدي من النافذة وصرخ بسلطان الذي نهض عن مكانه وشرع في رفس الولد.

"مالك وماله يا سلطان، الرحمة حلوة" جدي.

"يعني عاجبك وقف حالنا يا معلم مصطفى؟" سلطان.

"يا سيدي سيبها له خالص واتنقل حتة تانية" قال جدي.

تبرم سلطان ولم يعجبه الحكم، دعا على المهنة التي ألجأته للوقوف في الشوارع "عشان يرازي فيه اللي يسوى واللي ما يسواش"، أغلق جدي النافذة وهو يقول لسلطان الذي يتحرك بعربته باتجاه بيتنا: "ما يسواش؟ والنعمة انت راجل ما بتفهم".

حاول النادي ومكي وجدي إطعام الولد، حثه على الاستحمام وتبديل ملابسه في غرفة الغسيل أعلى بيتنا، لكنه لم يفهمهم، أكل الخبز بعد جهد، وحينما حاولوا جذبه من ذراعيه ليدخل البيت عاد للعواء مجددا. قاومهم بعنف وكأنه يسوقونه إلى الموت. هكذا وصف أبي المشهد الذي رآه من المدخل. صاح صلاح وقتها في الجميع ليبتعدوا عن الأشعل، احتضنه بلا وعي وأبعده عن أيدي النادي وعم مكي. هدأ الأشعل ووقفا على الرصيف يلهثان هو وصلاح بعد انصراف الناس. جلسا مسندين ظهريهما لسور بيتنا ساعة، ثم مع الوقت دخل، تحمم وارتدى ملابس عمي صلاح، وعاد للمبيت في الشارع.

بعد عدة أيام عاد المعلم سلطان بتوسل عجيب وقد بدّل قفطانه بآخر أخضر مقلم بالأسود، أعطاه له طالب الأزهر هذه المرة هدية. تأثر سلطان بصنيع الطالب وشكا له سوء الحال، وسأله الدعاء له

بالرزق والفرج، فنصحه الطالب أن يعود فيراجع نفسه مع ربه، أي معصية اقترفتها أغضبت الله فحبس عنك رزقه، أي مسكين منعه صدقته؟ أي عابر أساء معاملته؟ فكانت الإجابة: الأشعل.

عاد فوقف أمام القصر، مكانه القديم، وحتى تلك اللحظة كان مرتابا من نصيحة طالب الإعدادية الأزهرية، بالإضافة إلى أن قصة لواط سيرافينو مازالت ملتصقة تماما بذهنه. وضع قطعة بسبوسة على ورقة متسخة، قرّبها ببطء وحذر نحو الأشعل على الرصيف، وكأنه يخشى أن يتحرك فجأة فيلمسه. عاد سلطان بسرعة إلى العربة، أكل فهمي القليل وترك البقية، جلس الأول على الدكة ينتظر وقوع البشارة، ها هو قد أحسن إلى عابر السبيل، أين الزبائن؟

ارتفعت الشمس ونال قيظها من الفتى المكوم فوق فرشة الكرتون بجانب الطريق ينتظر أحدا يعرفه أو مكانا يتذكره، أو حتفه. ذهب في نوم متعَب كغيبوبة بين الجوع والاكتئاب، فجأة دبت الرحمة في قلب سلطان فوقف بعربته ذات المظلة حائلا بين الصبي وعين الشمس، عنت بباله صورة أبنائه وهم نائمون، كيف يتمددون براحة حينما يشعرون بالرضا في سباتهم، كان الفتى قد تمدد بهذا الرضا، ولو المؤقت، عن حاله في الأحلام.

كادت عينا سلطان تدمعان وهو يطلب صفح الأشعل بعد أن استيقظ. قبّل رأسه وهو يكرر: "سامحني يا رب.. بني آدم زينا". لم يفهم الفتى كلمة من حديث سلطان، لكن تأثر الرجل وصله تماما. لانت عيون فهمي وقل تحفظه وفزعه فتعلق به بائع البسبوسة أكثر. جلسا على الأرض قرب فرشة فهمي تارة، وفوق دكة سلطان تارة. رفع الأخير بقية قطعة بسبوسة الصباح فوجد تحتها قذارة، فعلم أن الفتى عافها لعدم نظافتها، أعجبه التصرف، قضيا اليوم صامتين

راضيين، ولم يبيعا شيئا. في مساء ذلك اليوم لم يعد سلطان لأهل بيته بقرش ولا مليم، وإنما بالأشعل.

طلب فهمي بالإشارة أن يرتدي القفطان القديم، فتردد سلطان، يريد الاحتفاظ به لنفسه، أو لابنه رضا حين يكبر. دفعه لحفظ القرآن منذ صغره وسيلحقه بالأزهر عندما يبلغ السن المطلوبة. لكنه بعد ساعة عدل عن رأيه فوضع القفطان في يد فهمي، وذهب به إلى ترزي الجلابيب بسيدي يونس، ليضبط القياس على قامة الأشعل، وأكتافه الهزيلة وخصره النحيل. كانت المرة الأولى التي يلاحظون فيها حذاء فهمي، جلد قيم وطراز أنيق.

من يكون الفتى؟

سؤال لم يصل لإجابته من عاصروه، وكلما مر الوقت طبعتهم، وطبعته، الحياة بنسخ جديدة، فصار الماضي مهزوزا لا يصلح للرتق أو الشرح. لكن علمت فيما علمت أنهم بعد ثلاثة أشهر من الانفجار رشوا الغفير ودخلوا غرفة الفتى التي كان محبوسا بها، علهم يجدون ما لم تجده الشرطة، خرجوا تقريبا بخفي حنين، بعض الملابس غير المفهومة وكأنها ليست له، ولا حذاء آخر، وهو سبب الزيارة، ولا مال ولا أوراق، فقط سرير ضيق ووسادة عادية وبطانية خدم، وصورة، شمسية، بالأبيض والأسود، كانت الشيء الوحيد المشجع في الرحلة رغم بكاء فهمي الشديد حينما رآها. رجل بحلة مدنية عادية، يعلق الجاكيت بسبابته فوق كتفه الأيسر، ويده الأخرى فوق كتف فهمي، خلفهم أرض زراعية شاسعة بلا نبت، آلة زراعية لم ير أهل حينا مثلها من قبل، وكأنها محراث. ثم فهمي الذي يقف بجواره في سروال قصير وقميص نصفي الأكمام، يبتسم ويضع يمناه فوق عينيه وكأنه يظللها من شمس غير موجودة في اللقطة.

كان يبكي ويهذي بمقاطع مؤلمة لم يفهمها أحد، لكنه حين هدأ أشار لعمي صلاح بين نهنهة وأمل إلى نفسه في الصورة وقال: "آخيم".. ثم إلى الرجل وقال: "آرون". كان الجمع قد انفض ولم يلتفت أحد إلى قوله، بالقطع إلا أبي وعمي، والنادي.

كرر فهمي الإشارات والكلمات، كمن دفن ماضٍ عاد إليه في تلك الصورة من جديد، يراجع الإنسان مواقفه ومشاعره ومعتقداته في كل مرحلة من حياته حسبما تتغير رؤيته بعدها، إلا منطقة واحدة تظل تسكنه كما أنزلت عليه كما هي، رغما عنه، حتى يموت، طفولته.

"آااخيم".. "آاارون".. ونظر في الصورة، ثم لعمي. أسماء تبدو يهودية، هل كان أبوه من اليهود؟

قال عمي: "فهّمني..إنت آخيم"، يضع إصبعه على صدر الولد، أومأ فهمي رأسه إيجابا أن نعم، يرشف وينهنه، "آاخيم.. فأومأ فهمي مجددا، أجل.

"واللي جنبك ده أبوك؟ شبهك"، لم يفهمه فهمي، فكرر عمي: "فهّمني،، آرون.. أبوك؟"

هز فهمي رأسه يمينا ويسارا وأغمض عينيه في بكاء جديد، لا ينفي أن آرون أبوه وإنما لا يفهم. وضع عمي صلاح يده على ساق جدي مصطفى الذي يجلس على كرسي قرب جلستهم الأربعة على الأرض، وقال: "مصطفى، أبويا" ثم أشار إلى فهي ثم إلى الرجل في الصورة "آرون، أبوك". لم يجب فهمي بشيء، وتوقف حتى عن هز رأسه. فعاد صلاح فقال: "فهّمني.. ده.. "، قاطعه فهمي حينها وقال بصوت هادئ عميق "فهّمني"..

فهّمني..

فهّمني.

ظل يكرر تلك الكلمة الوحيدة التي وعيها بالصدفة ضمن موقف. استخدمها ليقول: أريد تفسيرا، ما معنى ما تقول، وكن رفيقا بي، طويل البال رحيم الفعل. سؤال أطلقه كل يوم في وجه كل مجهول حتى يصبح معلوما، وكل غريب حتى يصير قريبا. بهذه الكلمة افتتح فهمي عامه الثاني بيننا وهو يقف بقفطانه العجيب بجوار عم سلطان وعربته، وقد راجت تجارتهم، واشتهر بين زوار المحكمة والسكان باسم "فهّمني" قبل أن تتحور إلى فهمي.

كانت تنتاب فهمي نوبات بكاء حادة وهذيان منذ اليوم الأول الذي انضم فيه إلى عائلة سلطان كوضع مؤقت. يسير في نومه، يحاول فتح الأبواب، تطارده مشاهد مرعبة من وطنه، وفيما بعد أخبرني يحيى، ويحيى الوحيد الذي ملك هذه الحقيقة، أن موت أم فهمي، في حياته الأولى، قبل أن يصير فهمي، كان السبب ليصاب بالهيستيريا، مما جعل القائمين على أمره يحقنوه بهذا المهدئ.

الفتى يبكي بحرقة، تستمع "عيشة" زوجة عم سلطان إلى هذا الحزن العميق في الليل، يتناوبها شعوران، شعور مقبض متذمر يسألها: "وكان علينا بإيه؟". وشعور أمومي آخر أنبأها أنه يتيم يبكي الرحم التي أخرجته، والكف التي حملت وأطعمت، والصوت الذي نادى وحكى الحكايات. يحن قلبها وتنساب عواطفها بشفقة عاتية تغمرها وتغرق هواجس الرفض للصبي.

آرون كان والد فهمي فعلا، اسم فهمي الأصلي آخيم، له أختين وأخ، جميعهم أكبر منه، لم يعلم آخيم أين ذهب الجميع ذات صباح حينما هربت به أمه من قرية ألمانية أو نمساوية تقع بين الغابات، متجهين غربا نحو فرنسا، ثم من فرنسا إلى الشمال حيث بلد آخر

يرجح يحيى أنها بريطانيا. يتذكر آخيم انه لم يكن يفهم أهل البلاد الجديدة، على عكس أمه التي تحدثت معهم بلغتهم بشكل مقبول، وأنه كان يسألها عن بقية العائلة كل يوم ولا تجيبه.

ذات يوم، بعد شهور من التنقل بين بلدة وأخرى، أو أعوام، لم يحدد مدتها يحيى نقلا عن والده، ظهر ألفريد، الشخص قريب والدة آخيم الذي طلب منها أن تهرب بسرعة من هذه القرية، وربما من أوروبا كلها. المواطنون ما يلبثون كل مرة يكتشفون هوية الصبي وأمه فيبلغون السلطات، ألمانيا تخسر الحرب معركة تلو أخرى ولا أحد يستطيع تقدير العواقب. وربما يتمكنون من العودة إلى ديارهم يوما بعد انطفاء الثأر. ربما.

المشهد الذي لم يفارق عم فهمي حتى مات هو هروب ألفريد به في جوال تحمله شاحنة سباخ، فضلات خنازير، من زقاق خلفي، بينما يقتاد الرجال أمه التي ظلت تصرخ في الجنود وتسبهم بالألمانية دون خوف، تتحمل اللكمات والركلات بغير تردد، تلهيهم لوقت أطول حتى تبتعد عربة ابنها، داعية الأقدار من قلبها أن لا تناله أيديهم بسوء، وأن يتمكن ألفريد من الخروج به من القارة بأكملها.

طُرِدوا من الأماكن المأهولة، ولوحقوا في الأطراف المنعزلة، ثم انتهى بهما الأمر في أسفل سافل ناقلة حربية متجهة إلى شمال إفريقيا. كهاربين؟ كجنديين؟ لم يكن يحيى يعرف هذه المعلومة. في النهاية، كان لدى ألفريد بعض المال والعلاقات التي ساعدتهما على مغادرة أوروبا، نفس العلاقات التي أخبرته حينما شارفت السفينة على الوصول إلى بغيتها بأن أم آخيم شنقت نفسها. صنعت في محبسها من فستانها مزقا، وصلتها ببعضها، صعدت على كتف إحدى السجينات، ربطت طرف الحبل في شيء مرتفع، وجعلت من الطرف الآخر

أنشوطة حول عنقها، سألت السجينة التي تحتها أن تتحرك، تدلت من السقف أو النافذة أو الجدار بقميصها الداخلي المدمم، قالوا ماتت في صبر وشجاعة. في كل الأحوال كانوا سيرحلونها حيث مراكز الإعدام تبعا للدولة التي اعتقلتها. هذا ما ختم به ألفريد حديثه مع الصبي.

آخيم لم يسمع الرسول الذي نقل خبر أمه، لم يقرأ خطابا أو يرى علامة، لماذا لم يختر ألفريد أن يكذب على الولد، أو يخفي عنه ما علمه من وفاتها؟ ألف كيف تدور في رأسي الآن وأنا أتخيل نفسي أتلقى خبرا مزعجا عن قريبتي التي أرعى طفلها مؤقتا أو دائما، وكيف سأزوّر الحقيقة ولو بحجة العجز أمام القدر، أو الشفقة، سنعود يا صديقي إلى موطننا قريبا، سنبحث عنها، أمك الجميلة، وسنجدها، وستستقبلنا بالفرح والكعك والدفء الطويل.

تدخل "عيشة" المخزن، تضيء الركن الذي يبكي فيه الفتى تضع يدها على رأسه وتقرأ الفاتحة، جسدها يرتعد، كان سلطان يقف على مقربة من باب المخزن في تلك الليالي يرصد نفضات زوجته الخائفة ونشيج الولد. "قمرية" ابنته تراقبهم جميعًا. بقية البيت إما يستجدي العفاريت أن تنصرف، أو يغط في نوم عميق.

لو أنه صرخ مثلا فقال: أمي ماتت.. قتلها الجنود

أو قال: بيتي تهدم وعائلتي ضاعت أو قُتلت.

لكنه كان يبكي فقط. وفي الصباح يصير شخصا آخر.

بعد شهر أو اثنين، عام أو اثنين، تباعدت نوبات البكاء، وتعلمت "عيشة" الصلاة، حينما سأل شيخ الجامع رضا عن سبب قفزه من سورة إلى سورة ليست في لوح حفظه.

"أمي عايزاني أحفظها لها"، قال رضا.

"ليه؟" الشيخ.

"بتعالج فهمي" قال رضا.

"والله مصيبة حطت عليكم.. إنما المشركين نجس.." الشيخ.

جاء اليوم الذي كانت تخافه "عيشة"، بلوغ فهمي، أصبح رجلا بالمعنى القروي المخيف، ولسلطان بنات في مثل سنه وأكبر، تزوجت اثنتين والباقيات في الطريق، مخطوبات، إلا الصغرى، "قمرية". فهمي يبيت في غرفة صنع البسبوسة في آخر الدار. لم تكن قد وصلت الكهرباء لها بعد، الليل يحل بسهراته الحلوة في الصيف على ضوء مصباح الكيروسين، وبثقله في الشتاء والالتفاف حول موقد فوارغ الذرة والخشب القديم، الشاي والخبز الساخن، والالتصاق ببعضنا. نظرات الصبية في البداية كانت للاستهجان والتعجب، ثم التعود، ثم التأثر، كان بفهمي نبلا خاصا، وذوقا، رقة كبيرة، وقوة تحمل، يعين والدها على حمل المؤن وعجنها وخبزها وبيعها، يدفع العربة أمامه معلقا الدكة على كتفه حتى لا يحملها سلطان، يحمد الله على القفطان واللقمة والابتسامة، وعائشة التي كانت حنون.

لو سألوا فهمي عامها أين تريد أن تموت، لقال بين هذه الأسرة. لكن ربتها ككل أم قلوقة لم ترتح للأمر، خاصة وأن الفتاة لم يطلبها للزواج راغب، فأبدت خشونة للربيب. للمرة الثانية يتعرض فهمي لنفس المحنة، النبذ، النحس، التاريخ القاتم، قطع البركة عن البيت. "البت ماجالهاش حد..".

أراد سلطان أن يزوج قِمْرية لفهمي، لكنه لم يصارح البنت وأمها برغبته. واختارت "عيشة" أنَ تلح، كي يترك الأشعل البيت.

ذات صباح شتوي لا يختلف عن أي صباح أشرق على فهمي في مصر، كان يدور بعربة البسبوسة خلف سور مدرسة الفرنسيسكان، اشتم رائحة مخبوز يعرفه جيدا، يتذكره في نفسه كما يتذكر وجه أمه، وقف تحت النافذة وسأل من خلفها عن من هو؟ وماذا يخبز؟

.. فكانت لوسييل.

لوسييل

لوسييل امرأة بيضاء نحيلة في نهاية الثلاثينات تحب الطبخ والخبز بُعيْد الفجر. ماهرة في صناعة الحلوى، بالإضافة إلى أنها راهبة برتبة كاهن. تعظ معلمات المدرسة والتلميذات المسيحيات وأمهاتهن من أبناء الجاليات الأجنبية. تقيم الصلوات، وتستمع للاعترافات ولا تعمِّد. فرنسية تتحدث الإيطالية والألمانية والإنجليزية بمستوى جيد، وقالوا إنها الوحيدة التي فهمت كلام الأشعل حينما تحدث بلغته الأم. وقال أنها من دفعت حياته نحو خيارين هامين، مهنته، وديانته.

أما مهنته فلأنها سمحت بدخوله مبنى المدرسة من باب العمال في ساعة مبكرة جدا كل صباح ولمدة عام، على مسئوليتها الشخصية، وإلا فذاك ممنوع تبعًا لهيئة الفرنسيسكان. علمته الفرنسية كلغة يمكنه كتابة الوصفات بها، لكنهما جربا لغته للتواصل. لم تكن تتكلم كثيرا، لعباراتها تأثير على سامعيها. ساعدته على تذكر تفاصيل كثيرة في حياته قبل مجيئه إلى مصر، لكنه فشل في تحديد زمن أو سبب وجوده في بيت سيرافينو، الأمر الذي دعاها للتأثر والبكاء. يحيى بدوره أقسم على أن والده بكى وهو يمر بسيرة هذه المرأة بالحسنات والسيئات.

لوسييل عملت وسكنت على مسافة شارعين من قصر سيرافينو لستة أعوام لكنها لم تختلط بأحد أفراده، هكذا قالت. دونا ماري كانت مسيحية كاثوليكية ومع ذلك أكدت لوسييل أنها لم تصادفها في أي محفل.

تعلم فهمي أن يضيف القرفة على عجينة البسكويت، وأن يصنع صلصات الشوكولا ومربى الفاكهة، واكتشف على يديها مسحوق الخبز المذهل، البيكنج باودر. لاحظ أن السيدة لا تأكل مما تصنع، تفضل تقديمه للصغيرات على أن تتعلق بأمر دنيوي كحب الطعام "إن من يحب الرب يكره كل شيء يثقله عن الركض في رحابه، والأكل أول الأثقال".

"والأبناء أيضا؟ لهذا لم تتزوجي؟" سألها فهمي. ولم تجبه.

عند السابعة ينتهي فردوسه بالفرنسيسكان ليهرع إلى عربة سلطان خلف المحكمة، سلطان الذي يستقبله متبرما من تأخيره، وكان قد نسي شقاء العمل بعد أن اتكل على مساعدات فهمي في الشهور السابقة. بلغ التذمر بسلطان أن شكا تأخر الولد للزبائن الدائمين الذين اعتادوا رؤيتهما معا كل يوم.

"وقعتك بمبة، الواد شكله حن لناسه"، "والله وهاتترقى وتبيع باستا يا أبو رضا". وهكذا، تعليقات من زبون لزبون ومن بيت لبيت على نية المَلاحَة والتندر. انتشر الخبر، وصل إلى إدارة الهيئة التي تدير الإرسالية في المنصورة. فجأة توقفت لوسييل عن استقبال فهمي أو الرد عليه مهما نادى تحت نافذة المطبخ ككل يوم، واستنشدها باسم يسوع والروح القدس.

ما فهمته من يحيى أن عم فهمي كان على وشك اعتناق مذهب آخر غير الذي جاء به من أرضه، وبأنه أحب قصصها عن الأنبياء والشهداء وتضحية الابن ليتطهر شعبه. كانت بسهولة ستضمه إلى المنحة الفرنسيسكانية لتحقيق هدايته، وهو هدف الطائفة الذي انتشرت في الأرض من أجله. لكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح حينما قررت الإدارة نقل لوسييل من المنصورة إلى أسيوط.

أفتخرُ بجدي مصطفى عند هذا الجزء من القصة. أتذكر ما قاله يحيى عن أنه وعمي صلاح بعد شهرين من هذا الخبر، وتعلق فهمي بالمرأة على نحو إنساني حزين، سافرا معه إلى أسيوط، ظنوا أن في يديها سر قوي سيصل الغريب بأهله. وهناك، حققوا معهم طويلا في سبب الزيارة، ثم بعد ساعة انتظار من انتهاء التحقيقات أبلغوهم بكل دماثة وأسف أن الأم لوسييل ترفض استقبالهم، فعادوا خاليي الوفاض.

لم يكن لدى فهمي متعلقات كثيرة يجمعها عندما قرر ترك بيت سلطان، ومهنة سلطان، وكأنه سينتقم من العالم بتلك الأفعال. حاول تمزيق الوصفات الفرنسية التي كتبتها له لوسييل بخط يدها في دفتر من عندها، أو حرقها، لكن شيء ما في قلبه منعه من ذلك، فاكتفى بأن ألقاها من طاقة غرفة الخزين للشارع. ظن أنه سينسى عام لوسييل، ولوسييل نفسها.

***

الحسينية وسوق الخواجات

ذات يوم وجد عمي صلاح، عم فهمي، واقفاً، ينتظره على باب مدرسته الإعدادية للبنين، بعد يوم دراسي طويل. نظر فهمي إلى صورة الملك المنحوتة على البوابة وسأل: "هل هذا رجل حرب ومجد لديكم؟ أو معلم له مواقف نبيلة؟ فأجابه عمي باقتضاب: "لا، ده صاحب المدرسة، صاحب البلد كلها، إنت إيه جابك دلوقت؟".

لم يكن فهمي فقط ينوي تعلم الكتابة والحساب بالعربية، وإنما يبحث عن وظيفة في سوق الخواجات. السوق الوحيد المسقوف بالمنصورة، والأقدم من حيث طريقة البيع في دكاكين ثابتة ووكالات ضخمة تتاجر في بضاعة محلية فاخرة ومستوردة. معظم باعة ذلك السوق كانوا من اليونان، أجّروا محالًا لممارسة مهن خاصة لم تكن منتشرة في المنصورة يومها، مثل تصليح الذهب، والساعات، وبيع البقالة، وتفصيل الأحذية.

كان شرط فهمي المهم للعمل في تلك السوق، أن يكون حر نفسه لا يتحكم فيه أحد، فمتى شاء الرحيل يمكنه ذلك، العهد بينه وبين مخدومه المواظبة والأمانة. فعرض عمي صلاح الأمر على جدي مصطفى.

جدتي لم ترحب ولم ترفض، صمتت، نظرت نحو جدي الذي هزّ رأسه بالموافقة على تشغيل الأشعل عنده، وعرض ضمن الأجر وجبتين، كما عرض عليه الغرفة المجاورة لغرفة دادة شوقة وابنها النادي أعلى المنزل، فقبِل فهمي بالوجبتين ورفض الغرفة. قال سيبيت في جراج القصر المحروق، الذي رحل عنه الغفير.

جزعت جدتي من الجزء الأخير من الكلام

"هاتبات مع العفاريت؟ ده انا بسمع من هنا سريخهم بالليل.." قالت.

"عفاريت ايه انتي كمان"، جدي.

"إن كان ولابد، إدونا الشقة اللي فوقنا يا بابا"، قال عمي صلاح، "شهدي صوته عالي ف الحفظ، ما بعرفش أذاكر منه".

"ولو جالها مستأجر؟" سأل جدي.

"ننقل لـــ اللي فوقها.. نبات ف الحسينية.." عمي.

تركهم فهمي يشذبون أطراف الصفقة ويبعثرونها ولم يتدخل، غير أنهما حين وصلا إلى تسوية ملائمة للجميع رفضها، كرر عليهم رغبته في حزم: "هابيّت في القصر".

"عيشة" التي كانت تلهج كل ليلة بالدعاء للتخلص من الجدع الغريب الذي في بيتهم، بكت بكاءً أدهش أهل البيت، حينما أصبح انفصال فهمي عنهم أمرًا واقعًا. على العكس كان سلطان هادئ النفس مطمئنا إلى أنهم ملاذ الولد الأخير، "هايرجع يا ولية.. إسكتي".

غير أن فهمي لم يفعل. ولما بدأ سلطان، الذي مازال متمسكا بأمنية تزويج ابنته للأشعل، يصدق إن فهمي قد استغنى عنهم تماما، زاره في وكالة جلالة ليطمئن عليه. لم يجد جدي مصطفى قد أثقل عليه في الأشغال، حيث أنه كان حمالا لا أكثر، جهد كبير، مال قليل، ولكن فهمي أصر على أن لا يكون أقل جلدا من أي عامل فـــي الوكالة.

ابتسم فهمي لسلطان، واحتضنه الرجل، فضم ذراعيه هو الآخر حوله، وسأله عن رضا والبنات و"أمّا عيشة". قال إنه سيزورهم ما أن ينتهي من شأن هام يشغله كل يوم بعد العمل، تعلم الحساب. تمنى لهم جميعا المحبة والأمان، وسأله عن أحوال عربة البسبوسة، وإن كان يواجه مشقة في صحته وأرزاقه، طلب منه أن لا يتأخر عن طلب المساعدة لو لزم الأمر، صرف الرجل بالحسنى بهذا الختام وعاد إلى عمله.

سلطان، الذي كان متعلقا طوال تلك المدة بوهم أن فهمي سيعود إلى بيته وعربته في أي يوم، أدرك بعد هذه الزيارة أنه يحدث نفسه عن شخص آخر، فهمي القديم، الضائع، الذي ودعه الآن إنسان جديد، عليه أن يتركه يشق طريقه، دوره كأب بديل انتهى.

تزوجت قِمْرية من قروي حسن السيرة، عريض المنكبين، مجند في الجيش. ومَع ذلك لم تشعر أمها أن رحيل فهمي هو ما فك النحس عنها، وإن بدا الأمر كذلك. وضعت البنت كراس الوصفات الفرنسية في يد رضا عشية اليوم السابق لعقد قرانها، طلبت أن يوصله إلى فهمي، وأن يخبره بأنها احتفظت به طوال العام عله يرجع فتعيده إليه، وأن يسأله إن كانت به رغبة فيها، فتنتظره. أخذ فهمي الكراس من رضا وتهلل، هو الذي لام نفسه كل تلك المدة على تفريطه فيه، شكر رضا وقِمْرية، ووعد أن يحضر عقد القران، ويكون بين الأهل حين يوصلونهَا إلى بيت زوجها، أرسل لها مع أخيها التهاني المخلصة، ذلك أن فهمي لم يعلم برسالتها إليه إلا بعد سنوات من تلك الليلة، رضا لم يجد في وجه فهمي في أي يوم أي ميل نحو أخته، فلم يعرضها عليه.

ومع ذلك كان المعلم سلطان أول شخص يصل إلى قسم شرطة ثان المنصورة صبيحة اليوم الذي قُبِضَ فيه على الشاب مجهول

الهوية. والتهمة؟!، التعدي على أملاك الدولة المصرية باستغلالها كمكان للمبيت!

***

بعد صيفين أو ثلاثة من العام الذي انتقل فيه فهمي إلى جراج سيرافينو، لم يمض وقت طويل حتى وجد ضباط الجيش بعد الثورة طريقهم إلى قصور وحدائق وأراضي ومدارس الإقطاع والجاليات غير المصرية المقيمة في مصر. أحصوا ثرواتهم وصادروا ما يزيد عن حاجاتهم لصالح "الأمة"، حيث مصطلح "التأميم".

في حملات التمشيط تلك انهارت بيوت كانت عامرة، بالمعنى الحقيقي للانهيار، أمراض حسرة ركبت أصحاب تلك الأملاك، موت مفاجئ للبعض، وحالات انتحار بين أبنائهم، أو سفر. لم يصمد إلا القليل وكانوا من المرحبين بأفكار الثورة بشكل أو بآخر، لم يروها نهبا وحقدًا طبقيًا كما رأتها تلك الطبقات الثرية التي كانت تقطن المنصورة، وإنما واجب وطني شريف تعتبر تأديته بطولة ونصر للفقراء وأبناء الشعب المقهور.

فشلت حملات الجرد في تأميم أي منزل كبير في الحسينية، على عكس قصور المختلط التي ذهبت جميعها للحكومة. الحسينية حي سكني قديم، يقع بين المختلط وسوق الخواجات. البيوت الكبيرة فيه كانت لعائلات مصرية مشهورة، عملت بحرف معروفة، تتدرج تحتها أسر أصغر، يقيمون معظمهم في مكان واحد، لا يملكون غيره. لم تكن تلك المنازل فائضة عن الحاجة. كما أن بعض التجار وذوي الأطيان القلائل الذين قطنوا الحسينية، كانوا ذوي فكر مختلف عن وجهاء المختلط، لم يبخلوا على الثورة بما تجود أيديهم بأموال، ومشاعرهم بمشاركات سياسية، فكسبتهم الثورة كحلفاء. خرج منهم

نواب شعب فيما بعد، وقادة مدنيين محركين للجموع حين يستدعي الأمر. إلا جدي.

بيت جدي بالحسينية من البيوت الكبيرة التي كانت تتبرع للدولة في كل كارثة أو حرب رغم اجتنابه السياسة. لكنهم منذ البداية أجبروه على التخلي عن ثلث ماله الذي تعب في جمعه هو وأبوه فلم ينشرح لهم صدره.

قال: جاؤوا وفتشوا البيت "حتة حتة"، كل شبر داخل السور، وفي كل الطوابق. الدور الأول به غرف لمبيت الخدم الريفيين. ومطبخ ضخم يبتلع ربع المساحة، بجانبه صومعة لخزين الحبوب والتوابل والبصل، ثم في مقدمة البيت مجلس استقبال كبير أغلبه من الأرائك التركي ذات الظهور والأيادي القصيرة، وركن به صالون جدتي نجية، الأرابيسك المصدف.

في الطابق الثاني معيشة أهل البيت، غرفة جدي أحمد وزوجته، ثم غرفة مصطفى والجازية، غرفة "وِد" مغلقة بعد أن انتقلت للمختلط، غرفتين لألفت وسجايا، أيضا مقفلتين بعد زواجهما. حمّامين، وصالة كبيرة تطل عليها كل الغرف في مقدمتها شرفة عريضة تطل على البوابة الرئيسة للبيت.

في الثالث شقة لها سلم منفصل بها عدد غرف أقل وحمام واحد ومطبخ متوسط المساحة قيل كانت تستخدم للضيوف. في حين أنني لم أعرف يوما من هؤلاء الضيوف أو من أي نوع.

على السطوح تعريشة خشب كان يتم صيانتها دوريا لتبقي الشقة التي تحتها رطبة في الصيف، محمية من المطر في الشتاء. على جانب منها تكعيبة عنب، وتحت المساحة المتبقية مناشر غسيل.

في الحديقة الخلفية كانت هناك بئر لسقاية أهل البيت وحيواناتهم وزروعهم وأعمال المنزل. ثم مع دخول توصيلات المياه والكهرباء أهملت. في أقصى زاوية من تلك الحديقة إسطبل كان لحصانين لجدي أحمد، فلما مات أحمد، مات أحد الحصانين، ثم لحق به أخوه فقرر جدي مصطفى ألا يقني جيادا مثل أبيه. نظفت أم مصطفى ذلك الإسطبل ونقلت إليه قن الدجاج وبقي هناك حتى ماتت الجازية.

أنهى مندوبو الجرد مهمتهم ثم سألوا جدي مصطفى عن بيوته الأخرى، ومن ضمنهم عمارة المختلط. فلما كان معظمها فارغ فقد خيروه بين أن ينتقل بأسرته وطحينه وعنبه ودجاجه إلى إحداها ويترك البيت الكبير، أو أن يحضر زوجته التي بالمختلط ويسلم العمارة للشعب إذ أن البلد تحتاجها.

انتهى المأزق بأن حضر لمتابعة الجرد في اليوم التالي ضابط شاب له صديق أصله من الحسينية. صغير السن يعلم قصة العمارتين ولحسن الحظ لا يحمل لجدي ضغينة. تدخل بشكل غير ملحوظ فأقنع مسئول الإحصاء أن يأخذ من البيوت الأخرى، أو الأرض الطين، ما يكافئ ثمن البيت الكبير أو عمارة المختلط طالما الوضع ملتبس وصاحب الأملاك صادق ووطني.

واحدة من تلك الحملات كانت أيضا على القصر المحروق، الأمر ساخر، أليس كذلك؟ بل إن الأكثر طرافة أنهم لم يدخلوا باب البيت الرئيس في الأصل. أول وآخر ما فعلوه أنهم هاجموا الجراج، وألقوا وابور الجاز، وكيس الملابس، ومنامة الشاب في الشارع، وسألوا من أحاط بهم من أهل الحي عن الذي يبيت هنا؟ لم يكذب الجمهور خبرًا، دلوهم على أوصاف ومكان عمل فهمي حيث ألقي القبض عليه.

أغلق العساكر باب الجراج بالقفل، وباب الحديقة. تركوا على الباب حارسين ميري ببدلات خضراء زيتونية، وبنادق.

جلس جدي مصطفى على كرسي حديد منجّد أمام ضابط البوليس في قسم الشرطة، بينما ظل سلطان واقفا لا يعلم كيف يبدأ أو ينهي حديثه عن مظلومية المقبوض عليه بغير جريرة، كل ما هنالك أنه بين كل استعطاف عام وخاص يضم يديه بالعرض في الهواء أمام مكتب النقيب ليقول "والله الواد غلبان يا بيه، لا بيهش ولا بينش، عايش ع العيش الحاف".. رفع جدي ظهر كفه في وجه سلطان وقال: "خلاص يا معلم سلطان، خلينا نفهم من جناب الزابط"، فقال الضابط: "انا هعمل له محضر تسول.. مش لاقي حاجة اتهمه بيها غير شهادة بعض أهل الشارع انه بيبات هناك، ومع ذلك ما كانش موجود وقت الحملة، مفيش تلبس..".

"يعني لو ناس تانيين من أهل الشارع نفوا انه هو صاحب الحاجة يطلع؟"، جدي.

"بس هو صاحب الحاجة" الضابط وعلى وجهه ابتسامة منتشية.

"انما مش متسول.. ده بيشتغل عندي" جدي.

"خلاص اضمنه انت.. وتتعهد كتابيا انه مش هايتعرض لأملاك المحافظة تاني" ثم صمت برهة وألقى في وجوههم السؤال المعضلة: "الولد ده له شهادة ميلاد؟".

***

الرب واحد!

لم تكن المشكلة في استخراج أوراق شخصية لفهمي روتينية، حيث أن الدولة الجديدة رحبت بتدوين ساقطي القيد في كل وقت، وحثت المواطنين على ذلك. كما أن المشكلة لم تكن عمره. التسنين ليس بدعة ذلك العقد. من قام بالمهمة ومجانا طبيب حكومي مختص، بالوحدة الصحية التابعة للجهة التي ستستخرج له البطاقة.

أيضا لم تكن المشكلة في اسمه، فقد عُرِفَ بين الناس بفهمي وقضي الأمر، فهمي حكيم بدلا من آخيم، حكيم هارون بدلا من آرون، واللقب أشعل، فقد عُرِفَ في الوكالة منذ الشهر الثاني لعمله بـــ: فهمي "لاشعل". ثم سيشهدون بأنه واحد منهم يعرفونه منذ طفولته وأن والديه مفقودين، يضمنونه للدولة كمواطن صالح مطيع، فتقبل الدولة ضمانتهم، وتُملأ البيانات. تختم، وتحفظ في سجلات القيد. إنما، هل يريد فهمي أن يكون مواطنا مصريا؟ وما ديانته؟

"يعني انت كنت هاتبقى كاثوليكي عشان لوسييل بس؟ والا عشان انت حبيت المذهب؟" سأله عمي صلاح ذات مرة. فقال فهمي"مش متأكد".

"مسلم وخلاص، هو يوم الآخرة فيه أحسن من شفاعة النبي؟" قال سلطان، وقد عاد يطمع في تزويج قمرية لفهمي بعد موت زوجها.

أما رأي جدي مصطفى فكان مختلفا: "مفيش من مِلّته في مصر؟ ما يمكن يطلعوا ناس كويسين".

على هذا الرأي عزم فهمي هو الآخر فأخذ إجازة من عمله وكان قد أصبح مساعدا للأفندي شاهين محاسب الوكالة الأساسي. سافر فهمي إلى القاهرة بكل ماله فساح حيثما ساح وعاد صامتا، وجد أفراد مذهب أمه مطاردين مكروهين من الدولة، تحاربهم الطوائف الأخرى في مصر وخارجها، ممنوعون من بناء دور عبادة أو أداء طقوسهم والدعوة لدينهم جهرا. أشفق عليهم في البداية وتفاعل معهم خاصة بعدما تعاطفوا مع قصته تماما، ثم دب بينه وبينهم الخلاف حينما رفض ترك عمله لدى مصطفى "المسلم"، أو مغادرة المنصورة للأبد. كان طلبهم المتشدد هو الولاء حتى بالجسد للطائفة. أن يحل حيث يحلون ويرحل حين يرحلون، يفعل ما يطلبون منه بغير جدال. هُم أقلية، ومضطهدة، عليهم التضحية والاصطفاف حتى تقوى شوكتهم. عبد الناصر وكنيسة الإسكندرية، بينهما ما صنع الحداد في كل شيء إلا في أمر شهود يهوه، فهم متفقون. الأول يراهم يهددون أمن الدولة ووحدتها، والثانية تراهم يشوهون الدين.

"ألا يمكن أن يعبد المرء الله ببساطة، بدون كل هذا التعقيد؟" قال عم فهمي. وهي العبارة التي صاغها محمود بشكل آخر بعد نصف قرن حينما قال من باب مضايقتي: "وهو يعني لابد من خانة الديانة في الرقم القومي؟ ما ينفعش يكتبوا لي قصادها (بلا دين)؟" ثم ضحك وتركني للغيظ، آكله ويأكلني.

في الوقت الذي كان فهمي يبحث فيه عن ربه، مشتت بين حديث لوسييل، ورُقى "عيشة"، يتذكر تبتلات الأولى وتأملاتها، عذوبة صوتها وصلواتها، كيف أن الرب يتمثل هادئا رحيما في يديها التي تعجن الطحين بصبر، تبسطه بحسم، تلفه برفق، تخبزه بحكمة، ثم تطعمه لطالباتها بحب. كان يتذكر كتف عائشة وهي تمسد رأسه والدمع بين خده وكفها وهي تقول: "ربنا يريح قلبك ويفرج كربك

ويرجعك لأهلك سليم"، تمسح دموعها هي الأخرى وتستمر في الدعاء. يشعر بقلبها الصادق يدعو لرب تثق في قدرته وحنوه، كانت مؤمنة بمعجزة، أن يُشفى غليل هذا الصبي.

الأمر موصول ببعضه والبشر يكررون أنفسهم بشكل عقيم، "ألا يمكن للمرء أن يعبد الله ببساطة؟". سؤال صغير بلا إجابة، لأنها لو جاءت فستأتي كبيرة.

كان فهمي يريد أن يعيش في سلام بغير كراهية أو نزاع، صور الحرب في أوروبا لازالت تسكنه، هو يعلم معنى العنصرية من قبل أن يتعلم الكلام، وكان عمي صلاح يشبهه في رفض الوصاية على الكوامن والنيَات، ولكل خصوصياته بما فيها علاقته بربه، لكن أبي ورغم حبه المخلص لهما حتى ماتوا ثلاثتهم كانت فلسفته تتلخص في السؤال الآتي: لماذا لا أظهر التزامي وحبي لله لو أنني أتبعه فعلا؟؟

ذات مرة سألت أبي: إذن، لماذا نكره إعلان البهائيين لطقوس حبهم لله، ما دمنا نطالب فهمي وصلاح بالصلاة جهرا وإظهار الطاعة له؟ فأجاب بحسم أن الأمر يختلف. ثم سألني هل أعرف أحدًا منهم؟ ارتاح وجهه حين نفيتُ ذلك، ثم قال بسرعة: "أحسن. البهائية مش دين أصلا".

وعلى هذا المنوال كلما طُرِحَ مذهب أمام مرجعية أخرى قالت إنها "مش دين أصلا". هكذا تربينا، حتى لا نفتح على أنفسنا أبواب السؤال والريبة، ظنوا أنهم يحمونا من المتاهة حتى ألفينا أنفسنا فيها في النهاية. إلا مأثورة قالتها لوسيل لفهمي إبان عامها الشهير معه وكان يافعا بعمر ثلاثة عشر عاما: "يا بني إن كل منا يعبد الرب الذي في قلبه، بالنداء الذي يصدق، والطقس الذي يشعره بوصول روحه

للسماء بينما جسده على الأرض، فابحث عنه بداخلك أولا، ستراه خلف عينيك، قبل أن تراه في الكون كله".

ذات ليلة، في صغري، استغفر أبي ربه خمسين مرة حينما اختلى بنفسه بعد نقاش بينه وبين عمي، ظن أنه قد كفر. قال عمي صلاح إن رسالة محمد ابن عبد الله ليس لها قيمة لدى شخص لا يصدقه. دُهِشَ أبي، واتهم عمي بالجنون، محمد سيد الأنبياء والمرسلين غَضبًا عن إنكار المنكرين. فشرع عمي يطرح فكرته الشهيرة التي دارت في رؤوسنا أعوامًا طويلة؛ لنفرض أنني لستُ مسلما بالولادة، لم يرسلني مصطفى جلالة لشيخ الكُتّاب، ولم أحفظ في صغري ديباجة "طه ختام المرسلين"، فكيف تقنعني بأنه خير أهل الأرض، وأن ديننا الحق الوحيد؟

حلقات تدور دورتها فتعيدني لتشبيك الجديد بالقديم. إن ما قاله عمي يكاد يشبه ما قالته لوسييل قبله بعقدين، إننا نعبد الإله الذي في قلوبنا، اليقين الذي وقر فيها، الإيمان، التصديق. ومع ذلك فلم يكفر فهمي ولم يكفر صلاح لو انتهجنا الصورة التي خافها أبي.

***

أولاد البِيَلي

بعد أن صار فهمي بلا مأوى إثر طرده من جراج سيرافينو، رفض مجددا المبيت في شقة الدور الثاني مع صلاح كما عرضوا عليه مرة أخرى، فسمح له جدي بوضع فراشه في ركن من مخزن الوكالة الملحق طوال النهار على أن يفرده في الليل بين منصات البيع بعد أن يغلقوا الباب عليه من الخارج، وكان شرط جدي الوحيد هو ألا يبول في أي مكان من المخزن أو المحل مهما كلفه الأمر إلى أن يفتح له وَلْد حابسة عند الفجر، فوافق، وهجر العَشَاء.

فعل ذلك حتى جاء شهر بنوبة مطر وعواصف أغرقت سوق الخواجات والحسينية وعزبة الشناوي وبعض القرى التي كان يمر بها خط قطار الفرنساوي. في تلك الليلة جثم هاجس على صدر جدتي "وِد" فأيقظت جدي: " سامع الميه يا مصطفى؟ زمان الواد اللي انتو حابسينه في الوكالة غِرِق".

بعد ساعة كان الحنطور يتجه بجدي إلى الوكالة وصاحبه متذمر، قلِقٌ على حصانه الذي سيمرض في هذا الطقس الرهيب. ألقى ببعض العبارات التي معناها: وما الذي قد يصيب الأشعل؟ لقد نجا من حرب ومن حبس ومن حريق، بعض الماء لن يقتله. لكن جدي كلما تقدم به الحنطور بحذر، قلق على بيت الحسينية أكثر، حيث أمه، والجازية، والخادمة أم جمالات. انزلق الحصان في الطين، نزل الرجلان يساعداه على النهوض بمشقة، الحصان كان مذعورا، الشوارع مظلمة، لكنه نهض.

وصلا إلى غايتهما بعد ساعتين من منتصف الليل، خفير السوق غير موجود، لا أثر لأولاد حابسة. كان الماء قد دخل حذاء جدي والسائق ونال من جلابيبهم وسراويلهم الصوفية، وأغطية رؤوسهم. فتحوا باب الوكالة بعد جهد فقابلهم ماء آخر أعلى من الذي بالخارج. أجبرهم على العودة للوراء حتى يخرج كله، نادوا على الشاب الذي في الداخل فجاءهم الصوت من مكان مرتفع. لا كهرباء يومها، بحثوا عن مصباح الراتينة فوجدوه مبتلا، كل شيء مبتل، لم يجدوا غرضا جافا فيشعلوا فيه النار ليروا الفتى المكوم على رف علوي من رفوف القماش، يحمي رأسه من المطر بسطل، حيث أن معظم السقف قد تحول إلى غربال كبير.

في الحسينية، كانت الحالة أشد بؤسا من الوكالة، لم تُحصَ الخسائر بدقة إلا حينما علت الشمس وكشف ضوء النهار حجم المصيبة. غرق أثاث البيت بماء المطر وفيضان النيل في غير موعده. أولاد حابسة وأمهم في بيت أم مصطفى يساعدونهم على الخروج بعدما فشلوا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، في هذا الحادث أصابت الحمى فهمي وأم مصطفى واثنين من أحفاد حابسة. نجوا جميعهم من المرض خلال أيام إلا جدتي أم مصطفى، ماتت بعد أسبوع من تلك الليلة.

في مصاب عائلة جلالة لم يهتم لحال فهمي، وهو راقد بين غياب الوعي وحضوره بالمستشفى الأميري، إلا سلطان. يجالسه معظم الوقت متحملا نقد الأطباء وزجر الممرضين، وبرودة الجو في شتاء لف المنصورة بالماء والهواء ووقف الحال.

كان الرجل يطمع في أن يعود به إلى بيته، ولكن فهمي حينما أفاق من السخونة، طلب أن يسعى في شأن غرفة واحدة بباب منفصل

على الخارج في أي بيت بأي مكان، وأن يمهله صاحب البيت شهرين حتى يدفع الأجر كاملا، كل ما يملكه قد خسره، وهو بحاجة إلى فرش، وملابس جديدة.

كلما ألح سلطان في سؤال فهمي أن يبيت عنده، تذكر الأخير وجه "عيشة" وهي تشيح به إلى الجانب الآخر حين سألها: "أمشي؟"، فلا تجيبه. فيرفض العودة.

ورقة بيضاء في التاسعة عشر لا يحب أحدا ولا يكرهه أحد، لا يعرف لنفسه أصل أو ديانة. تسكينه في أي غرفة أمرا شاقا، من في وسعه أن يستقبل فتى كهذا في هذه السن بغير ضمانات؟ لا مال، لا أوراق، لا أهل، لا شهرة كافية بينهم.

يخرجان من عزبة سيدي يونس بعدما تعلل معظم أصحاب الغرف التي للإيجار بأنها مشغولة "مدارس ومغتربين وإنت فاهم يا أبو رضا". ثم في صدفة مصيرية، لم يكونا يعلمان حتى لحظتها أنها مصيرية، يقابلان طالب الأزهر، صاحب القفطان، الذي سافر للقاهرة منذ عام، وقد صار شيخا في حلة الأزاهرة الجامعيين، كاملة ومهندمة، ذقن حليق عظام وجه بارزة، ونظرة مرحة غير ساذجة. رحب بالمعلم سلطان واحتضنه وقال عبارات وفاء وشوق كثيرة بليغة، ثم سألهما عن وجهتهما، فحكيا له الحكاية.

الشاب الأزهري هو الباز البيلي طالب الدراسات الإسلامية وأصول الدين. لم ينجح في عامه الدراسي الأول بالجامعة، ويعيده، فيحكم عليه أبوه أن يقضي ثلاثة أيام في المنصورة من كل أسبوع ليساعد أخاه طالب الثانوية الأزهرية، على القراءة والحفظ والذهاب للمعهد فيوفر أجر مرافق، حيث أن الولد أعمى بالولادة. فأوكل الباز لفهمي هذه المهمة دون أن يسأل والده.

قال مختار لفهمي: "قراءتك جميلة ولسانك أعوج".

"دي قصة طويلة"؛ فهمي.

ثم فوجئ فهمي بجدي يدفع له أجر الشهر، ويطلب منه ألا يأتي للعمل ابتداءً من يومها، حيث سيعاد بناء الوكالة. في الشهر الذي تلاه طلب جدي نفس الطلب، حيث أن الوكالة في انتظار بضاعة أجود من التي أتلفها الماء، لكنه في الحقيقة كان يتهرب من الكل، حتى يبرأ من حزنه على أمه، وليجدد بيت الحسينية ويرفع أرضيته، مع محاولة أقلمة بيت المختلط على وجود ربتي دار تقيم أحدهما في شقة فوق الأخرى.

وذات يوم والربيع يجتهد في تسريب بعض الدفء لأيام مارس، زار عمي صلاح شقة الطالبين الأزهريين يسألهما عن صديقه فهمي. ثم لم يرحل. مكث معهم أربعة أيام حتى كاد جدي يبلغ الشرطة عن غيابه، ثم أشار عليه الأفندي شاهين أن يسأل عنه في مدرسته، فأخبروه بأنه يحضر يوميا، فانتظره بجوار المدرسة ثم تتبع سيره.

"بتهرب من البيت يا ابن الكلب"، وصفعه صفعة لم ينسها عمي بقية حياته.

"أنا هربان منكم.. البيت بقى جهنم، ما ينطاقش، وانت.."، هوَت صفعة أخرى على وجه عمي، ولكن هذه المرة بخيبة أمل، لا غضب. كان جدي مصطفى يعلم في قرارة نفسه أن ابنه محقا، "البيت بقى جهنم"، "وِد" لم تعد صبورة واثقة كما كانت منذ خمسة عشر عاما لتحمل ضرتها. الجازية بطبعها المتعالي الجهول تثير المشاكل، تتدخل بغباء فيما لا يعنيها. مثلا؛ قبلها بأسبوع عيّرت شهدي بأن ألفاظه سكندرية كأمه، وعليه أن يكون رجلا ويستقل بلهجته كأجداده العصب. ومن قبلها فتشت في أغراض صلاح.

"بتقرا في السياسة يا شملول؟ شوعي؟"، "وإيه ده؟ مالاقيتش إلا الأطرش تشتري له أسطوانات؟ صوته زي النسوان.. ييجي سيدك أحمد يتفرج.. كان فرحان بيك قوي". وتقول لضرتها: "سبحان مين نضفك يا بنت السيد عنتر.. اترحمي على اللي سكنوكي المختلط". فهرب صلاح من البيت يبحث عن فهمي.

ثلاثة أشهر على موت أم مصطفى، مرت الأمور خلالهم بصعوبة، لكن، مرت. قالوا ستتوقف زوجة الأب عن ملاحظاتها السيئة حينما لا يولون لأقوالها اهتماما، إنما، ذات ليلة زارتها زينب زوجة عفت وابنتيها، لم تحضر نفيسة، أتين لتجديد المواساة في وفاة العمة، ووصل المعروف القديم. وفي واحدة من نوادر المرات التي لبت فيها جدتي "وِد" دعوة إحداهن للمجالسة، صعدت لشقة الجازية تكرم الضيفات وفي يدها صينية مرصوص فوقها خمس زبديات بليلة، دخلت عليهن وضرتها تقول: "لأ.. مِش تتدخلي يا زينب، أمينة للعرابي متل ما جدها عبد الرزاق حَكَم، نكسر كلام الرجال إياك؟"، "وعواطف.. لصلاح ابن مصطفى زي ما أبويا أحمد قرا فاتحة قبل يموت.. الله يرحمه".

وضعت جدتي صينية البليلة على الطاولة ولم تجلس، "صلاح مين؟" قالت، "ابني؟ ده انتي كنتي مطرودة ف بيت أهلك مرمي عليكي يمين طلاق ما تدخليها تاني لحد ما الراجل مات، سمعتيه امتى بيقرا ع البنت للولد؟ فاكرة نفسك بتفرّقي حلاوة وانتي قاعدة، فلان لفلانة وفلانة لفلان؟ بيتكم ف الحسينية قرب يخلص، تحترمي مركزك وما تتدخليش في حياتنا، يا تلمي هدومك ومن الصبح.. والله.. مصطفى يرجعك تاني بيت أبوكي".

جدي المكلوم برحيل أمه دخل من الشارع على شقة الجازية رأسا، ساقه إليها الصراخ. الشرقاوية أمسكت بشعر السكندرية،

وأقسمت على طردها بغير حذاء على السلم "يا سودة يا كودة يا تربية الميه المالحة والوشوش الكالحة.. أنا تطرديني من بيت أهلي يا شؤم؟ بيت أسيادك".. أمسك جدي بيد الجازية ودفعها بعيدا عن جدتي أبعد ما يكون حتى اصطدم ظهرها بحائط، صرخت "ضهري.. هاتسقّطوني يا ولاد الـــ....."، ثم همت بالإمساك مجددا بشعر "وِد"، حينها وقف بينهما جدي بصدره العريض ووجهه الغاضب.

"تسقّطِك إيه يا مجنونة، هوا إنتي لكي خلـــ.." قالت جدتي.

"وِد" صاح جدي يسكتها.

"وِد؟! " قالت الجازية بتساؤل وسخرية،"ده اللي ربنا قدرك عليه يا أسد؟"

"لمي هدومك يا جازية هاتروحي لأبوكي" قال جدي.

"بردو؟ بردو يا ابن جلالة. مش قادر عليها.. والله لـــ.." الجازية.

"لمي هدومك يا مَرَة.. ما عنديش كلام تاني" قال جدي.

نظر إلى جدتي بوجه لم تر مثله من قبل. وكعادتها حاولت استغلال مركزها عنده علها تكسب المعركة للنهاية، لكنها أخطأت الحسبة. قالت: "بس كده؟ لمي هدومك يا جازية؟ طول عمرها تغلط ف أصلي وانت ساكت، شهرين يا خويا وتحن.. تروح زاحف تردها، تسكنها فوقي وتسيّدها عليا، هي صاحبة شرف وانا لأ، والنيعمة لو ما رديتلي مقامي أودام الناس يا مصطفى ما تلمسني ليوم الدين، انا وشوش كالحة يا اللي بتتعشوا طبيخ؟".

استمع إليها جدي صامتا بنفس الوجه المتوعد البارد.

"انا مش هروح زاحف أردها يا ود، لأني مش هطلقها، انتي اللي طالق".

عاود صلاح الهرب، وعاود جدي صفعه وملاحقته.

"أمك سابت البيت يا بهيم، واخوك ما بطلش عياط، لا بياكل ولا يذاكر ولا ينام، اللي طالع عليه أروح لامي أروح لامي.. كلكو بهايم" قالها جدي مصطفى وجلس على كرسي خيزران في صالة بيت طالبي الأزهر، ضايفه الشيخ مختار بكوب شاي ساخن.

"روق بالك يا معلم، ده شيطان". يصمت مختار قليلا ثم يقول "منورينا والله".

جدي وبدون مقدمات نظر نحو فهمي وقال: "دوّر على شغل جديد لنفسك يا بني، مش عارف الوكالة مصيرها إيه.. ياللا يا صلاح".

لم يحدث للوكالة شيء، لم يبعها ويسافر كما قال، لم يتزوج من امرأة ثالثة كما أخبر الجيران والوسطاء الذي سعوا للإصلاح بينه وبين زوجاته، شيء في نفس جدي لم يشكه لأحد، لم يفسره، لماذا قطع عن فهمي الشهرية؟ لماذا لم يعده للعمل بعدما أعاد فتح الوكالة أفضل من الأولى؟

عمي صلاح أيضا لم يتوقف عن زيارة شقة العزاب بعد المدرسة، والمبيت معهم ليالي الجمعة.

"كنا بنطبخ وناكل أي عك يعكه الباز، ننزل نتصرمح ساعتين نواحي شارع صيام، نشوف ملاية، نسمع ضحكة، نشم ريحة.. ونرجع" عمي صلاح.

***

الشريف القيسي..

"أنا شوفت الراجل ده سنة ١٩٥٣، كان عدى التمانين، التسعين كمان، كنت طول جدتي إنصاف" قال أبي وهو يهرس الفول.

"وأنا يعني كنت شوفت تيتة إنصاف يا بابا" قلت وضحكت، وضحك أبي.

"اسمه لوحده كان يخوف، في آخره حاجة كده غضنفر، قسورة" بابا.

كان بالرجل بياضا كبياض رمل الصحراء وشُقر الخيل، لا البياض المحمر كالأتراك، أنفه مستقيم حاد، عيونه كبيرة لكن وديعة. دخلوا عليه، أبي وجدّته، في ساحة ممتدة فسيحة ببيت من الحجر غير مسقوف كله، هذه الباحة تحديدا كانت ذات ثلاث جوانب من جلود الغنم، والزوايا من جريد النخل الجاف. أجلسوهما على أريكة خشبية لها مساند مميزة عن بقية الحشيات، مكانها قريب من كرسي الرجل الذي يتصدر الرؤية في ذاكرة أبي. كان بقية المكان مفروشا بسجاد صوفي تعلوه "تكّايات عربي"، منظمة في صفين متقابلين.

الشريف القيسي، هذا هو الاسم الذي سألا عنه وهما يسافران إلى بلد بين الزقازيق وصحراء بلبيس. كانت الجدة إنصاف تبحث فقط عن حق أبي في النفقة، فهو لا يريد مفارقة أمه برشيد، وتكلفة التعليم أعلى من مقدرة الجدة في الإنفاق، كانت تلك حجتها لوصل الحديث مع خال مصطفى، تمهيدا لمعرفة مصير ابنتها. هل زهِد المنصوري "وِد" للأبد؟

فسألها لماذا تركت ود بيتها، فقالت: "رمى عليها اليمين، تقعد تعمل إيه؟"..

فقال: إذا المرأة طلقها زوجها عليها أن تبقى في بيتها، في مخدعها وبأكثر ملابسها إغراءً طالما لم يسألها المغادرة، عل الله يجعل بينهما مضاجعة فتعود لعصمته "مصطفى ما طرد بتك".

"إيه الخرف ده، ويرمي يمين ويرد، ويرمي يمين ويرد، هي جارية زي بنتك؟" قالت إنصاف بصوت خفيض لم يسمعه الرجل.

"يا شيخنا أنا قاصداك بعد ربنا دلوقتي لأجل إنك خاله، والخال والد" وجّهَت له الكلام.

"خلَص يصير خير يا أمها، بشاوره بالموضوع، وبردلكم خبر"، "بس.. لو راد يرد بتك، ابترجع معاه؟". بهذا السؤال فقط عادت أم العترة سعيدة مستبشرة. وقَرَت في قلبها طمأنينة بأن "وِد" ستعود إلى بيتها قريبا.

وعادت "وِد"..

أرسل الشريف إلى ابن أخته وراجعه في أمر المرأتين. هل يترك الجازية هذه المرة، أم يردها؟ أم يستبدلونها له بأخرى؟ فأجاب مصطفى بأنه لم يبت في أمرها مع نفسه. صغرى صغيرات بنات القيسي، مدللة، نسبها وجمالها الباهر رديفا طبعها السيء، منفرة وجذابة، غبية وتحبه، القرار صعب.

أطرق الشيخ لوهلة، وقال لجدي إنهم بالعادة لا يزوجون بناتهم لأبناء الفلاحين. ولا التجار غير العرب، ولكن بيت الصدّيق جلالة (كما نطقها الرجل) استثناء، فأعطوهم نجية، والجازية، ولم يكونوا نادمين. اعتذر الرجل ضمنا عن طباع ابنته رغم دفاعه عن نفس

الطباع بأنها إياء وكرامة وعصبية نخوة. لكن الحديث لم يثر في نفس جدي إلا اليأس، الوضع لم يتغير. الجازية تريد العودة على أي وضع، وفي أي بيت، بطريقتها القديمة، لكنه منهك لا يريدها الآن.

قال العجوز حينها لجدي "الرّجّال لمن يتزوج حرمتين، يصير له قلبين، واحد منهم يبعث الثاني.. أنصحك وانت ولد الغالية يا مصطفى والحزن لابد منتهي.. رد أم الولاد"..

فهم جدي مغزى الحوار وأرسل من يرد بيته المهم، "وِد"، والعشق والعشرة، وأبنائه، وشهور من الإحباط والوحدة، لكن، مع هذا اشترط لعودتها ألا تطلب منه حقها الزوجي في الفراش، وألا تسأله عما سكت عنه، ولا تراجعه في قرار يتخذه بشأن الولدين.

***

جلال وإبراهيم..

عاد العمل في الوكالة على نحو أنشط وأكبر من سابقه. كان جدي قد أخرج من ماله المدفون ما اشترى به دكانا مجاورا ووسعها، استأجر عمالا جددا، وأدخل على حركة البيع والشراء طرقا أخرى. لكنه لم يستعد فهمي.

جلس إلى الغداء صامتا بوجه حاد، يمضغ الطعام وهو شارد، سأله عمي صلاح لماذا لم يستدع الأشعل رغم أن حياتهم تقريبا عادت طبيعية، نظر إليه جدي وكأنه لم ينس وإنما متحير. عيونه مليئة بالتفكير.

"أنا سايبه براحته، لو محتاجني كان رجع لوحده" قال جدي مصطفى.

"يا بابا.. انت قلت له لما الحالة تتحسن هاتبعت له" صلاح

"أنا قلت كده؟ أنا قلت خد مرتبك لحد ما نشوف حال الوكالة" جدي.

"وأهو حال الوكالة جه أحسن م الأول" صلاح.

"خلاص قول له.. لو حابب يرجع مساعد للأفندي، محتاجينه" جدي.

ولكن صلاح حينما عاد لأبيه في المساء كان في جعبته خبر مثير، الباشمهندس عفت استخدم فهمي بالفعل.

أمينة، كبرى أولاد عفت، كانت تكبر عمي صلاح بأربعة أو خمسة أعوام، على وشك أن تزف إلى العرابي قنديل وريث الحاج شطا قنديل صاحب أوتومبيلات النقل الأهم في المنصورة، والذي يتعامل معه الحاج عبد الرزاق منذ أعوام قليلة لنقل بضائع وكالتهم بعد انفصالها عن شراكة جلالة بعد موت جدي أحمد. والحاج عبد الرزاق هو من عرض حفيدته بنفسه على العرابي لسبب لم يذكره أحد، لكني خمنت أنه السن، عشرين أو واحد وعشرين رقم كبير بالنسبة لعمر فتاة لم يتقدم لخطبتها أحد في تلك الأيام.

كَرِهت الآنسة أمينة العرابي شكلا، أول ما رأته، لأنه أسود، بأنف كبيرة مفطوسة. كما كرهت وظيفته كسائق "لوري"، وكان ذلك مقابلا للجهل والأميّة في نظرها، وقلة القيمة، وهي ابنة موظف كبير حسب فهمها، يقول له الناس يا باشمهندس طوال الوقت.

"راجل، وجدع، يفتح بيت وعَشرة، وشارينا..الشرف بالطبع والشغل مش بالكلام والمناظر" قالت زينب، أم أمينة، لتنهي المقارنة وتدفع ابنتها للزواج.

عواطف، التي تلي أمينة في الترتيب، تكبر صلاح بعامين. بها شيء من خفة العقل، ليس عن طبع أو دلال رغم أنها مدللة فعلا، إلا أنها تعاني مرضا جعلها تدريجيا في سن الشباب تبدو كمخبولة. تبتسم بلا مبرر معظم الوقت، تجيب على الأسئلة بعد وقت طويل وبصوت كسول، وربما بعبارات غير مترابطة، وأخبروني أنها لم تكن كذلك في طفولتها. تربيت قرب تلك المرأة في صغري وكانت بدينة جدا، لا تستطيع الحركة أو الكلام بسهولة، وكنتُ كلما أفرطتُ في تناول الحلوى أكثر من المسموح تهددني أمي "خليكي لُغّي لحد ما تبقي زي

عواطف". ومع ذلك لم يكن عفت عامها منشغلا بزواج ابنته الكبيرة، ولا خبل التي تليها بقدر ما اغتمَّ بعجز ابنه جلال.

جلال في عمر عمي صلاح، لا يختلط بالآخرين كثيرا، كان سليما معافى، يتحرك ويتعلم ويصحب والده إلى وكالة جده ليتعلم أمور التجارة والحساب كما كان يخطط لذلك عفت. وكان الاتفاق الضمني بين عفت ووالده قبل أن يتوفى، أن جلال لنفيسة ابنة نفيسة الأخت، ونفيسة لجلال. لكن بعد أعوام، وفي حياة الحاج عبد الرزاق، ظهرت على الصبي أعراضا غريبة، سقط حاجباه على عينه وكأن وجهه لا يستطيع حملهما، ثم توقف عن لعب الكرة وركوب الدراجة كما كان معتادا أن يفعل، ثم توقف عن الذهاب إلى المدرسة، وكلما سأل المحيطون عن السبب، تكون الإجابة "شوية بس، بعافية حبتين".

ثم يستأجر عفت سيارة أجرة وينطلق بها في منتصف الليل إلى القاهرة حاملا على يديه ابنه جلال غير قادر على الحراك تماما، وزينب تبكي بكاء حزينا.

في تلك الآونة اتفق عفت مع فهمي على أن يترك عصّارة القصب التي عمل بها على بنك القشاط منذ أسابيع، على أن يرفع أجره اليومي إلى الضعْف، في مقابل أن يكون الفتى نائبا عنه في مراقبة أعمال الوكالة في غيابه الذي سيتكرر في الفترة القادمة ليحمل جلال أسبوعيا إلى القاهرة، وربما يغيب هناك.

"ضمور عضلات.. المرض اسمه كده، ما كانلوش علاج، وأظن لدلوقتي.. فضلت حالته تسوء لحد ما مات" قال أبي.

انهار عفت، وتغيرت شخصيته، ازداد انهزامية واكتئابا، وتخلى عن غروره العتيد لشهور، ولكن سرعان ما عاد إليه. توقّع فهمي أن يخسر عمله بعد شهر من موت جلال، ولكن عفت لم يصرفه، لم يقلل

راتبه، بل وصار يقطع المسافة بين المختلط وشارع الأتوبيس القديم، حيث بيت أبناء البيلي، بدراجة ابنه، ينادي على فهمي من الشارع، يركبه خلفه، وينطلقان.

يجلسان على دفاتر الوكالة يضبطان المكتوب بالموجود، يضيفان ويحذفان يرافقهما المحاسب الأصلي للمكان. ينهيان العمل ويتسكعان بين مقاهي الطميهي أو الشيخ حسنين أو شارع المديرية القديمة. يصمتان ويتحدثان، يتفقان ويختلفان، يستمعان إلى نشرة أخبار الراديو، يتجادلان مع رواد المقهى عن "أحوال البلد"، الأمر تداخل حتى صارت العلاقة بينهما غير مفهومة. عفت ربما حاول استعاضة جلال في شخص فهمي؟ هل الرجل يحتاج نفسيا لصحبة هادئة خارج محيطه؟ لا يهم، فقد كان عفت طوال الوقت يحمل بداخله شعور المتفضل على الآخرين، الأعلى منهم، هذا الشعور كان يمنحه نشوة كبيرة، يساعده على تخطي صعوبات كثيرة في حياته في وقت قياسي، أظن لهذا تقرّب من فهمي تلك الفترة.

***

الباز، في اليوم الأول الذي التقى فيه بفهمي وسلطان يبحثان عن سكن لا يفكر كثيرا في هوية فهمي أو شكله أو مهنته، فقد وجد ضالته أخيرا في مرافق مجاني لأخيه مما يمكنه من قضاء وقت أكبر في المحروسة. قدم سلطان أيضا الأشعل للباز على أنه ابن صديق مات في ظروف مأساوية، "والواد غلبان زي ما انت شايف.. ونضيف وعايز يعيش". قال ذلك في أذن الباز بعدما تنحى به جانبا من الطريق.

مجازيا، لا يمكننا اعتبار المعلم سلطان كاذبا انتهز سلامة نية طالب الأزهر ليجد مأوى لهذا الشاب. ولكن فهمي حينما فتح قلبه

لمختار وذاب حاجز التحفظ بينهما اكتشف الأخير أن فهمي ليس مُسْلِما، الأمر الذي وضع الباز في وضع سخيف مع نفسه.

"نوصراني يعني؟" الباز.

"آه، على دين عيسى، بس ما يقولش على عيسى ربنا" قال مختار لأخيه.

"يا وقعتك الطين يا باز.. أومال سلطان قال لي موحد بالله"، الباز، بهدوء.

"ما هو كده برضك.. موحد بالله" مختار وهو يقشر البطاطس.

بقي فهمي صامتا خلال هذا الحوار، لا يدافع، لا يهاجم، يفكر فيما سيأتي، كم سيبقى ولأي سبب؟

مختار كان طيب المعشر رحيما إلى الحد الذي جعل فهمي يحترمه قبل أن يحبه، إنسان أكثر منه أي صفة أخرى. وهذا سبب كاف لفهمي كي يبقى. وأما إلى متى؟ إلى أن يجد عملا يغنيه عن سؤال الكريم واللئيم، ويصير له اسم وصفة وديانة يواجه بها هؤلاء.

"طيب ما يطلع بوطاقة، يحط اسمه، وديانته، وعنوانـــه.. ـــه " يصمت الباز ثم يسأل "ونحط لك العنوان على فين؟ أصلا محل الميلاد فين؟ برلين البلد؟" ويضحك، ولا يضحك فهمي.

ذات مرة وضع الباز لقمته في طبق القلقاس بسرعة، ثم في فمه، عائد من السفر يومها، ومن ثم بتفكه ركيك سأل: "مين فيكم اللي طابخ النهارده"، فأجابه مختار: "أنا قلت لفهمي يعمل إيه وهو طبخ".. فقال الباز: "على كده الواحد يخاف" وعاد للضحك ولم يضحك أحد. "ما تزعلش يا خواجة أنا بحب أنكشك"، أكمل فهمي مضغ لقمته ونظر إلى الباز بنفس ثابتة.

سأل مختار عن كيفية صلاة فهمي، وأنه لا يسمعه يسبح أو يدعو أو يرتل بلغته ودينه، قدر ما يساعده على الوضوء ودراسة الفقه وحفظ حديث رسول المسلمين. فقال فهمي أنه لم يهتم لكيف يصلي من هم على ملته، حيث أنه اختلف معهم في النهاية. وأنه ليس متأكدا من طقوس عبادات أمه إذ أنها مارستها في الخفاء حتى لا يكتشفها أحد. وأن الحزب الحاكم عموما من حيث أتى لم يهتم بالدين والصلوات ورضى الرب بقدر ما اهتم بشعارات الاشتراكية وقوة الشعب ونهوض العِرق الفذ.

"معلش، إنت بتصلي لله مش لحد، افتكر طايفتك اللي قابلوك ف مصر بتصلي ازاي، وصلي، الصلاة بتريح يا فهمي" قال مختار في النهاية.

حل وقت زار فيه الحاج البيلي ابنيه في المنصورة، فقد أخبره المرسال الذي يبعثه لهما كل أسبوعين بالمال والطعام أنهم أسكنوا معهما طالبا جديدا. كذبة كذبها مختار ليبرر وجود فهمي بينهم، وليدفع المرسال القروي الفضولي إلى العودة أدراجه في نفس اليوم على أن لا سرير شاغر، ولا أغطية تكفي الجميع. كان الهدف ألا يرى أو يسمع الكثير، فيحكي للأب ما لا يجب أن يسمعه. فرجع المرسال غير مبتهج وقد ضاعت منه فرصة "الفسحة ببلاش" في المنصورة، ليغير صدر الرجل على ولديه.

"شكلهم أجروا أوضة الباز يا حاج وبياخدوا الأجرة من وراك.. أو بيعملوا خير في الناس بقى على حسابك".

فجاء الحاج ليتأكد بنفسه.

رتق الباز كذبة أخيه بكذبة أردأ ليدحض الاتهام، قال عن فهمي إنه جارهم الجديد الذي يسكن غرفة في طابق آخر في نفس البيت. ثم

عاد فعدل عن كذبته حين كشفها أبوه ولم يرضَ عنها مختار ولا فهمي، حيث أن الأب يعرف كل سكان البيت منذ أعوام. فقال الباز: "دا المرافق الجديد لمختار يابا وأنا اللي بدفع أجرته من شهريتي.. مش قادر أفضل ف المنصورة تلات أيام ورا بعض". وانتقل الحساب من ساحة فهمي ومختار إلى ساحة الباز، لماذا يبقى في القاهرة طوال الأسبوع إن كان راسبا؟ فتعلل الباز بأنه لابد أن يحضر الدروس وإن كان راسبا، وأن يراه الشيخ ليطمئن لاستقامته ورغبته الجادة هذا العام في الاجتهاد. ارتعش عرق في وجه مختار وهو يسمع قول أخيه، ولم يعقب.

بات الحاج البيلي ليلته وصلى الجمعة والعصر في الشيخ حسنين ورافقه فهمي ومختار، أوصى فهمي بابنه خيرا ودعا لهما بالبركة وحسن الرفقة، توجه إلى حيث سيستقل عربة إلى قريته فقال للأشعل: "خد يا بني القرشين دول ما يغركش مناكفتي ف الباز.. بغض النظر، أنا ارتحت لك" ورحل.

تهللت أسارير مختار بهذه العبارة، غير عابئ بأمرين، الأول أن فهمي دخل المسجد معهما وتصرف وكأنه مسلم، فتوضأ وصلى. والثاني أن وقت الباز أصبح خاليا الآن للبقاء في القاهرة طوال الأسبوع، فهو مشارك في جوقة للتوشيح منذ عام تستهلك معظم ليله، وقد تعلم عزف العود على يد آلاتي مخضرم في شارع محمد علي.

"يعني انتو اتجنيتوا مثلا؟ سيبته دخل الجامع وقعد وسمع الخطبة وصلى؟" قال الباز لأخيه بصوت منخفض.

"يا أخي هو عارف إن المساجد بس للمسلمين.. ما يمكن أسلم"، مختار.

"يعني أسلم ف السر مثلا؟ أسلم كده من روحه" الباز محاولا المحافظة على انخفاض صوته.

"وهو لازم حد يقدمه لربنا؟ ما تسيـــ.." مختار.

"لازم يعلن، مفيش حاجة اسمها غير دينه في السر.. ده لو له دين أصلا" الباز وقد بدأ تفكيره يتخبط وظهر ذلك في عينيه دون صوته.

كنتُ أتخيل هؤلاء الناس حينما تُرْوَى لي تلك الحوارات، يحيى نقلا عن فهمي عن الأخوين بيلي، أو من عمي صلاح مباشرة، إذ أنهما أشركاه في حوارات المسلمين باعتباره منهم، ويتفهم موقفهما.

أما فهمي فذكرياته عن الحدث أنه كان معجبا بصوت الخطيب وجهورية إلقائه، ثقته المفرطة فيما يقول، لكنه لم يستوعب جيدا عن أي شيء تتحدث الخطبة. لفتته طاعة الناس لقائدهم في حركة واحدة على صيحة واحدة، الله أكبر، المسجد يهيم بالصمت إلا من صوت المتحدث الذي يلقي آياته على أدمغتهم مباشرة فتستسلم لها عيونهم وتستحسنها موافقاتهم التي تعبر عنها لفظة "آمين"، يطلقونها من العمق، يندهشون، ويخضعون. لم يكن عم فهمي قد أسلم وقتها، لكنه لم يقاوم التجربة.

***

شقة إيڤان

في تلك الأثناء ظل عفت يتقرب من فهمي ويعتمد عليه في أمور كثيرة، وذات يوم سأله لماذا يبيت لدى هذين الطالبين؟ فأخبره بأنه يساعد الكفيف. راقت تلك اللفتة لعفت، وفي عذوبة مفاجئة، اعترف لفهمي بالخوف على صحة ابنه الثاني، إبراهيم. منذ أسبوع لا يمكنه الابتسام بشكل صحيح، وجهه كالمتصلب. حاجباه لم يسقطا بعد، وهذا طمأن عفت على أن الأعراض لا تشبه مرض جلال، لكنه حينما سأل الولد تحريكهما لم يستطع.

انتظر فهمي بقية ما في جوف الرجل لكنه نهض كأنه لم يقل شيئا، طوى منديله القطني العريض، وانصرف بتناكة كالعادة. وتبدأ مرحلة أخرى من حياة عم فهمي الذي كان يقترب شيئا فشيئا من مصيره النهائي الذي رأيته عليه حتى مات، ذلك الذي بدأ وانتهى بنفيسة.

بعد شهرين سأل عفت فهمي عن السبب في أنه لم يعد يصطحب الأعمى للمعهد، فأجابه بأنه سافر، ساعتها صارحه عفت بغرضه الذي لأجله ساق له تلك الديباجات من قبل.

عفت: "طيب حيث كدا خليني أشور عليك شورة هاتنفعك خالص".

لم يكن الرجل يطلب المساعدة من الآخرين على هيئة طلب حقيقي، وإنما في صورة معروف يقدمه للطرف الآخر، تفضلا وكرما. عرض على فهمي شقة الدور الأرضي ببيته، المقفلة منذ

سنوات، لأنه لم يكن يريد تأجيرها للغرباء حيث أن له ثلاثة بنات، حسب زعمه.

شقة إيڤان، المغلقة بأمر عائلة عبد الرزاق أكثر من عشرين سنة مرضا ونحسا، سيفتحها فهمي ليسكن قريبا منه، ومن العمل الجديد، إشفاقا عليه، كما قال له. روى عمي صلاح لي تلك القصة وهو جالس على أريكة مقابلة لباب غرفته، أمامه طاولة فرومايكا كبيرة، طوى فوقها ملاءة بيضاء، ووضع مكواة كهربائية تقف على كعبها، ونصف كوب ماء. نثر بخة ماء من فمه فوق زيه العسكري الممدد فوق الكوفيرتة وقال: "عفت ماكانش أهبل، ولا بالكرم ده، وفهمي راسي على الدور، إنما في ايده إيه غير يجرب؟".

رفض الأنفار مساعدة فهمي وعفت في فتح الشقة، في الحقيقة لم يكن عفت سيحضر فتح الشقة، وإنما أعطاهم المفتاح وتعلل بأنه سيجلب شيئا لبيته حالما يخلعون عوارض الخشب عن النوافذ. وحينما أنهوا فك التي بالخارج لاحظوا أنه يسترق النظر من شرفة منزله حريصا على ألا يروه، ضايقتهم الفعلة، "بيستغفلهم"، يبدو أن الشقة منحوسة مسكونة بالفعل، وهو خائف على نفسه. ذكّر أحدهم البقية ببخله، لقد فاصلهم كثيرا في الأجرة ووعد بمبلغ زهيد للدخان ولا غداء. نظروا حولهم ولم يجدوا سوى فهمي، الذي لم يكن يهتم كثيرا بما يقولون، لم يعاونهم على الرجل ولم يتخذ صفه، واصل العمل.

انصرفوا بعد معركة كلامية في الشارع بينهم وبين عفت كانت نتيجتها أن فكك فهمي عوارض الخشب الداخلية نافذة نافذة بمفرده. فتحها كلها للضوء والهواء، رفع الأغطية، نظر إلى أثاثها ذي الذوق الأوروبي الملحوظ، عَفش إيڤان كما هو، قطعة ما ذكرته بقصر سيرافينو، فبكى.

حاول عمي صلاح يومها مساعدة صديقه، ولو من باب الفضول ليرى الشقة المقفلة من قبل أن يولدوا جميعا، فحبسته جدتي "وِد" في الحمّام، لا أعرف كيف، لكنها حينما ذكّرتُها بالحدث أكّدَت الرِواية. نعم، كانت جدتي تؤمن بالأرواح والعفاريت حتى ماتت.

نظّفَ الأشعل كل غرفة من الشقة على مهل في أيام متتالية، ووجد متعلقات لإيڤان كانت في مكان من خزانته ظنه الجميع غير موجود. لم يكن هناك شيئا هاما غير خنجر له غطاء مزخرف ثقيل الوزن تفوح منه رائحة الحديد، والبخور، منقوش عليه حروف عربية. كما وجد صورا كثيرة لنساء عاريات. بعضها مرسوم باليد وبعضها مطبوع، وأخرى فوتوغرافية، منهن العاريات تماما في وضع فني، وبعضهن بملابس البحر أو الاستعراض، وصورة فوتوغرافية لامرأة جميلة بملابس سهرة، وأخرى نهارية بفستان عمل عادي وعلى ساقها طفل، صورة أخيرة لرجل بمعطف وامرأة أخرى في ثوب زفاف.

الصور كالأشباح في حياتنا، تنقلك فجأة إلى مكان غير مكانك. وجوه تدخلك في شعور غير شعورك. لم تنفع أغراض تلك الخزانة أحد، أو تضره، غير أن الصور التي حوتها ذكّرت فهمي بشهوته، نقلت مخيلته من المرئي العادي إلى العالم الذي تخفيه الملابس، إذ لم يرَ امرأة بدون ملابس من قبل. رأى يومها أن جسد المرأة ليس واحدا، ليس في اللون والطول والامتلاء فقط، وإنما في الشخصية أيضا، لجسد كل موديل شخصية تخصها وحدها دون أن تتفوه بكلمة، ولو كانت مغمضة العينين. تفاصيل غنية مشعة، وأخرى مسكينة، منطفئة، ولكل جاذبيته، لكل ردة فعل في نفس الرائي، تاه الشاب، لم يترك إيڤان طرازا من الفاتنات لم يقتنيه، السمراوات والشقراوات، البدينات والنحيفات، المبتسمات والمجبرات على الابتسام. وضع فهمي

كل شيء في مكانه، أمسك بالخرقة وعاد لنفض الأرفف وكأنه يطرد شيئا سكن فيها، هزمته شابة مكتنزة الصدر والأرداف، لم تخرج من الخزانة، يعكس اللون القاني فمها المستعد للتقبيل حتى النهاية، وضعت يدا فوق صدره، ونزلت على الأرض، التصقت به، شعر بأنفاسها في حلقه، تقول شيئا شهيا بلا حياء، أصابع يدها الأخرى خلف أذنه تمنعه من الفهم والتركيز، ألقته على ظهره واستلقت فوقه، عورتها مقابل عورته، بدأت بالحركة، اهتز فهمي بعنف وجأر بصوت منتش، جثمت المرأة بكامل ثقلها عليه وهو ينتفض، انتظرت حتى خبت قواه تماما ثم اختفت.

أفاق فوجد ملابسه مبللة، تفوح منها رائحة العرق والماء العطن. صرخ صرصور الشجر بإلحاح سخيف تحت ضوء عامود الشارع أمام البيت، وفي مشهد مخيف مضحك التقى عفت بعمي صلاح على باب شقة إيڤان، فهمي لم يخرج منها منذ عشرين ساعة تقريبا، المكان مظلم حتى على السلم. عفت يحاول استراق السمع، وحينما تسلل صلاح إلى المدخل هلع الرجل، هلع إلى الدرجة التي لم تمكنه من إخفاء صيحة ذعر وجحوظ الرعب، سأله المراهق: "في إيه؟" أجابه الرجل وقد طارت ساعات الخوف الصامتة بصوابه: "مش عارف.."، ثم عاد فقال: "تعالى اسمع".

تأتي من الداخل أنات ألم واختناق، ثم صوت إناء معدني كبير ملقى على الأرض، يصدر قرقعة عالية، قطة تموء، لم يحددا أكانت في الداخل أم الخارج، حفيف وراء الباب، نظر صلاح إلى المصباح الكهربائي وعلم أنه يضاء من الداخل. فقفز عمي للشقة عبر النافذة المفتوحة.

"العفاريت جذبوه"، وقع ف الأرض كعود القصب بعد أن مصمصته الأرواح، كانت تلك أقوال الخدم في الحي، ومن ورائهم

مخدوميهم الذين يتصنعون التجاهل أو التعالي عن تقصّي أخبار الجيران، بينما تثير القصة شهيتهم للتنفيس عن جوانبهم المعتمة، المجهولة، بسرد الأحداث الوهمية وإلصاقها في فلان أو فلانة من الشهود.

"شهود إيه، هو كان في غيري؟" قال ذلك دائما عمي صلاح حينما نضحك على الرواية، حيث أغشي على الباشمهندس عفت حينما خرج له صلاح من باب الشقة في الظلام."كان حتة منظر".

أشهر دور برد نُسجَت حوله القصص لخمسة عشر سنة بعده، ظل هذا للنهاية رأي أبَي يقول ويرد على قهقهة عمي بأعلى منها. بينما جدتي تراقبهما بصمت أقرب للغيظ، ولا تضحك: "يا بنتي لما فتحوا عليه الشقة كان عاملها على روحه، ملبوس وبيرجف، العفاريت هطلوه" تقول لتتقنعني بأن أبي وعمي لا يفهمان ما حدث بشكل صحيح.

لم يكن هناك ما يسمى خافض حرارة بالمعنى المتداول الآن، فهمي لم يصب بإسهال، ولا قيء، كما قالت جدتي، لكنه سعل لوقت طويل. حمى شديدة كما وصفها أبي وعمي صلاح. حين سقط فهمي على الأرض وهو يتخيل مضاجعة المرأة المكتنزة، قال لي يحيى ذلك فيما بعد، اصطدم بالإناء المعدني المملوء بماء المسح، فسال تحته. ولأنها كانت المرة الأولى منذ مدة، فعندما قضى فهمي شهوته فقد وعيه، ومن إغماءة راحة إلى نوم عميق، ثم إلى جسد يرتعد من الحمى بسبب نومه لساعات على الخشب المبلول، نافذة مفتوحة، تقلب فضرب الوعاء الفارغ بيد أو ساق، وجعلته الهلوسة يصدر تلك الأصوات التي حرمت أسرة عفت النوم.

عم فهمي رجل عفيف، ولشد ما جذبني في يحيى دائما أنه ورث عنه تلك الصفة. كان أيضا رجلا سعيدا، هل ينكر أحد الآن ذلك؟ إنه

لم يترك أثرا خلفه أقوى من انطباع الناس عنه بالسعادة. بشوش هادئ، بطيء في مجمل تصرفاته وإنما منجزا. ينجح في النهاية في الوصول إلى بغيته، طال الطريق أم قصر، لَم يكن ضائعا ضعيفا كما حاولت زوجته تصويره أحيانا، وإنما متأنٍ يعتمد أسلوب التخطيط للهدف. وأكاد أشعر أن ذلك ما رأته نفيسة فيه في البداية، وبأنه شدها نحوه صبره وذكائه. هل أحبته فعلا؟ سؤال بلا إجابة، لم تكن نفيسة شخصية واضحة إلا في الغضب، وما كان أكثره. هادئة أو ثائرة، راضية أو ساخطة، كانت هناك نبرة سخرية وحسرة مصاحبة لكل ما تقول وتفعل، إلا في الحكاية السحيقة التي ربطت فهمي بها.

لم يستدعوا طبيبا يعالج الشاب المريض، ولم يتناوب على خدمته الكثيرين، كان فقط عمي صلاح. ذلك قبل أن يظهر الباز أيضا. عفت ظن أن فهمي ميت لا جدال، إنما هي مسألة وقت، امتنع عن زيارته في البداية خوفا من النحس، ثم من العدوى، ثم عندما سمعه يتحدث بصوت به عافية وهو مار تحت النافذة، ألقى عليه التحية من بعيد، نصف دقيقة وصعد لشقته.

منعت جدتي أبي وعمي من المرور عليه كي لا تصيبهما اللعنة، فامتثل لها أبي وعصاها عمي، لم يكن لجدي رأي يفصل بين الحزبين، ترك الأمور كما هي. كذلك منع عفت أهل بيته من التواصل مع الشقة الأرضي، لكنه ترك نفيسة تحمل الحساء لفهمي، كان فضولها لترى الشقة، أكبر من ضيقها من أن خالها يضحي بها بالنزول لمكان مريب، حريصا على صحته وصحة زوجته وأولاده.

لم يمسسها ذلك اليوم فهمي بسوء رغم الحمى والهلاوس، فقط امتنّ للمحنة التي قربت له كائنا كان يرغب بلقائه. عصرت نفيسة المنشفة مرات ووضعتها على رأسه، حينما كانت تدخل فتجده بمفرده

ساعة ظهيرة وقد أهلكته الحُمى. ذات مرة حاولت بالملعقة سكب الحساء بالليمون في فمه، فلم تتمكن، في المحاولة الثانية وقف السائل في حلقه، انقلب على جنبه وسعل رغم الغيبوبة. شعرت بالذنب فنحت الطبق جانبا، وواصلت الكمادات. لمّا أفاق كانت قد خالطت خياله فعلا، رآها في حلمه وقد داعبت وهدهدت، بذل جهدا ليبين الحلم من الحقيقة، إذ وقع قلبه أسيرها للأبد. ومع ذلك فقد شهدت له بأنه يومها لم يمد نحوها إصبع أو نظرة، في هلوسته مهذب كما في يقظته.

حينما جاء الباز للشقة بصحبة عمي صلاح لم يكن معه العلاج فقط، إنما ومصحفه، وسجادة صلاته، وكان يرتدي جلبابا عاديا بلا عمة ولا قفطان. واظب على صنع الشاي وتقديمه للمريض، ووضع الدواء في فمه بمواعيد محددة، كما صادف أن أخذ الحساء وبعض الطعام عند الباب من نفيسة، وحينما ذكر جمالها عند فهمي بشيء من الشراهة المصطنعة نهره الأخير، أخبره أن هذا الأمر ليس فيه استهتار، وأن الفتاة ليست موضع مزاح، لكنه عاد بعد أيام بسؤال فضح أمره."في دينكم لو عايز اتجوز بنت زي دي، المفروض أكون مسلم؟"

***

سكة سندوب

لما مات جلال كانت الخطة أن يتزوج إبراهيم نفيسة، يصغرها بعامين صحيح، لكنه ليس بالفرق الكبير. فلما مرض إبراهيم أيضا أظلمت الدنيا في وجه عفت. لم يكن يخسر ابنه الثاني فقط، إنما ومال نفيسة الذي يجعله شريكا بين أخوته في وكالة أبيه، ويعينه على شئون بيته. فكر في أن يعقد له عليها، أصابته الغصة، ماذا لو لحق إبراهيم بجلال؟ ماذا يفيده أن تصبح نفيسة أرملة بحوزتها ثروة صغيرة؟ من الصعب أن تنجب منه، حتى المجنون يمكنه إدراك عجز ولده وصغر سنه المفرط. بكى عفت قلة حيلته وفراق أولاده وانحسار رزقه.

فكر أيضا في أن يجعلها توقع على تنازل عن أسهمها التي تكبر يوما بعد يوم بأثر حكمته وتدبيره في التجارة، لكنه حين سَلِمَ من استجوابات فهمي كمساعد، ومن ارتياب إخوته، لم يسلم من لسان نفيسة، كانت تقرأ وتكتب وتنتظر سن الرشد لتتسلم مالها كاملا وتوقع بنفسها على الأوراق.

انتهز الباز الفرصة، وأقنع فهمي في النهاية باستخراج وثيقة ميلاد، خانة ديانة الأب فيها مسلم، حكيم هارون الأشعل، ديانة الأم نصرانية، والاسم مفبرك. فكتبوها مريم فضل إسحق، ولم يضيفوا لقبا. شهد سلطان وعبود ساعي المحكمة المقيم بسيدي يونس، وقدوس العطار، وشحتة العجلاتي، وقصاب لم أعرف اسمه، بأن هذا الفتى نشأ بينهم وبأنه وحيد أبويه، ماتا في وباء ما وليس هناك شهادات وفاة، فقد كان الوباء عظيما. ثم ذكروا شقاقا بين العائلتين المسلمة والمسيحية حتى أن كل منهما دفن في مقابر لا يعلمها أهل الآخر. قبل

الموظف على مضض تلك الشهادات، ووضع بصمة كل منهم أمام أقواله. الغريبة أن أحدا لم يخش جريرة ما فعل، لم يشعر للحظة بأنه مزوِّر، بما فيهم الباز، كان سعيدا بأن صديقه صار في أوراق الدولة الرسمية على ديانته.

"مزور ليه يا بنتي؟ هو كان عايز كده والا لأ؟" عمي صلاح.

"ما اعرفش.." أنا.

"كان عايز، ويادوب الباز جمع له الناس ودله ع السكة" عمي.

"....." أنا.

".. ما توجعيش دماغي يا بت.. روحي اسأليه". عمي صلاح.

مكث الباز في المختلط مددا أطول حتى بعد شفاء فهمي، حيث أعجبه الحي ومطبخ الشقة، والصحبة، وفي المرة الأخيرة عاد من القاهرة ومعه كنزه الثمين، العود. صار يدندن بما حفظ، ويتمرن على ما لم يحفظ، ولم يشعر أحد بتناقض في أن يصلي الباز بالنهار، ويدندن على العود في الليل. ذات ليلة بعد عام من حادث الحمى دق عفت باب فهمي، وكان الشباب مجتمعين. قرّعَهم بما يليق بمكانته كمهندس وقور، وذكرهم بأنه حي محترم، وأن بيته محترم، ولفت انتباه فهمي إلى أنه يستقبل في شقته للمبيت أشخاصا كثر ولم يكن متفقاً على ذلك، إذ أنه أسكنه فيها بمفرده، لا بهم جميعا. تكررت الإنذارات حتى بات الأمر جليا، عفت يريد ترحيل الأشعل من البيت.

"هو طمع ف الشقة بعد ما فهمي فتحها ونضفها وعاش عادي" قال أبي.

بعد أن برء فهمي من الحمى، كان أن طلب عفت بطريقته المواربة منه أن يساعده بدون شوشرة على حمل إبراهيم إلى الحمام،

أو للنهوض من فراشه، وحتى لإطعامه وتغيير ملابسه والتسرية عنه، إذ أصبح من المستحيل أن يخدم الولد نفسه، كما أنه أثقل من أن تخدمه زينب وعفت بمفردهما. سر أخلاقي احتفظ به فهمي لعام كامل، احتراما لظرف عفت من جهة، ولأنه كان سعيدا بلقاء نفيسة من وقت لآخر.

جلال كان في عمر صلاح ومختار اللذان يقهقهان أسفله، في الشقة التي أنعم بها على الأشعل المنبوذ، لو كان حيا لـــ..، وها هو إبراهيم يلحق به. قال أيضا إن عواطف ابنته البلهاء التي فشل في تزويجها، يخدش حيائها صوت الشباب، وربما أثارت هذه الأجواء فيها مشاعر، وعليه فقد أمر فهمي بمغادرة شقة إيڤان، على أن يستمر في عمله كمحاسب خاص لأموال نفيسة في وكالة مرعي، وعلى أن يمر في الليل ببيت عفت يساعده على تنظيف ابنه المريض. كان اتفاقا عجيبًا، وإنما قبِلَه الطرفان.

عاد فهمي مع الباز ومختار إلى شقة شارع الأتوبيس القديم، وكانت حالته النفسية ممتازة، فهو عاشق، ويملك شهادة ميلاد. عاد أيضا سلطان يتردد عليهم ويسأله العودة إلى سيدي يونس وعربة البسبوسة، لكن فهمي فكر أنه لابد أن يتخلص من كل هذا ذات يوم بعمل خاص، يملكه هو وحده. أخرج كراس وصفات لوسييل وبدأ يستذكره صنفا صنفا حتى ينعش حواسه وذاكرته، وفي طموحه أن سيكون صاحب مطبخ يشبه مطبخها عما قريب، وسيبيع فطائره للناس.

ثم حدث خلاف بين فهمي وعفت ذات مرة حول حسابات الوكالة، فقرر فهمي بعدها أن يترك العمل هناك، ولم يداوم لعشرة أيام بعدها في بيت عفت لخدمة إبراهيم. فجأة طرق باب شقة البيلي طارق

لطيف، كانت نفيسة، وحينما جاءها صوت مختار من الداخل قبل أن يفتح الباب، عادت للخلف درجتين. سألت عن فهمي، ففتح فهمي الباب، قالت ستنتظره في الشارع لتخبره شيئا:

"أنا بحب خالي ما أشكش ف ذمته، بس للحق الشغل مزبوط من يوم ما مسكته انت، خالي كِبِر، موت جلال كبره زيادة، مرض إبراهيم كمان.."

"المطلوب مني؟"

"والنبي تتحمله يا سي فهمي، انت شاب عندك مروءة، هاينتهي بيا الحال زي أمينة، يجوزوني واحد غتيت، ويقسموا بينهم فلوسي".

لم تدرِ نفيسة من أين علم خالها بهذا اللقاء دون فحواه، لكنها نالت ليلتها إحدى وعشرين ضربة بخرطوم الغسيل، ومُنِعت بتاتا من الخروج للشارع.

بات فهمي ليلته لا يعلم شيئا عن أي شيء، ولم يرَ وجه نفيسة بعدها إلا بعام، لكنه بات قرير العين شاردا، غير نائم غير مستيقظ، مبتسم دون سبب، منفعلا، سعيدا، يشعر بأنه يملك من العالم الكثير.

كان عفت بالفعل قد وصى، من أهل حي الأتوبيس القديم حيث شقة طالبي الأزهر، صبيا يأتي بأخبار فهمي مقابل عدة قروش في الشهر. ذات يوم جاءه الصبي بخبر أن فهمي عاد للعمل في وكالة جلالة بأجر خمسين قرش كاملة، وقد كانت تلك بدايات مشكلة بين جدي وصديقه القديم، إذ عاتبه عفت بقوة في قلب السوق.

خيّر جدي فهمي بين أن يبقى في وكالتنا، أو أن يذهب مع عفت حيث أعلن فجأة أنه يريده ثانية للعمل معه. انتحى فهمي بجدي جانبا وشرح له قصة زيارة نفيسة، وفي نفس الوقت ضيقه من غدرات

عفت، تفهّم جدي الموقف وعرض اتفاقا كالتالي، من السابعة صباحا وحتى الثالثة مساءً في وكالة جلالة، ومن بعد ذلك هو ملك لعفت. فوافق الجميع.

مضت فترة حتى ضاق أخوة عفت بفهمي ذرعا، والذي أصبح أكثر تشددا معهم في الحساب بعدما صارت فترة خدمته مسائية. منذ موت أبيهم قد اتفقوا فيما بينهم على استلام البضاعة والاتفاق مع التجار والعمال على أسعار الغد ومكان وحجم التخزين من بعد المغرب، أي بعد رحيل عفت ومحاسبه الأشعل عن الوكالة كل يوم. حاولوا توريطه في أعمالهم عدة مرات فلم يفلحوا، ثم حاولوا صرفه من العمل بحجج كثيرة، أيضا لم يفلحوا، ثم كان أن أرابهم اختفاء إبراهيم عن المشهد فسألوا فهمي عنه. ولما لم يفتح فهمي لهم المجال للحديث في خصوصيات مخدومه، سألوه صراحة أن يقنع عفت ببيع نصيب ابنة أخته، ويفضونها سيرة، فهو نصيب صغير مدسوس منذ أيام أبيهم بين أنصبتهم الكبيرة، لا يؤثر في رأس المال، ولكن يعجزهم عن الحركة بحرية في أموالهم بسبب حنبلية عفت. لم يهتم فهمي بطلبهم حتى كرروه مرة ثانية بلهجة أشد، فخاف حقا، ووعدهم أن سيفعل.

ظل يفكر في مدخل لذاك الاقتراح، كان يعلم علم اليقين أن قصة الوكالة بالنسبة لعفت لا تعني النصيب والدخل الشهري السهل الذي لا يكلفه إلا المتابعة فقط، لكنها ملهاة جيدة للعمر، مكان يذكره بأنه من هذه العائلة بعدما خرج من كل شبر فيها إلا بيت المختلط، الذي لم يكن كافيا له تماما، إذ أن الوكالة أيضا تضيف لسمعته وجاهة في مجتمع المنصورة الصغير. كيف سيقنعه فهمي فجأة بالابتعاد عنها؟.. لم يكن الأمر سهلا.

في المساء الذي قرر ألا يفاتح الرجل أبدا بهكذا موضوع، دخل الوكالة فوجد عفت بجوار أخيه الأصغر عبد الله مكفهر الوجه تبدو

عليه صدمة حياته: "وما قلتليش ليه يا فهمي؟ هي دي الأمانة اللي أمنتها لك؟".. نهض عن مكانه فظهر كرشه المستدير المتكور في قميصه الأبيض تحت الصديري، وسلسلة الساعة تتعلق بين جيبه وأزراره، رفع كفه في الهواء عاليا وهوى بها على صدغ فهمي "كلب".. "اطلع بره".. فخرج الفتى غير آسف على هذا الرجل، بل وغير عازم على معرفة السبب أو العودة إلى تحمل تلك العائلة المؤذية.

هرعت نفيسة إلى باب جدتي في المساء التالي تطرق الباب بجنون، كانت حافية القدمين ترتدي قميصا منزليا طويل الأكمام، عقصت شعرها الطويل الأملس خلف رأسها كذنب الخيل، لم تكن تبكي لكن الفزع على وجهها أشد تعبيرا من البكاء، "هايموتوه يا خالة، هايمووتووه".

كانت جدتي في عالم آخر، قبلها بشهرين قللت من تناول الطعام عمدا، وادعت المرض. طاف بها جدي مستشفيات المنصورة والإسكندرية والقاهرة، حتى أنهم نصحوه بأن يزورا الأولياء، وأن يبعث في طلب ماء زمزم مع الحجاج ففعل. كانت بخير، إلا من قلبها وكرامتها. صمد جدي على شرطه من هجرها في الفراش لعامين ونصف، ولم يراجعه أحد، ولا حتى هي. الجازية في بيت الحسينية منذ أعيد بنائه كالوكالة، حيث أن أعمال الترميم بعد المطر هدمت قسما كبيرا منه، فهدمه جدي كله وأعاد بناءه من جديد. استغرق البناء عامين إلا قليلا، وحينما انتهى منه راجعه خاله في أمر ابنته من جديد، فأجاب جدي بأنها إن شاءت طلقها، وإن شاءت عادت إلى بيت الحسينية، لها عليه النفقة والمبيت، لكن لا جماع، وقال أنه اعتزل النساء بما فيهن أم الأولاد. فجاءه الرد بأنها موافقة على العودة إلى بيت الحسينية بلا شروط.

أضرمت عودتها الحرائق في نفس "وِد"، التي لم يعد بمقدورها تكرار خطأها القديم، ذلك الذي كلفها الكثيرَ من الليالي ترى زوجها ينام في غرفة منفصلة كل ليلة ولا تجرؤ الطرق على بابه، جدتي كانت ذكية، ودرس جدي كان شديد القسوة.

"كنت حاسة ان قلبه راح مش راجع، وإن الزمن القديم اللي كنت فيه حبيبته وصاحبته وأم عياله خلص" قالت جدتي وهي تشرح لي لماذا امتنعت عن الأكل وتمارضت. كان جدي قد بدأ في تقسيم الإقامة بين البيتين ولم تكن جدتي تعرف إن كان يضاجع الجازية أم لا. تحركت دادة شوقة هنا وهناك حتى جاءت لجدتي ذات أمسية بالخبر اليقين: "حاولت معاه يا ستي ولسه بتحاول، وهو ولا هنا". فأجمعت جدتي أمرها على تلك الحيلة.

أخبره طبيب قد يئس من الحالة أنها مريضة بأمراض لا تستجيب للعلاج، وأنها ربما تلازمها للأبد في هذا الوهن الشديد، أو تموت قريبا.

" كحة وبطنك بتوجعك مع بعض يا ماما كان مرض عجيب بصراحة" قال بابا يسخر.

"بس يا ابن الدايخة، أومال كنت هرجعه ازاي؟" وضربته بطرف المنشفة على كتفه حينما كان يطمئن على جرح في قدمها.

"طاب ضحكتي على أبويا وكنت عارف وشايف، لكن ضحكتي ع الحكيم ازاي؟" بابا.

"أهو بقى.. كل ما ادخل عليه، وأكون سابكاها على أبوك من بره، أفضل أكح أكح، واثبت على إن بطني بتوجعني، ومهما يدوني

دوا آخده وأقول ما اتحسنتش، يضغط بالراحة يضغط بالقوي أقول لهم بطني يا ناس بطني يا عالم" نضحك جميعنا لإعادة تمثيلها الكذبة.

"والله تلاقيه كان عارف إنها صلبطة، وانك عايزة ترجعي جوزك فقال يساعدك".. بابا

" والنبي ده كان يبقى دكتور بيفهم، وشاطر.. مش بياع برشام رخم زيك" جدتي

***

ارتدت جدتي ملابسها بسرعة، ووضعت شيئا على كتفي الفتاة. ألقت أمامها بحذاء من أحذيتها. "البسيه وحصليني" قالت.

أوقفتا حنطورا عند باب المحكمة المغلق المظلم، وقصدتا سوق الخواجات.

في وكالة جلالة قالت نفيسة نفس الكلام لجدي: "خالي عفت هايموِّت فهمي".

عندما مرا بوكالة مرعي كانت فارغة تقريبا إلا من عبد الله، الشقيق الأصغر لعفت، سأله جدي عن عفت فتصنع البراءة. دخل جدي الوكالة وفتح أبوابا خلفية لمخازن ملتصقة بالدكان فلم يجد أحدا، لحق به عبد الله ببطء غير مفزوع مما يفعل واستفسر عن سبب الاقتحام، فسأله جدي مجددا "أخوك فين؟"..

"ما تسأله هو" قال عبد الله.

"فهمي فين؟" جدي.

"ولا اعرف". ثم استدار وصرخ بنفيسة التي لازالت بجوار جدتي على الحنطور "بتعملي إيه عندك يا بنت الكلب"..

"رد على ابو صلاح الأول.. الواد فين؟" قالت جدتي ود.

صعد جدي إلى الحنطور "هو اللي خاربها.. مش هايقول حاجة".

على طريق سكة سندوب الطويل المعتم المترب كان جسد جدي يرتجف انفعالا أو برودة، طربوشه ثابت وزره يتأرجح يمينا ويسارا مع خطوات الحصان، فجأة أوقف الحنطور وقال لصاحبه: انتظر، نزل إلى حافة زراعة على طرفها شجرة جزوارين، تعلق بكامل جسده في فرع سميك مرتفع فيها، ظل متعلقا يتحرك حركة بين الأرض والهواء حتى كسر الفرع، نظفه من الفروع الأصغر والأوراق، صعد إلى الحنطور، وقال للسائق أن ينطلق.

عند باب جرن مكشوف سمع جدي صوت قراءات منتظمة القافية، وآيات وعيد. ضربات عصا أو سوط، بطيئة قوية، أنّة مكتومة سمعتها جدتي أيضا ونفيسة. قالت نفيسة: "مات يا خالة". كان جدي قد طرق الباب بعنف بذلك الفرع "عفت".. "عفت يا عبد الرزاق". توقفت الأصوات، "افتح الباب".. هلعت جدتي وكأنها أدركت للتو حجم المصيبة.

بحركة لا إرادية ربتت على ظهر سائق الحنطور وسألته باستعطاف رقيق أن يساعد جدي، فجمد الرجل مكانه، رفت عيناه وبدأ يُتأتئ بأعذار مبهمة. لم يكن جدي فعليا بحاجة إلى مساعدة، تسلق السور الطين ووقف فوقه، المشهد بالداخل رغم الظلام مريعا. نخلة، يتدلى منها شخص بالمقلوب، مربوط اليدين، معصوب العينين مكمم الفم، وحوله جماعة من الجلابيب وبدلة.

لم يكن أيضا بحاجة إلى الفرع لتفريقهم، فقد تفرقوا بمجرد أن هدد بأنه سيبلغ الحكمدار. صدقه عفت وبدا على وجهه الاهتمام، قلبه مملوء بالغل والشعور بالذنب جنبا إلى جنب، كل الامتلاء. قالت

جدتي إن جدي مصطفى صعد النخلة بمفرده، فك حبال الأشعل المعلق بها في الساقِ، ونزل به على كتفه. لم أصدقها، ورغم مأساوية القصة ضحكت، فغضبَت، وحتى أعيدها للحالة، وأنسيها ضحكتي سألتها لماذا فك الأسيرَ بمفرده، هل كان الجميع قد هرب فعلا، فقالت وقد تغيرت ملامحها تستعيد اللحظة: نعم، إلا عفت.

عفت ظل موجودا ليكابر ويتحدى كالعادة. حينما اكتشف جدي أن الولد لم يمت، طلب من الحنطور أن يتقدم، فك يدي وعيني فهمي ولفه بعبائته التي كان قد تركها في الحنطور منذ أن خرج من الوكالة، حمله على صدره كرضيع، وطلب من السائق أن يتلقفه حتى يصعد فيستلمه ثانية. أثناء وأمام وخلف كل هذا وقف عفت يهدد ويتوعد ويثبت نظرياته الجوفاء في الحياة بأنه "واصل" و"مطلع" و"عادل" و"عاقل" وأنه لن يترك في الأمور أمورا حتى ينال المجرمون عقابهم، وحتى يعلم الجميع من هو. كان جدي يهم بصعود الحنطور حين التفت لعفت وقال بهدوء مخيف "اخرس يا عفت، سيبت نفسك لاخواتك لعبوا بيك وجاي دلوقتي تدينا محاضرة عن مكانتك، يا خي اسفوخس عليك بني آدم غبي.." وصعد الحنطور.

"إنت اتجننت يا مصطفى؟" قال عفت بعنجهية بلغت قمتها. "طب ورحمة أبويا لأعرفك مقامك انت و.."، ثم انتبه إلى أن نفيسة في الحنطور فقال: "آاااا، يبقى انتي.."

نهاه جدي عن الغلط في حق البنت، وذكره بأنه أكل مالها، وخدّمها في بيته، ثم اعتدل في جلسته بجوار السائق وأخذ منه جسد فهمي، ذلك الذي يخور خوارا مؤلما كالذبيحة، أماكن الورم في جسده ووجهه انتفخت وتصلبت. عاد فالتفت جدي لنفيسة وسألها إن كانت ستعود في الحنطور مع جدتي أم تبقى مع خالها عفت، فاختارت أن

تعود مع جدتي، وقتها قال جدي بوضوح وجرأة لعفت: "ابعت للبت هدومها وورق ميراثها عندنا.. الصبح هنزل بيها بلد أبوها اشوف لها عم يتولى أمرها، مادام خالها طلع خِسِع".

هل كان يحق لجدي فعل ذلك؟ يقتحم جرنا (ملكية خاصة) ويهدد ويسب، يفصل بين رجل وابنة أخته، وينفذ الحكم أيضا؟ لو عرضت هذا المثال على أصدقاء محمود الذين يحيطون بي منذ رحيله، لقالوا: "فرقنا إيه عن البلطجية؟".. سيثرثرون حول الحق والواجب وحقوق الإنسان وماهية الكون، ثم يربطون الثقافة والفن والقهوة بكل ما سبق. هل يصح لكل مواطن يرى ظلما أن يرفعه بيده؟ أن يصوب الخطأ بأفعال تشبهه؟ لماذا لم يخرج من الجرن بهذا الجسد المنتهك إلى الشرطة فورا؟

في طريقه لبيتنا نادى جدي بصوت مرتفع على النادي: "أبوك فين؟" وكان يقف على أول الشارع، "ف ف ف الأوضة". "تطلع تجيبه ولو كان فوق أمك.. وعايز المجبراتي.. "

***

أولاد حابسة

أبو النادي، مكي أبو ستيت، أو الخَضْر أبو ستيت، كما يحب أن يسمي نفسه في الثلث الأخير من حياته. رجل أسمر بلهجة صعيدية قحة، جاء الحسينية بزي عسكري رسمي، بدون طربوش أو سلاح، لكن أحدا لم يتبين يوما ما هي طبيعة مهنته الحقيقية.

قال عم رِزق صاحب محل تصليح الأحذية، ومؤرخ الحسينية الأخير، أن الخَضْر من أنفار الهجانة الذين كانوا ينزلون القرى أيام الملك لتكديرها، ويساعد الحكومة على معاقبة الفلاحين وجمع الضرائب. من أين أتى بهذه المعلومة؟ قال: "أنا شوفت جسمه، عليه أثر كرابيج، العساكر دي لما تخالف تنجلد".

اقترح يحيِى ذات مرة على عم رزق تحديثا للقصة، أو تعديل، فربما كان الخَضْر سجينا، وليس نفر ميري، حاول الهرب من السجن، فضرب الحراس على رؤوسهم ليهرب من العذاب كما نرى في أفلام المغامرة، ثم ارتدى ملابس أحدهم وجاء إلى الحسينية. كان الافتراض خياليا مفرط الوهمية، ولكن عم رزق حك رأسه باهتمام وبدأ يفكر في الفرضية على أنها منطقية، ثم مع عدة فرضيات أخرى تسد ثقوب الفرض الأول غادرتهم لشعوري ببلاهة الموقف.

قال جدي مصطفى أن مكي أبو ستيت دخل الحسينية مسافرا على قدميه نهاية عشرينات القرن الماضي، مغبر الوجه جائعا، عيونه كعيون الصقر كما رأيته في حياته، أشاع أنه سيتزود ويكمل طريقه حيث وجهته، لكنه مكث. ربما كان عليه ثأر؟ أو يبحث عن قتيل؟ لماذا لم نفكر في ذلك يوم بحثنا في ماضيه؟

في الحسينية، الحي الكبير القديم الممتد من خط القطار وحتى شارع حسين بك قال الرجل عن نفسه إنه غفير قديم من خدم الفيوم، أرشد رؤسائه في بداية تاريخه الوظيفي إلى وكر لصوص خطرين فأوقع بهم جميعهم حتى زعيمهم، نَعمَت المدينة لأعوام بالأمان بفضله، فضله الذي لم تقدره المديرية كما ينبغي لا بترقية ولا مال معتبر، ريال واحد تقاضاه مكافأة على العملية، ووعدوه بمثله لو ظل بنفس الحماس وتكررت المعلومات.

حينما قضى زعيم العصابة مدة الحبس خرج أول ما خرج لينتقم من مكي، أرسل من صاحبوه وأغووه بقعدة "جوزة" دسوا فيها الحشيش، وجهزوا لوليمة كباب معتبرة. ملأ بطنه ورئتيه بالطعام والأنفاس حتى وقع مكانه يغط في نوم مظلم كالموت.

"ضربوك؟" سأل جدي.

لأ.. قمت مالاقيتش السلاح"، ثم ضحك بأسنانه السوداء وقال: "ولا الجوزة ".. "فطفشت".

بدت روايته لجدي وجيهة، خاصة وأنه قد أتانا في سن كبيرة تقارب الأربعين. عمل حارسا ليليا على دكاكين الحسينية، حمل عصا طويلة في البداية قبل أن يشتري "نبوتا"، يتمم على الأقفال والبوابات المغلقة، يتأكد من إحكام السلسلة حول عربة الفول التي لم يكن لها مكان في غرفة بائعه فوق السطوح. لم يكن يصرخ "مين هنااك" كما تقول السينما وإنما يخرج صوتا قويا من حلقه وصدره وكأنه يسعل أو يتنحنح، يمشط الشارع الطويل بمحاذاة سكة القطار بداية من مكان يدعى عزبة عقل وحتى جامع سيدي سعد الذي لا يبعد عن المختلط الكثير.. ثم ينام معظم النهار.

كان ظهور خالة حابسة معه في الحي بعد ذلك بعامين سببا في زيادة الأمان. الدور الكبيرة في الحسينية التي تشبه حصون الصحراء (وهي ليست كثيرة) لها حراسات خاصة، خفراء وعمال خصوص، يدفع صاحب القصر أجرتهم ويتكفل بمبيتهم وطعامهم مع أسرهم في أكواخ صغيرة أو غرف ملحقة خلف المبنى الرئيسي في الحديقة، أو في الأقبية، أو فوق الأسطح. على أن عم مكي أول من أسس لهذه المهنة بصورة هوائية منفردة، كرجل حر يدير أعماله ويتفاوض مع من يحتاج خدماته من الموظفين وأصحاب التجارات الصغيرة والمتوسطة التي سكنت أو اشتغلت بالحي.

كنا قد سمعنا عن فتوات شوارع أخرى في المنصورة، وإتاوات باهظة، وعصابات كانت مهنتها الأساسية النشل والسرقة المنظمة وبالإكراه، مركز قوتها التهديد، ادفع وإلا لن نحميك من الشيطان، لكن مع رحيل الملك ودخول عصر الجمهورية، ثم الحروب المتعاقبة، تغيرت الدنيا تماما، تلاشى الكثير من أساسيات الطبقية والألقاب التي درج عليها الناس، تغير الوعي، التعليم، الاقتصاد، ومن أهم خصائص ثورة يوليو أنها لم تأتِ بشكلها وأصواتها الخاصة فقط، إنما حفرت صورا نفسية عن الحياةَ في صدور الناس مناقضة لما نشأوا عليه في عهد المملكة. فعّلت مبادئها بخطابات ناصر اللاهبة، دمغت الناس، صبغتهم بلونها، فما أن تقول مصر حتى تقول ثورة، وما أن تقول يوليو حتى تغزوك نبرة ناصر.

تُليت تلك الفترة قصص كثيرة مثيرة للشفقة والإعجاب عن لصوصٍ وقتلة خرجوا من السجون للتطوع في الجيش أيام النكسة والاستنزاف. ولكن ما حدث في حالة مكي كان مختلفا على أصعدة متعددة، إذ ألقى مرساته الضخمة في الحي، خالة حابسة، ثم رحل. بعد أعوام عاد من إحدى سفراته بزوجة شقراء شابة، بضة وجاهلة،

على كتفها رضيع. ألقاها بجوار حابسة، وبعد أربعة أشهر تركهما ورحل. غاب هذه المرة أطول. عاد بعدها كدرويش أكثر منه خفيرا، أو أب وزوج.

خلال مدة استيطان حابسة في الحي أطلقت أبناءها البنين للعمل في كل مهنة متاحة مقابل أجرة من أقل ما يكون، علمتهم القناعة، والمراقبة والصمت.

"تعالى يا فلان.. والا انت اخوك؟" يقول صاحب العمل.

"مش هتفرق يا بيه.. آخد انهي شوال فيهم؟" يجيب الولد.

وهكذا، تعاملوا مع أهالي وقاطني الحي بطاعة وعملية، لا عن سلبية أو شعور بالسخرة. أدوا الأعمال بسلاسة وسرعة بلا حكايا متفاخرة كسولة كالتي اشتهر بها أبوهم في كل مناسبة تجمعه بمن لا يعرفه.

كانوا ستة، سُمْرا حسانا، ملامحهم منمقة بأنوف صغيرة، أفواه ليست ضيقة ولا متسعةِ تشبه نقش الفرعون المرسوم على ورقة الجنيه المصري قبل أن تُلغى. أسنانهم كبيرة بيضاء تلمع بحذر في ابتساماتهم القليلة، عيونهم واسعة شديدة البياض بندقية السواد، منحوت تحتها وجنات سهلة كوادي النيل تسترسل حتى أذقانهم المدببة أو العريضة بغمازة في منتصفها، كان إذا مشى الواحد فيهم خلف والده نقول يشبهه، وإذا سار أمام أمه نقول يشبهها، ثم اكتشفنا أن حابسة ومكي أبناء عمومة، جاؤوا من بلاد بعيييدة بعيييدة في أعمـــاق مصر.

كما لم يجادلوا أو يتذمروا حين يزيد حجم العمل أو تسوء طبيعته كما يفعل العمال من أهل القرى. لا دخل لهم بالمعارك والخلافات

التي تنشب في أماكن العمل، ولكنهم ليسوا جبناء أو متخلين عن حقوقهم، كانوا أقوياء الشخصية حَسَني التحمل، فكانوا مطلوبين.

هذا وقد حملت حابسة نبوتا كأبنائها وحرست بيتها والبيوت التي تليه طيلة غياب زوجها. فجمعوا حصيلة معارف وأموال لا بأس بها، واشتروا الدار التي كانوا فيها.

علمت أبنائها النوم القليل والتركيز على الهدف، كما أدركوا من تلقاء أنفسهم أن طريقة أبيهم في قضاء الوقت بين الفراش والتدخين لن تفضي إلى فلاح، فأطاعوا أمهم.

بعدها صار لقب حابسة في المنصورة (أم الرجالة).. وبيتها "بيت حابسة أم الرجالة".

لم أحضر تلك القصص إلا في النهايات، وتكفلت جدتي ودادة شوقة بقص الباقي. كان شعبان ينهر أمه كي لا تستسلم لغواية الانتقام من عم مكي باستعراض سيرته الشاذة أمامنا والسخرية منها. دادة شوقة هي الزوجة الشقراء البحراوية التي سلمها عم مكي لحابسة منذ عقود لترعاها، ورحل.

أفهمتها السيدة الصعيدية بطريقة أو بأخرى أن عليها كسب قوتها بالعمل في البيوت لتطعم طفلها، زوجهما لا يعمل إن كانت لم تلاحظ، أو تدقق في شروط الزواج، "والا إنتي من فينو جابك؟". لم تنس الفلاحة الخام هذه العبارة الجافة التي بدأت بها حياتها واستمرت لأعوام. لكن جدتي أكدت دائما في مواضع كثيرة أن حابسة التي يبست أنوثتها في خدمة الجميع نفعت الكل حتى شوقة.

"سيبك م الكُهن اللي في صوتها" قالت جدتي تقصد دادة شوقة. "حابسة صحيح ست كشرة وبوزها ناشف بس ما أهانتش شوقة، ولا أذتها. وربت عيالها يحترموا مرات أبوهم".

وفي حديث آخر: "بعتتها لبيوت الأصول مش اللمامة.. أنا لما دخلت بيت جلالة عروسة، كانت أم مصطفى بتعاملها زي بنت من بناتها..ما أهانش شوقة من الأول إلا جوازها من مكي".

عندما عاد أبو ستيت، والناس قد أوشكوا على نسيان أمره، كان قد أطال لحية خفيفة نظيفة، وزاد وزنه وامتلأ وجهه رغم الزهد الذي ادعاه. لبس جلبابا فلاحيا لا صعيديا كبقية أبنائه، وأخبر أسرته أنه استقام على الطريقة وأخذ العهد على شيخ ما. هو من أمره بالنظافة والنزاهة والعطر، وأسماه الخَضْر، فقد أخبره بأن قدره مثل نبي الله الصالح الذي طاف البلاد يهدي بمشيئة الله العباد يشرح صدور الضالين بحكمته تعالى في الناموس والابتلاء.

لكن ما أن جاءت عزيزة العالمة ذات يوم من طنطا إلى الحسينية "بصوتها الحياني" و"كلامها البجح"، وابنتهما "وردة"، حتى اكتشف الجميع أن الرجل ممثل قدير.

وكالعادة، بعد مشاجرات كلامية بين الرجل وطليقته الآرتيست، احتوت حابسة المعركة بحديث قصير، وصرفت طليقة زوجها. وضع مكي الطفلة تحت تصرف زوجته الأولى وقال: "شغليها، جوزيها، ابعتيها لاختها، أي حاجة".

نعم، فبعيدا عن هذا كله كانت أم الرجال قد ربت ابنة بِكر وزوّجتها في الصعيد قبل أن تأتي إلى المنصورة، يحلفون بقوتها وحسن تدبيرها كأمها تماما، أم ثانية لأخوتها حسبما تواترت الأخبار،

ترددوا عليها للتودد والمساعدة وطلب المعونة إن لزم الأمر، زوجها رجل طيب، وأبناءها بررة بأخوالهم.

أنهت حابسة الأم حياتها هناك، وكانت الابنة أيضا اسمها حابسة، زوجت أختها وإخوتها السبعة على يديها من بنات جنوبيات مليحات، حتى شعبان، الابن الأصغر لدادة شوقة.

ضاجع مكي شوقة مرة وهو شيخ كبير في غرفة الغسيل أعلى بيتنا، فحبلت في منتصف العام الذي كانوا يجهزون فيه لزواج أبي وأمي، هكذا أرّخوا للحدث حينما سألتهما (جدتي، ودادة) عن عمر شعبان. ولأن هدى تكبرني بعامين فقط، ولأن أمي ولدتها بعد عام من زواجها فإن شعبان يكبرني بثلاثة أعوام إلى أربعة.

***

زواج نفيسة

نظر مكي إلى جروح فهمي وصارت عيناه أكثر جحوظا من جحوظها الطبيعي، زم أنفه وهو يحاول فصل قميص الولد عن جسمه، وبدأ الأخير يصرخ. قالوا حمموه في مكانه وطهروا الخدوش السطحية بالمايكروكورم، قطب مكي الجروح العميقة بإبرة حياكة عادية غليظة، عقموها بالغلي، ولضموها بخيط سميك من أشغال جدتي، وباشروا العملية. لكن أبي قال: "لأ.. أنا فاكر كويس إننا نقلناه الحمام الأول، حطيناه على مشمع على الأرض وابو النادي دلق عليه توتيا وسبرتو لما شبع.. وبعدين خيطوه".

كان الموقف مريعا، وصرخات الألم لا تطاق. أخرج مكي شيئا من جيب الصديري ودسه تحت لسان المصاب، انتظر دقائق ثم واصل العمل.

"أفيون يا خِضْر؟" جدي.

فقال مكي (الخَضْر): "عشان الواد يا ابو عمو.. طول بالك علينا"، فسكت جدي.

المأساة الأكبر لم تكن جروح وكدمات وتخليص الجلد المسلوخ من الثياب، وإنما الخلع الذي فصل فخذ فهمي عن الحوض، وحينما عاد النادي بالمجبراتي بعد ساعة أو اثنتين من بدء العلاج لم يتمكن من إعادة العظم إلى مكانه بالضبط، ليس والمصاب يصرخ بهكذا بشاعة، وليس وقد ابتعدت كرة الفخذ كثيرا عن حُقِّها، فعاش فهمي يتذكر تلك الليلة، قضى بقية عمره "يزك برجله".

لو أنني رويت القصة لصحفنا الحالية فماذا أقول؟ شاب أوروبي ينجو من الاضطهاد والقتل في وطنه، ليجاهد للعيش في مصر أعرجا!

***

بكت نفيسة، تقفز من مكانها كلما سمعت صراخه، "أنا السبب.. ماكانش عايز يرجع لهم تاني".

أصيب صلاح بالهلع منذ دخل البيت منذ ساعة، "انتو من الأول كارهينه مش عارف ليه.. ربنا ياخدكم"، قالها للجميع.

دخل عفت، فطرده جدي، وأوصى به صلاح والنادي ومكي ليتأكدوا من خروجه، ثم كانت كلمة جدي النهائية: "ابعت ورق البنت وكل حاجتها وإلا هشيله زي ما هو وأروح المستشفى، وهم هناك يبلغوا المأمور بطريقتهم".

"تشهد عليا يا مصطفى؟" قال عفت.

"واشهد على أبويا.. طالما ضلالي، وحمار" أجاب جدي.

أمسك صلاح بتلابيب عفت وكور قبضته ليلكمه في وجهه، لكن النادي منعه، ووقف مكي في وجه عفت قائلا: "إمشي دلواكيتي يا باشمهندز.. الناس متكدرين، اللي عملته مش قليل".

فقال عفت: "حتى انت يا حشرة، يا حَرَّاس الجِيَف؟"

مكي: "وبعدين بقاااااااا.."

جدي: "عِفاااات.. بره".. "وزي ما قلتلك".

خرج الرجل يرغي ويزبد مفكرا في القصاص، مصرحا به، "انت آوي مجرم ف بيتك يا مصطفى.. بكرة يلدغك ف ضهرك زي ما عض إيدي اللي اتمدت له".

كان أخوة عفت قد جعلوا واحدا من عمالهم يبصم إيصالات استلام نقدية بقيمة أرباح نصيب عفت ونفيسة لثلاثة أشهر لاحقة، ثم سلفة بقيمة عام كامل، على أن الأشعل قد قبض المال كله. وقالوا إنها بصمة فهمي، لم يكن فهمي يبصم، بل يوقّع، فكيف جعلوه يبتلع الخدعة؟ حينما تأخر عن الرد حول إقناع عفت ببيع الأنصبة المذكورة، لجئوا للخطة البديلة. التزوير.

لم تكن السرقة هي ما غلّظت الحقد في قلب عفت حيث صدقهم وفقط، وإنما أيضا نصيحة أخوه الأصغر له: "جيبته لنا منين ده؟ الأبرص الشؤم، هو السبب ف موت ابنك لعلمك، وشه عليه غضب الله، طب احسبها كده؟"..

تناسى عفت أن جلال كان مريضا من قبل أن يخرج فهمي من بيت سلطان. نسي أيضا أن أخا زينب مات شابا في ريعان شبابه بنفس المرض. وماذا في ذلك؟ ومن يحكم بأنه نفس المرض؟ بل وقلب عفت المعروف لضده، فكّر: لهذا رضي الأشعل بالشقة المسكونة، والأجرة الزهيدة، والمحافظة على سر إبراهيم، ليقتلهم بتسلسل خفي، من داخل البيت، تساعده الخائنة نفيسة، التقته ليوزعا تركتي بينهما بعد نجاح المكيدة.

وبعد أن صفعه أمام الوكالة في تلك الليلة، توجه مباشرة والحزن والغضب يلتهمان كيانه إلى الشيخ فاروق. شهق الأخير وبسمل وحوقل واستغفر الله كثيرا، ونثر فوق وحول الجلسة رشرشات من ماء الشيح المغلي واللبان المُر، ثم قال: "لو كان الخبيث خد روح ابنك الأولاني، خلينا ننقذ التاني.. عندكم مكان بعيد؟"..

وهكذا تقرر ربط الأشعل في النخلة وضربه، حتى يخرج العفريت.

***

لم يجد مكي في بلد الشيخ عبد الراضي بيتا من أقاربه يصلح أن تنتقل إليه الفتاة، لم يخطئ أبوها حينما تركها في بيت جدها لأمها. ومع ذلك حرص جدي مصطفى كل الحرص على ألا تبقى نفيسة في بيته، وكانت جدتي "وِد" قد عادت لادعاء المرض بعد أيام من قصة ضرب فهمي، وزوجها مصدق أنها فعلا مريضة.

طرقت جدتي باب جدي للمرة الأولى منذ شهور، صوتها خفيض من الإعياء بالدرجة التي جعلت الشفقة تتحرك في عيني جدي بوضوح. مرتديا طقمه الداخلي المعروف، الكالسون القطن وفانيللته البيضاء ذات الأكمام، غضت طرفها وكأنها خجلة.

"أدوّر ضهري على ما تلبس جلابيتك؟ عايزاك ف كلمتين"

"ادخلي يا وِد، تدوري ضهرك ده إيه.. تعالي.."

جلست جدتي على الأريكة البلدي في مقابل سريره، لم ترفع عينيها في وجهه، وبدأت حديثها بالسؤال الغير متوقع: "أخبار أم الشريف إيه؟ حمد الله على سلامتها"، أم الشريف هي الجازية، حيث أن العرف جرى أن المرأة حين لا تنجب ينادونها باسم أبيها، كان جدي بين ممتعض وممتن، مرتاب لا يعرف سبب هذا المدخل.

"وانت أخبارك إيه يا سي مصطفى؟ لنا وقت ما اتسايرناش".

"مالك يا ود؟" نظر إلى وجهها الذي صار ناحلا هزيلا.

"سالمة طول ما حسك ف الدنيا"

"تعيشي يا حبيبة"

"حبيبة؟"

"أومال؟ مش أم الغاليين؟"

"تعيش يا مصطفى"

"ربنا يخليكي لهم.. وتفرحـــ.. "

"لا يا سي مصطفى ما بينلهاش فرح.. البركة فيك.. انا عارفة إن أيامي ف الدنيا مش كتير". جدتي في هذه العبارة ضغطت على أعصابه بعد أن مهدت بطراوة الزبد لهذه النقطة مدة أشهر.

"بس يا ود، بعيد الشر، هاتعيشي وتشيلي عيالهم، والواد صلاح هايجيب بت حلوة زيك ويسميها ود.. و.."

"مالوش لازمة الكلام أنا سمعت اللي الداكتور قاله"

"وانتي بتاخدي على كلام الحكما؟ إلا شوفتي يوم ما جيتو الوكالة وروحنا سندوب؟ والنعمة روحك عفية زي أول مرة شوفتك"

رفعت عينيها الدامعتين في وجهه وقالت: "لسه فاكر؟"

جلس إلى جوارها وقال: "ما بتروحيش من بالي أبدا".

"بس قسيت عليا" وعلا صوت بكائها ووتيرته.

"ما تزعليش مني.. قلبي كان واجعني على أمي.. وانتي.." صمت دقيقة ثم قال: "بليلة وامي ميتة يا ود؟".

نسيا ما جاءت جدتي من أجله، أن تقترح نقل نفيسة إلى بيت الحسينية مع الجازية.

علم جدي من داخله أن نفيسة لن تنال نصيبها من ميراث أمها، أمر لم يكن يأمل فيه كثيرا، وعلم أيضا أنه إن شفي فهمي من جروحه فقد ضاع وقت إثبات الجريمة على آل عبد الرزاق. هذا وأزمة عفت لا زالت قائمة، ابنه حالته سيئة، وكرامته وثروته الصغيرة على المحك. سينتقم، سيعرقل، سيدافع عن فعلته بأكاذيب تشبه الحقيقة، هذا لأنه لم يكن لوقتها يعرف أيّة حقيقة.

جاء اقتراح جدتي فيما بعد وقته المناسب. كان الوضع سيء من جميع الجهات، عفت لم يرسل متعلقات البنت، والعداوة بين الوكالتين أصبحت جلية بعد أن استمر عبد الله في إضرام الفتن بين أخوته وجدي باستمرار.

لم تتخذ زينب موقفا مخالفا لموقف زوجها، وكأنها انتهزت الفرصة لتعبر عن شعورها الدفين بالضيق من جدتي وكيف لم تعاود قراءة الفاتحة القديمة على ابنتها عواطف لصلاح مثلا. غاضبة من أن "وِد" آوت نفيسة واتبعتها في تخليص الأشعل، في حين أنها لم تسأل عن صحة إبراهيم قط. بل وأنها آوت الأشعل نفسه، الذي سرق قوت أولادها وثمن علاج ابنها العاجز. أضف إلى ذلك أنها كانت منذ جاورت جدتي ترى نفسها ابنة المنصورة الجميلة المتعلمة "خرجت من رابعة ابتدائي"، في حين أن أم صلاح المتعالية في ملبسها وكلامها وتصرفاتها بالكاد تملك بطاقة شخصية.

نقل جدي نفيسة إلى بيت الحسينية بعد شهر من إقامتها مع "وِد" في المختلط، لم تكن العلاقة بين الجازية ونفيسة وطيدة قبل ذلك، وازدادت برودة بقلة كلام نفيسة، وطبعها المتحفظ، وجسدها الجميل. كانت الجازية تعرف نفيسة الأم وتروي قصصا رائقة عنها للبنت

وتعدها بأن تزوجها بمعرفتها. ثم تركبها نوبات العصبية فجأة حين لا تستجيب نفيسة لتلك القصص، فتأمر الكل بالدخول إلى غرفهم، ساعتان، ثلاث، يتحسن مزاجها فتفك حبسهم، "خلاص..انتو هاتقضوا اليوم عندكم؟".

تعرفت نفيسة على الخدم القديم لأم مصطفى، وعلى خالة حابسة، وعلى سيدات من عائلات الحسينية ممن عاصرن أمها، مرت ببيت جدها عبد الرزاق مرة أو مرتين، تذكرت بصعوبة جدتها لأمها. شعرت بأن العالم أوسع وأقدم من المختلط، وأن بالدنيا نساءً أطيب قلبا وأكثر خبرة من زينب، الجو العام أصبح أقل تزمتا وروتينية مما كان عليه في بيت عفت، رغم إجماع الجميع على إن الجازية مجنونة، وأن علاجها الوحيد أن تنجب أو أن يعود مصطفى إلى معاشرتها.

هنا نشأت مشكلة أكبر حين رغب مصطفى في العدل بين زوجاته، فقد عاد للنوم مع "وِد"، لماذا يحرم الجازية؟ لكنه يخجل أن يضاجع الجازية ونفيسة في البَيت.

"البنت كبيرة.. فاهمة، والجازية فُضَحية، كل خبطة بصوت" قالت جدتي وهي تحكي تلك الحكاية.

"بس لما الصلح بينك وبين جدو كان سهل كده يا تيتة، إيه يصبرك سنتين ويزيد ع الخصام، ما حاولتيش من بدري ليه؟" أنا.

"كل شيء في الدنيا وله أوان" كانت تدلك ساقها غير المجروحة،"مش عارفة الحتة دي، بطلت أحس بيها ليه؟".. "أمك هاترجع م السفر امتى؟". تهربت جدتي من الإجابة، شق عليها أن تقول أنها انتظرته هو أن يصالحها، أن يعود نادما ليخبرها بأن الحياة من دونها ثقيلة وبلا نكهة. ولما لم يفعل، ادعت المرض علها تعجل

بتلك الخطوة، فعاملها بكرم جم لكن لم يعتذر. أضع نفسي موضعها أشعر أحيانا أنه محق، وأحيانا بأنه متجبر.

الخصام يجعل حاجزا شفافا سميكا بين المرء وزوجه، يمكنهما الرؤية ولا يمكنهما الاقتراب بالخير أو بالشر. شعرت بالغيرة حينما علمت بنيته، وإنما لا يمكنها محاسبته على عدله بينهن. مساحات العتاب وجبر الخاطر وحتى الشجار كانت ما تزال قليلة، البرودة سيدة المكان، وظنت جدتي أنها بالعودة لحضنه يمكنها التدخل أكثر فيما يخصه، بما في ذلك علاقته بضرتها، لكن من أول يوم اكتشفت أن تنفيذ هذا الظن صعب، بل محال. وعاد مصطفى لمضاجعة زوجته الأولى.

عادت دادة شوقة في أحد الأيام جزعة تقول: "حريقة يا ستي، حرييقة.. سيدي مصطفى ضرب ست جازية على خلقتها ييجي ست كفوف النهارده"..

"يا اختي بس ما تقوليش ست" جدتي

"نفيسة يا ستي.. أم الشريف بتغير منها على سيدي"، دادة شوقة.

ما حدث: تحممت نفيسة، وكانت بيضاء طويلة، عيونها ملونة، شعرها كستنائي محمر، ردفاها عظيمان، خصرها ونصفها العلوي ضيقان، لبست قميصا داخليا بلا أكمام من البافتة كما كانت تفعل معظم نساء المنصورة يومها، وضعت المنشفة على شعرها، حاولت تجفيفه وهي متجهة إلى غرفتها، رأت ذيل جلباب مصطفى يسرع إلى غرفة الجازية. فهرعت مفزوعة إلى غرفتها هي أيضا.

"ما شوفتش منها حاااجة، ما كنتش اعرف إنها هي أصلا". جدي وقد بدأ يصرخ في الجازية بعد نصف ساعة من الجدل والحساب.

"اللي يتخفي اسمها، عارفة معاد زيارتك، والخاتمة قاصداها" أجابت عليه الجازية. "وأنا عمالة اطبخ وانتف.. كانت ناقصة أم جلمبو دي كمان؟"

قالوا ربما وضع جدي يده على فم الجازية لأنها زامت بغير كلام بعد تلك العبارة وهو يقول "هوششششش، هوششششش".

سمعت نفيسة الكلام وتحسرت، شكت حياتها لله.

ضرب جدي عمة الجازية (كما كان يناديها أبي) لأنها سبته للمرة الألف خلال حياتهما الزوجية، لم تكن تتحكم بانفعالاتها في مواجهة الأمور التي لا تسير على هواها، بديعة الجمال، وابنة عائلة، وإنما أطفال في سن الرابعة يمكنهم السيطرة على أقوالهم أكثر منها.

ضاجعها وهي تبكي، ضربها بعنف، ولم يكن كفا واحدا، عاشرها عنوة، قذف مائه، ولم تقض غُلمتها. هكذا قالت. نهض عنها، تحمم، وقبل أن يخرج قال: "ما تستنينيش، ماعادش أعتِّب البيت ده تاني".

أرسلت تشتكي وتبكي وتنصب وسطاء وقضاة بينها وبين جدي لأسابيع، قالت إن موقفها محرج، تحب البنت وتحبه، والغيرة، والوحدة، وكرامتها، لكن أيا من أم جمالات أو الأفندي شاهين وأبوها لم يعودوا لها بما يشفي نارها، قال أبوها: "تعالي إلينا واتركي الأمر لله، يبدو أن زيجتك لن تستمر طويلا"، وفكر الرجل جديا في تزويج ابنته من أحد أقاربهم الكبار في السن والمكانة، علها تهابه فتخفف من تهورها، أو تنجب منه أطفالا. الفكرة أتتها بفكرة، لماذا تخسر مصطفى إن كان بالمقدور أن تزوج نفيسة وتتقي شرها؟

سافرت بها إلى حيث ديار أهلها، بمضاربهم وإبلهم وأغنامهم، وحيث للشاي طعوما أخرى قوية، مكثتا هناك شهرا ونصف، عرضت الصبية البكر على راغبي الزواج من منصورية جميلة، فيرفضها البعض للحفاظ على السلالة، ويتولاها البعض كزوجة ثالثة أو ثانية بعد أم الأولاد. لم تكن نفيسة تفهم في البداية، لكنها لم تكن مرتاحة، وحينما فطنت للأمر: "عايزة تجوزيني من خدم أهلك؟ شوفي شكل ضوافرهم؟ شمي ريحة هدومهم؟"..

"مالها ريحة هدومنا يا بت نفيسة؟"..

"يا خالة مش كده، ده انتي قلتي انك صاحبة أمي، بقى يرضيكي أتجوز راجل أفرك من على جلابيته زبل قبل ما انام جنبه؟".. "ما اتجوزتيش انتي منهم ليه؟"..

انتحت من الغرفة جانبا وضربت رأسها بكفيها ثم رفعتها للسماء وقالت: "بقى يا ربي أنا كان كل همي استلم فلوسي من أخوالي، دلوقتي لا نفسي ولا فلوسي؟"..."ضيعتيني.. هاترميني هنا وترجعي لجوزك فرحانة انك خلصتي مني.. منكم لله كلكم".

كانت المفاجأة الأكبر في اليوم التالي أن الشريف القيسي بعظيم قدره هو من تقدم لنفيسة للزواج.

في آخر ذلك النهار فكرت الجازية في أن سوء علاقتها بأمها، وهي الثالثة والأصغر بين زوجات الشريف، أهون من سوء علاقتها بمصطفى. في كل الأحوال زيجة كهذه عن ماذا ستسفر؟ من ستضر؟ إن أباها شيخا كبيرا لا يرجى من وراءه رجاء. ونفيسة، إن قبلت بالعرض، فقد أمهلها القيسي ثلاثة أيام للرد، ستكون فتاة ذكية، تحصد المال والمركز والزوج في ضربة واحدة، وتحل مشكلة عويصة، وإن رفضت فستعود بها إلى المنصورة وليفعل الله ما يريد.

ضحك عمي بشدة حينما سمع الخبر: "شوفوا البت بنت عبد الراضي.. يااعني أمي ومرات أبويا خافوا منها على أبويا.. قوم تتجوز خاله؟ هاها ها ها ها". اكتئب فهمي، وغادر الجلسة.

استقبل عفت الخبر بغيظ، تهجم على جدي في الوكالة. كيف زوّج البنت بغير وليّ؟ فقال جدي أنه لم يعلم بزواجها إلا يوم الزفاف، وكان من أهلها شهود وولي يصلح أن يزوّجها دون الرجوع لعائلة عبد الرزاق، وأخبره أنه لما علم بالأمر غضب غضبا شديدا ورغب في إخبار عفت لكن الظرف لم يسمح. فقال عفت بعجرفة ما معناه: "واستفدنا إيه؟" ثم دفع جدي أمامه حتى باب الوكالة حيث سيارة أجرة تقف أمامه، دفعة أخرى نحو السيارة فدخل جدي بغير اعتراض.

في أجوار الزقازيق كان بيت نفيسة الجديد من الحجر على جانب مجرى مائي صغير، الطيور تشقشق وهي عائدة إلى أعشاشها فوق الأشجار، البطات تنفض الماء عن ريشها، تتبعها فراخها. جزع حمار القيسي المربوط في الظل بجانب البيت حينما توقفت السيارة قربه، ثار الغبار في الجو فوقف جدي حتى يهدأ ثم طرق الباب. استقبل الشريف القيسي الباشمهندس عفت بجلباب ناعم من الساتان، وقبّل كفه. أجل، فبعد الحضن المفتعل والمصافحة الباردة انحنى العربي العجوز بظهر مستقيم سليم كوضع الصلاة على ظاهر كف عفت وقبّلها. وقال: "خال الدرة النفيسة.. سباقين بالخير.. غلبتونا بزين ربايتكم.. الشيخة ونعم الأصل والعفاف". الشيخة في هذا السياق هي نفيسة.

امتص الرجل غضب عفت في أقل من دقيقتين قبل أن ينطق الأخير بكلمة، وتجنب ثورة مصطفى المكتومة تحت مذلته، وأنقذه من معركة خاسرة مع الجميع ومع نفسه.

كان الشريف قد جاء إلى نفيسة ليلة الرد وأخبرها بأنه لا يسعى إلى مضاجعة بقدر ما يشتاق إلى عطفها عليه، يشرفه أن يقتني امرأة مثلها في بيته، وكان الشخص الأول في حياة البنت الذي يلقي على مسامعها كلاما طيبا، يعاملها معاملة إكبار، قبلت به بعد تفكير قليل، عاشت معه حياة رغدة مريحة حتى مات، ما فتئت تمدحه في كل فرصة بغير حرج، حتى عندما تزوجت بعده.

عاد عفت وبداخل وفوق السيارة الأجرة من اللحم الحي والمطبوخ والفاكهة والحبوب والمال ما جعله يتوقف عن التفكير في أي شيء. كان صامتا مصدوما ومبتهجا في نفس الوقت، جدي مصطفى أيضا كان مرهَقا قليل الحيلة يفكر في عواقب ما فعل، هل كان من الأفضل أن يترك فهمي يموت على أيديهم؟ أكان عفت سيقتله فعلا؟ ماذا لو أنهم ضربوه فقط ثم عالجوه ليعلموه درسا وقضي الأمر؟ لماذا تدخل وأنقذه؟ لماذا أخرج نفيسة من بيت خالها؟ وبهذه الطريقة؟

عاد بهذا الهم إلى جدتي

"شوري عليا".

" اللي حصل حصل يا سي مصطفى، والهرية ما منهاش منفعة، البت واتسترت أحسن سترة، لو قعدت ف بيت خالها عشر سنين كان هايسيبها تخلل جنبه. طمع ف فلوسها، وبردو ما كانتش هتطول جوازة عنب زي دي".. "والواد؟ فكرك كان عفت هايسيبه يعيش ع الدنيا لحظة واحدة وهو فاكر انه سبب موت ابنه لو مات؟ استغفر ربك.. كلنا عبيد المكتوب.. انت ما عملتش غير اللي طالبه نصيبهم ونصيبك".. "بسم الله بقى.. البسلة ظهرت وانت بتحبها"..

***

العودة لبيت سلطان

بقيت مشكلة عفت في عدم استطاعته استرداد ماله أو مال نفيسة من فهمي، حيث لم يزل على اعتقاده بأنه سرقها. التزم إخوته فيما بينهم بقطع المصروف الشهري عنه لعام كامل وفق الورق المزوّر للضغط في اتجاه البيع، ولكي لا تنفضح الكذبة. صحيح أن تلك الخسارة قد عوضها القيسي من جهة أخرى هدايا وطعام وأموال، إلا أن عفت لم ينس أن الأشعل سرقه، ومصطفى تستر عليه.

شُفيَ فهمي بعد أربعة أشهر من حادثة الضرب، كان وقتها يشق الطريق نحو عامه الواحد والعشرين، عاد ليفكر في مشروعه الخاص الذي عقد عليه العزم منذ عام أو أكثر، وأول قرار اتخذه في هذا الشأن هو أن يترك بيتنا. عارضه صلاح واستحلفه أن يبقى، لكنه كعادته لم يناقش ولم يترك المجال لأحد ليؤثر عليه، جمع ما كان يخصه ورحل.

عاد عفت ليتهجم على فهمي في مكان إقامته أو عمله ليستعيد المال، وكان فهمي قد عاد للسكن في بيت سلطان، حالة ساقه سيئة وبحاجة للمساعدة، رحب به صاحب البسبوسة ترحيبا شديدا ووقفت عائشة تنتظر ردة فعله، هل مازال يعتبرها أمه كالسابق؟ سيعاملها بجفاء؟ لم يعط الشاب للعودة شكلا خاصا، حياها بالكلام الهادئ الطيب وسأل عن سريره القديم في المخزن، فقالت: "هناك يا ابني زي ما هو".

بعد يومين طلب من سلطان مائتي قالب طوب وأعطاه ثمنهم، وقال: "اقفل الباب ده يا آبا"، يقصد الباب الذي بين المخزن والبيت،

"وافتح لي باب ع الشارع". ومع الوقت اقتطع من المخزن الجزء الذي فيه السرير، فبنى بنفسه جدارا بينه وبين المؤونة، وجعل فيه موضعا لباب، طلب من سلطان أن يقفله بالقفل، وأن يفتح لقسم المؤونة بابا من داخل البيت إن أراد، ولكن الرجل فضل أن يظل مدخل الخزين من غرفة فهمي.

غرفة فهمي، التي بقيت هكذا لأعوام مستقرة، شملت مكانا للفراش، والطهي، وفرنا لتسوية البسبوسة، وطاولة كبير لأغراض معيشية ومهنية متعددة، غير أن هذه الطاولة انقسمت لنصفين وأضيف لكل نصف منهما ساقان ليصبح كل نصف طاولة مستقلة، دخلت واحدة للدار عند عائشة ليذاكر عليها أبناء قمرية التي ترملت منذ خمسة أو ستة أو أعوام، فأفسحت مكانا في غرفة فهمي لسرير إضافي لرضا، الذي قرر مشاركة فهمي الغرفة الجديدة لأسباب مبهمة، إذ أن غرفته في بيت أبيه كانت متاحة وشاغرة.

لم ينس فهمي نفيسة، لم ينسَ أين هي وماذا تفعل، ومع ذلك لم يتمكن من الخلاص من حبها الكبير في قلبه، لم يشعر بأي امرأة تعرض له، يقارن بينها وبين أي فتاة يصادفها، جعلها في نفسه مقياسا للنساء بهذا الحجم من الشعور والتفكير، فعظّم ذلك لديه قدرها كل ليلة ويوم وساعة، في الصيف وفي الشتاء. كيف لا وهي ممنوعة، وبلادها بعيدة.

حين دخل عليهم عفت بجسده الضخم وشاربه الذي يخفي نصف وجهه تحت النظارة الطبية، لم يشعر فهمي بالخوف بقدر ما تنسم في كفه التي هزته في الهواء روائح نفيسة. أسرع سلطان وأبعد الرجل عن فهمي وزجره بضراوة، جاءت عائشة من داخل الدار أيضا حسيرة الرأس مبللة الملابس تشد الرجل من قفاه حتى يبتعد عن

زوجها والأشعل، دعت عليه بالشؤم والخراب كما ضيع حياة الولد بهذه العاهة. ثم انتهى الأمر بين سلطان وعفت وعائشة وبعض من تجمعوا من أهل سيدي يونس إلى مقولة سلطان: "ما سرقش، لو معاك ورق اسجنه".

كانت العبارة جهنمية، بل ورآها عفت حلا لكل الأطراف، سجن فهمي من البداية كان الخطوة الأصح، لماذا لم يقدم الأوراق للبوليس؟

على باب القسم تمسك عبد الله بذراع أخيه وحاول إيقافه.

"المأمور مش هايجيب لك حقك، هاودني، الواد فرتك اللي خده"

"أهو يبقى سجنه وبرد ناري"

"ما ضربناه يا ابو جلال وراح ف داهية وخلصنا منه"

وقف عفت في منتصف الممر المزدحم بالمجرمين والمعتدى عليهم "وفلوسي اللي راحت؟"

"استعوض ربنا بقى.. تعالى معايا واخواتك يراضوك"

كان عبد الله للنهاية يحاول منع الحقيقة من الظهور ولو بالتلويح برشوة أو مساعدة، لو علم عفت الصدق لما تورع عن مقاضاتهم أيضا. سيحصل البوليس على بصمات الكل: "ويروحوا كلهم ف حديد".

أرهقهم عفت في مفاوضات قيمة التعويض رغم رضاه عن مبدأ عودة الراتب، وتعجب لماذا يدفعون مالا سرقه لص؟ لماذا لا يأخذ الحق مجراه؟

"ما تقرفناش بقى، خد القرشين واتوكل على الله.." قال راجح، الأخ الأكبر لعفت. ثم نظر نحو عبد الله واستطرد: "إيه يا حبيبي، خلصونا"

" خلصونا؟" قال عفت، نظر لعبد الله: "في إيه؟".

"مفيش" عبد الله.

"أخوك بيكلمني كده ليه؟" عفت.

"بكلمك كده عشان انت عويل وهايف وعامل لنا فيها أفندي، لأ ونضارة وشراب وجزمة قال وبتفهم في شغل التجارة، ما تاخد الفلوس يا عفت وتورينا عرض كتافك خلينا نشوف أشغالنا.. ست سنين رخامة، ووروني الدفاتر ودخلوا الدفاتر وطلعوا الدفاتر.. مش عايز تحس على دمك.. جيبت لنا الأجرب ده كمان يبص ف لقمة عيشنا.. احنا خمسة يا سي المهندس.. عارف يعني ايه خمسة ف وكالة واحدة؟ هتبيع نصيبك انت والمخفية بنت نفيسة والا مالكوش فيها مليم؟"

وقف عفت مصعوقا لا يعلم أكانت الدنيا تدور من حوله أم أنه الذي يدور حولها؟ سقط مكانه مغشيا عليه.. نظر راجح إلى عبد الله: "استلم".

مات إبراهيم في تلك الليلة، واكتشف عفت حينما أفاق من غيبوبته بعدها بخمسة أيام أنه لم يحضر دفنة ابنه، وأنه لم يغسله أو يكفنه أو يودعه، قام بهذا مصطفى.

سبب الغيبوبة جلطة. وارتابوا في أنه قد يقضي بقية حياته نصف مشلول.

لماذا نتمادى في الركض خلف الحقيقة حتى نعجز؟ نمعن في ملاحقة الكدر حتى نموت؟

***

فصل مالوش اسم

جاءت حابسة إلى جدتي ود بطلب: "بإيدك تليني قلب المعلم على مراته"، تقصد جدي والجازية.

وافقتها جدتي. "واجب يا خالة، عنيا..".

شربتا القهوة وأكلتا حلوى بالملبن، واستأذنت السيدة. حاولت جدتي إبقاءها حتى موعد الغداء لكنها رفضت بحسم، كان الوشم على ذقنها أشد صرامة من سيف الجلاد.

على السلم ضربت الأرض بنبوتها وقالت: "يا سااااتر".

شوقة بالصدفة تهبط الدرج نحو شقة جدتي والتقت المرأتان، قالت حابسة: "كيفك يا شوقة"، فأجابت الأخيرة: "بخير يا حاجة، ازيك انتي وازاي نوارتكم الجديدة؟"، نظرت لها حابسة نظرة من عالم آخر، عمق سحيق بين تاريخين وحاضرين مختلفين. بهدوء معتق لا ابتسامة فيه ولا عبوس قالت حابسة: "بخير يا بتي"، "هنستنوكو بكرة يا الست أم صلاح". كانت تنادي جدتي بالألف واللام.

خرجت حابسة من باب بيت المختلط تسحب بخفة خلفها ذيل عباءتها السوداء الواسعة الطويلة، تضرب بعصاها الأرض، لا تسمع صوت حذائها ذي الأربطة كأحذية الرجال، مقفول من كل جانب، حين قالت شوقة: "كانت عايزة إيه البومة دي؟"

"بومة ليه؟ بتعزمني على طهور ابن ابنها في ليلة سبوع بنت التاني، بتقول هايعقدوا لهم على بعض وعايزانا نحضر المناسبة".

لم تكن جدتي تخبر شوقة بكل شيء، شوقة ضرة، والجازية ضرة، ومجاراة الأحقاد بين الجميع لن تجلب إلا المشاكل، ثم إن الجازية لن تتركها في حالها إلا إذا عاد مصطفى لفراشها.

في السبوع زغردت جدتي، ورقصت مع الصعيديات وهي تصفق معهن ببهجة. وتناولت الترمس والحلبة المنبتة والفول المنقوع في الماء المالح، شجعت الجازية على أن تفعل مثلها لكنها رفضت، آثرت الجلوس على كرسي منفرد وأخرجت ورقة مال النقوط وفردتها ثم طوتها ووضعتها في صدر جلباب حابسة أمام الجميع، فعادت جدتي وزغردت وقالت "مبارك يا ام الرجالة، وعقبى لك يا ام الشريف".

لم تركز جدتي كثيرا على تعبيرات وجه ويدي الجازية وإلا لأطاعت شيطانها فأكلتها بأسنانها حية، والشعور متبادل. لكن العنف والغرور لم يفيداها مع هذه الضرة من قبل. في نهاية الحفل خرجت الثلاث سيدات نحو باب الرجال حيث ينتظر جدي جدتي ود.

"أم الشريف عايزاك في حاجة مهمة يا سي مصطفى، ورحمة الغالية لتسمعها" قالت جدتي بابتسامة واسعة ونظرة بلا معنى.

كانت الجازية قبلها بدقيقة قد تسمرت في مكانها حينما رأت زوجها، وقفت تنتظر إشارته أو إعراضه، لم تترك جدتي مجالا للصد فتأبطت ذراع أم الرجالة وقالت: "ما تيجي تروّحيني يا خالة.. بدي اتمشى.. بلاش الحنطور".

عاد فهمي للعمل في وكالتنا، قال إنه بحاجة لمال أكثر مما يجنيه من بيع البسبوسة مع سلطان. فكان يبيع القماش بالنهار، وفي الليل يقف على ناصية الشارع المفضي إلى محطة القطار بعربة الحلويات. يبيع ما خبزته عائشة وقمرية بالنهار. وسلطان يبيع ما خبزه بنفسه

ليلا. ثم سألهم ذات ليلة بعد عودته من العمل: لماذا البسبوسة فقط؟ فقالوا: "ما بنعرفش نعمل غيرها".

سعى فهمي بعدها أن يجرب صنع الكنافة لكنها لم تكن جيدة. ثم حلويات الحليب تبعا للوصفات النظرية، البليلة والمهلبية، فكانت أفضل حالا. ثم في لحظة عبث أخرج الدقيق الأبيض والخميرة وخلطهما بالماء والملح ورشة سكر وقرر صنع الخبز الفرنسي، عجن الخليط بصبر وتفاؤل ثم شرع في تقطيع العجين.

فرد القطع المستديرة على الطاولة ثم برمها لتأخذ شكل عصي قصيرة غليظة. ساوى الأطراف المدببة بسكين البسبوسة، مقطعها يشبه الدوامة. أخرج الصاج القديم متآكل الحواف، المثقوب أحيانا، وفرش قاعه بطبقة رقيقة من الزيت، ووضع الأرغفة بانتظام. كانت لوسييل تدهن الصواني الكبيرة المستديرة زبدا، ترص القطع وتشرع في صنع صنف آخر حتى يرتفع العجين الأول، لكن فهمي لم يكن ينوي صنع شيء آخر، فنام.

ساعة الشروق هاجمته رائحة المخبوز الطازج، والجوع، والذكريات، فتح عينيه فإذا بسلطان محتارًا متحمسًا في وقت واحد. قال: "ده إيه ده؟" مندهشًا أيضا. ثم "وما عملناش بسبوسة يا ولاد" وانزعج. خبزت عائشة الصاج بعد الفجر..

استهلكوا اليوم يفكرون ماذا يفعلون بالاختراع الجديد؟ يبيعونه؟ يأكلونه؟ كيف يُحفظ، هل هو صنف حلو أم مالح؟ وإن باعوه فما اسمه؟ لم تمهلهم الصدفة الكثير من الوقت لاستنتاج أجوبة، مر طفل صغير حاف بجلباب واسع بالكاد يغطي ركبتيه، سرق رغيفا وهرب، أكل نصفه، وفي النصف الآخر حاصره الأولاد يحاولون خطفه، ثم جلب بكاؤه الدعاية المطلوبة.

باع فهمي وسلطان في اليوم التالي البسبوسة على العربة، وباعت قمرية الخبز في البيت، بعد أسبوع سألها أحد عابري السبيل أن يضع له في أحد الأرغفة شيئا من الجبن وسيرفع لها سعـــر الرغيف بمقدار النصف، فوافقت. بعد ذلك جاء دور المربى والبيض المسلوق.

ازدهرت تجارة الفينو شيئا فشيئا لكن ببطء، لم يكن الكل يستسيغ الخبز الجديد، كما أنه مرتفع الثمن بالنسبة للخبز البلدي، يُصنع من دقيق غالٍ بسبب عمليات طحنه وتكريره المختلفة، فإذا حصلوا على درجة البياض الأعلى أصبح اسمه دقيق فينو (نهائي) واحد، والدرجة الأقل فينو اثنين، ثم تبدأ درجات الدقيق الأقل بياضا، أسمر بدرجاته، وسِن، ونخالة.

ومع ذلك كان لهذا الخبز مريديه، أولهم مختار البيلي الذي كان يشتري ربع منتجهم اليومي تقريبا "يا أخي ما يتشبعش منه". أضف إليه نسبة لا بأس بها من شريحة الموظفين.

كانت فكرة البليلة قد أعجبت سلطان قبل حادث الخبز الفرنسي، فباع كميات بسيطة منها بالنهار بجوار البسبوسة، ثم أعرب فهمي عن رغبته في بيعها بالليل أيضا، ثم أصبحت مطلوبة تماما مثل البسبوسة خاصة في الشتاء. اضطر سلطان إلى إضافة قسم آخر إلى عربته يتسع لقدر القمح المطبوخ وقدر الحليب الساخن، وأطباق صغيرة للقرفة والزبيب وأحيانا مبشور جوز الهند والمكسرات. ثقل جر العربة على الرجل الكبير والشاب الأعرج، قامت مشاجرات صغيرة بين سلطان ورضا في محاولة الأب لجعل الأخير يعاونه "انت يا إما نايم يا بتتصرمح في الشوارع؟"

"يا با انا طالب علم، وبقيت في ابتدائية خلاص، ما تضيعش مستقبلي".

ثم كانت الضربة التي قصمت حجج رضا بعد تشكيك، بعث شيخه إلى بيتهم أحد الطلاب الكبار يسأل عنه: "له شهرين ما بيحضرش، امتحانه قرب، ولازم يِصِح المصحف على سيدنا الأول" قال لعائشة.

في تلك الليلة حينما كاد سلطان يفكك المقشة الجريد على جسم رضا لم يمنعه فهمي من ذلك، لم يحل بينهما، سمعه يصرخ، وسمع الأب يصرخ ولم يحرك ساكنا. فيما بعد حينما عاتبه رضا: "وما حوشتش أبويا عني ليه؟" قال فهمي: "وانت بتكذب ليه؟ احمد ربنا إن لك أب يضربك ويصرف عليك".

سلطان أيضا عاتبه: "سيبتني اضربه انتقام، ما حمتنيش من نفسي".

"ما رحمتوش انت ليه؟ ما راقبتوش قبلها ليه؟"

كان فهمي يتغير.

نجح عمي صلاح ذلك العام في البكالوريا بمجموع تقبله المدرسة العسكرية، وبدأ مختار يتجهّز للحاق بالباز. في العام التالي نال أبي البكالوريا بمجموع أهّله لصيدلة القاهرة، ونال رضا الشهادة الابتدائية الأزهرية بصعوبة، ثم قرر ترك التعليم نهائيا.

عارض جدي من خلفه جدتي "وِد" فكرة العسكرية من البداية، لكن عمي صلاح لم يكن ينتظر آرائهم في هذا الشأن. تقدم ضمن الجموع لاختبارات اللياقة فقبلوه، ثم ظهرت النتيجة النهائية في أكتوبر ١٩٥٣ فسلم نفسه للمدرسة في نهاية الشهر. استأجر شقة بمصر الجديدة قضى فيها الإجازات بعد مشاجرات مع جدي. بعد عامين اشترى له جدي شقة أكبر في بناية مجاورة بطلب منه، وتحولت حياة عمي صلاح مذ حينها إلى العاصمة حتى مات.

نهاية العام ٥٤ عرض المعلم دعبس فرنه للبيع، وكان الفرن الوحيد في سيدي يونس كلها. سمع فهمي الخبر فتحرك بداخله حراك بأنه يجب ألا تضيع الفرصة.

"بس ده بلدي وقديم. مدفون، الشارع أعلى منه بخمسة شبر، ما يلزمناش" قال المعلم سلطان.

لجأ فهمي لجدي، يريد شريكا يكمل مال الفرن حتى يضمن حصة فيه، فإذا جمع مال الشريك اشترى نصيبه منه، فأجابه جدي بأنه حتى بدون شراكة يمكن أن يقرضه المال، وليسدده بأجل معلوم دون فائدة. ثم تنبه إلى شيء.

"قولي الأول، انت طلعت بطاقة؟ يا شاهين أفندي" جدي..

"لأ مالوش بيع ولا شرا بدون بطاقة" قال الأفندي شاهين.

"بس معايا شهادة ميلاد" فهمي.

"وبلغت السن.. يبقى لازمن بطاقة" الأفندي.

سافر فهمي إلى القاهرة في إجازة قصيرة مفاجئة، مكث عند مختار ليلتين وكان الباز لتوه عائدا من سفر، فقد تبع مداحا إلى قنا، مولد السيد القنائي، وبقي هناك أسابيع طويلة، رغم أنها سنته الأخيرة في أصول الدين.

"ايه مخليك شايل طاجن ستك ومش عاوز تطلع بطاقة يا ابن الخواجات؟" سأل مختار.

" مش حاسس إني مسلم" فهمي.

صعق مختار. سأله إن كان يكره ديننا فقال لا، هل يشعر بأنه لا يزال مسيحيا؟ فقال أيضا لا، أدرك مختار أن فهمي لا يجد الله في

قلبه، وأن الأطراف التي حاولت وصله به بغضته إليه. على أحدهما، الله أو فهمي، أن يسعى للآخر، فوقف مختار في صلاته وقال: " اللهم اهد صاحبي إلى طريقك الحق بالطريقة التي تريد". لكنه في الصباح سأل فهمي سؤالا آخر: لو كانت نفيسة ما تزال في بيت عفت كما هي، هل كان ليتردد في موضوع الديانة؟" لم يجبه فهمي. فعاد مختار فقال: ولو كانت نصرانية أو يهودية أو من عباد البقر فهل سيدين بديانتها؟ أيضا لم يجبه.

في حوار آخر بينهما لم يعجب الباز، أراد أن ينقض على فهمي فيقول إن ديانتنا أفضل ديانات الأرض، ورسالتنا الحق، ورسولنا خاتم الأنبياء والمرسلين، الشفيع المشفع المكتوب اسمه على العرش، الـــ.. والـــ..، لكنه أمسك عن ذلك، لاعتبار فهمي حتى تلك اللحظة عربيا مزيفا، مسلم في الدفاتر فقط، المكان وأهواء سكانه غير مختلطين بروحه، ورقة سوليفان جديدة حين تنظر إليها لا تجد في رسمها شيئا، وترى عبرها كل الأشياء.

حضرهم وهو يتشاغل بتسليك حلقه بعبارات موسيقية هادئة ثم تنطلق حنجرته بصدح يحبه في نفسه، ولا يكترث له الآخرون، توقف عن التليين فجأة. على أخيه ألا يضيق على الأشعل بالأسئلة ليسلم حرجا منهما لا تصديقا. ثم وجّه حديثه لفهمي بحيادية لم تُعرَف إن كانت جدا أم هزلا قال: إن كان معيار حكمه على الدين امرأة يتزوجها، فالإسلام أفضل خيار، اثبت عليه ونزوجك اليهودية والنصرانية والهندوسية وبنات الجن ابتداءً من الغد.

فقال مختار: "بس يا باز"

"طب وهو أنا غلطت؟ مش دي الحقيقة؟ مش دي إجابة سؤالك؟". وارتفع صوته بعصبية في المقطع الأخير.

كان جدي قد أرسل الأفندي شاهين مرة واثنتين للمعلم دعبس ليفاوض على أمر الفرن، فوجد العدة متآكلة والمكان صغير حوائطه محترقة. فعاد إلى جدي يقول أن السعر خسارة فيه.

فقال جدي: "خلاص، اتقل عليه شوية".

بعد أسبوعين وافق دعبس على الرقم الذي حدده شاهين كثمن عادل للفرن.

عاد فهمي لعمله كما كان، فسأله جدي عن رحلته فلم يجبه بشيء مريح. كان مكتئبا عليلا، عرج ساقه يزيد من ظلمة الحياة في عينيه. لم يعد يريد شيئا، لا شيء يستحق السعي والتعب. انزعج جدي وأخبره بأنه حجز الفرن من دعبس بمبلغ كذا حتى يعود بالبطاقة، فقال: "حلال عليك يا معلم".

في الإجازة التالية لأبي بالمنصورة اصطحبه جدي لبيت سلطان، استقبلهما الرجل وزوجته وأهل بيته بما فيهم فهمي، وخيرهم بين أن يستمر الاقتراح كما كان عليه، أو أن يعيد بيعه لمن يريده ولو بتغيير نشاطه، تحركت قمرية في مكانها للأمام وقالت "أنا عايزة حصة ف الفرن يا حاج"، رآها أبي وهي تخلع أساورها وقرطها وقلادتها، تركت في إصبع يدها اليسرى دبلة زواجها، وضعت البقية أمام جدي واستطردت وهي تنظر لأبيها وأمها المتفاجآن: "عشان العيال"، فخلعت "عيشة" قرطها هي أيضا، وأحضرت من غرفتها منديلا به عملات ورقية مطوية بعناية لم يحدد أبي عددها، وقالت: "وانا كمان يا حاج".

لم تكن الحياة قد وصلت بعد إلى رأس فهمي الذي كان يتابع الحديث مطرقا، أيشتري بماله حصة معهم أم.. آاااا.. لا شيء؟ كانت مخيلته فارغة تماما من كل مستقبل، لكن سرعان ما رتب الأحداث، ما الذي دعاه لاقتراح فرن دعبس على الجميع من البداية؟ إنه يحب

الدقيق والعجين ورائحة النار وهي تحوله إلى صور أخرى مبهجة دافئة، مالحة أو حلوة، يحب استقبال الناس لها في جوع، انتظار واحتياج، يقدمه لهم مزينا مُبَهّرا، أبيض اللون، يشبهه. كما أنه الشيء الوحيد الذي تمكن من تشكيله حسب رغبته حتى الآن.

قام ففتح أزرار قميصه الخريفي، فك طبقات حزام عريض عن خصره، فك دعامات علامة إكس التي تتقاطع على ظهره فقفزت عن جنبه رزمة أوراق مطوية من فئة الخمسين قرشا، وخاتم نسائي من الفضة. أسرع رضا فتناولهم عن الأرض، فقال فهمي: "ادي الفلوس للأستاذ شهدي، وهات الخاتم". بين دهشة فوق دهشتهم نظروا لبعضهم ثم له، قال جدي لأبي: "عدهم" بعد ثوان قال أبي: "خمسين نُص"، أخذهم جدي دون استئذان وقال: "كده الفرن حلال عليكو".

كان التهامس بين سلطان وزوجته عقب الجلسة من نوع "خمسين نُص؟ ابن الأروبة، وبيقول خسر فلوس ف مصر، أومال كان معاه كام؟"، "الخاتم لمين؟"، "قمر؟".. "البت لسه بتعيط على فواز حرام عليك".. "بتاع أمه جايز؟".. "شوفتي النعمة اللي على وشِ مصطفى؟ النسوان يا بت".. "لم دورك يا سلطان".. "طب ما تيجي أقولك حاجة". وهكذا.

***

أسرار يسمعها الجميع

أصبحت مهمة أبي في اليوم التالي أن يذهب مع فهمي إلى السجل المدني. الاسم؟ فهمي حكيم هارون الأشعل، الديانة مسلم، العمر ٢٣ سنة، الموقف من التجنيد مُعفى، محل الإقامة المنصورة ٧ حارة توفيق - سيدي يونس، الوظيفة خباز، و"مُر علينا الأسبوع الجاي". هذه البطاقة لازالت بحوزتي.

سألني محمود ذات مرة: "لماذا لا تسألوننا عندما نبلغ الرشد أتحبون هذا الدين الذي اخترناه؟ أم تريدون تغييره؟" فأجبته بأنه قدر، "مثل لونك وطولك وعمرك ومن أي عرق أنت".

"لأ، انتو اللي عايزينه كده.. محمد وأصحابه قبل الإسلام كانوا مسلمين؟ ليه تقبلوا الناس تدخل الإسلام والعكس لأ؟"

"وهي يعني قريش سابتهم يسلموا كده ببساطة؟ عذبتهم وطردتهم من بيوتهم وبلادهم".. أنا

"بالزبط، زي ما بنعمل دلوقتي في اللي يسيب الإسلام. أو مش مسلم".. "زي هتلر لما حرق الناس عشان أي سبب تاني".. "زي أي حد ف أي حتة شايف نفسه الأهم والأقوى والأفضل".

"طيب عايز إيه دلوقتي؟"

"بناقشك"

"عشان؟"

" عايز اتكلم.. أقول رأيي"

"وبعدين؟"

"خانة الديانة مالهاش لازمة ف ورقنا"

"ماشي"

"....."

قام عم فهمي في بداية إسلامه وسط الجامع، ذات جمعة، وإمام مسجد الشيخ حسنين يهتف بمعجزات الله حول الإسراء والمعراج: "محمد ركب البراق وهو حيوان أسطوري (على عهدة الخطيب) بين البغل والفرس، نوراني، لا يسعى سعيا عاديا وإنما طار قبل اختراع الطائرة نحو حائط عتيق في مسجد يبعد آلاف الكيلومترات عن قرية محمد. يربطه ثم يقف إماما يصلي بكل الأنبياء السابقين". "هل كانوا أمواتا؟" "نعم" أجاب الخطيب، "وربما كان منهم أحياء لا يعلمهم إلا الله"، "لكن كان فيهم أموات؟" "أجل"، "حسنا من أين جاؤوا وكيف ولأي غرض؟" الإجابة: "غيبيات ليس علينا أن نسأل، فقط نؤمن بها، وإن لم نفعل فقد كفرنا، وأنكرنا ركنا عظيما معلوما من الدين بالضرورة"، فجلس فهمي.

ثم استمر الرجل يقول أن الرسول قد أعرج به إلى السماء صعودا بلا دابة، على جناح ملك، وقابل في كل سماء رسول كريم، ثم لقي ربه عند سدرة المنتهى وحكى قصة فرض الصلاة، ثم قال إنه عاد فهبط إلى حيث البراق فحل وثاقه وعاد به إلى مكة، وقف فهمي مرة أخرى وسأل الخطيب: "يا سيدي إن كنتم تؤمنون بأن الأحياء قاموا من قبورهم فصلوا خلف الرجل الأخير من رجال الله، وبأنه رآهم واحدا واحدا في السماء، وبأنه قد صعد ثم هبط وعاد لينام في فراشه في أقل من خمس أو ست ساعات، فلماذا ننفي إمكانية أن عيسى قد دفن ثم قام من قبره في قيامة مجيدة؟ من الأساس لماذا ننكر

أنه ابن الله وقد قلت إنه نفخ في فرج مريم في لحظة لم يكن هناك إلا الله ومريم ثم جاء عيسى، أنا لا أفهم". "ومريم التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا". استاء المصلون والخطيب، وقال: "لأن هذا كذب، كتابهم الحالي محرف، عيسى بشر" وسأله: "أأنت مسلم؟" فقال نعم، فقال مختار بسرعة: "لكنه حديث الإسلام ويحاول فهم دينه".

فأجابهم الشيخ بجزع وفجاجة: "كان فهم من الأول يا حبيبي، من قبل ما ينطق الشهادة ويقول بلسانه إنه يؤمن بمحمد ثم يأتي ليسخر منه، إنه لمنافق".

فقال الشيخ مختار: "لا والله يا سيدنا، هو بس اللي أسئلته كتيرة".

الخطيب: "صديقك مشكوك في دينه، اذهبوا ففقهوه فيه، وليُستتاب وليُراجع، وإلا فالهزأ بالدين ليس له جزاء إلا اللعن والنفي من الأرض".

"بقى تاخده للشيخ أبو حمدية يا مختار وعايزها تفوت بسلام؟ احمد ربنا إنكم فلتّم، وفهمي برضك يغيظ وأسئلته تفقع" الباز. ثم نصحه أن يصحبه إلى مشايخ أقل تكلفا في الخطابة يتحدثون عن أمور أقل جدلية.

في خطبة أخرى كانت في القاهرة عمد به مختار إلى مسجد بحي الظاهر، كان الشيخ قد أولى على نفسه شرح آي الكتاب على مراحل بدءا من البقرة، لكن فهمي لم يحضر من كل هذه التفاسير إلا شرح موقف النمل من سليمان في سورة النمل، والمردة، والهدهد، والخيل المسومة، ثم طفق مسحا بالسوق والأعناق. فقال الشيخ: "مسك رجليها قطّعها كلها. ليه؟ عشان فوتت عليه الصلاة"، فنفر فهمي، لماذا يلجأ نبي لتعذيب كائن بريء كالحصان لأن جماله ألهاه عن واجباته التعبدية؟ كان يكفي لو تبرع بها للفقراء، أو أطلقها في البرية حرة

تمرح. حين رفع يده ليسأل عن سر هذه الجريمة الشنعاء، وحكمة الله ونبيه السلطان فيها، قال الشيخ: "شششش، أرجوكم أرجوكم، استمعوا وانصتوا يرحمكم الله، "ومن قال السلام عليكم فقد لغى". ثم أكمل شرحه للآيات.

حين صارح فهمي صديقه بعد الصلاة بهذا النفور، قال مختار "انت مش حابب ديننا يا فهمي"

فقال فهمي: "ما هو ديني أنا كمان، أنا بس بدي أفهم"

"مش كل حاجة هتفهمها بعقلك، الدين محله القلب، افهمه بقلبك" مختار

"أفهم بقلبي إن الملك سليمان استعمل جبروته في قتل وتعذيب مئات الحيوانات عقوبة لنفسه على إن الصلاة فاتته" فهمي.

"أظن الشيخ غلطان، يمكن مسحا يعني مسح بكف إيده حنية ومحبة مش بالسيف، خليني أراجع المشايخ بكرة واقولك". مختار

"يبقى القرآن له معاني كتير مش شرط تفسير واحد" قال فهمي

"أي نعم" مختار.

"طب برضو مسح حب وحنية على رجول الخيل ليه؟ عشان فوتت عليه الصلاة؟" فهمي.

"يا فهمي يمكن ما فاتتوش" مختار.

"ولما كل حاجة ممكن، وكلام الخطيب مش بالضرورة صح وممنوع نسأل بنقعد له ليه؟" فهمي

"الجمعة صلاة مهمة، من غيرها لا يستقيم الدين" مختار.

"يا مختار السورة كلها معجزات نمل وطيور بتتكلم، وجن عبيد عند بني آدم، أومال بنلوم على المؤمنين بالأساطير واللي بيقدسوا القرود والتماسيح ليه؟ " فهمي.

"احنا ما بنعبدهمش" مختار

"بس بنقول عنهم سور نقراها في الصلاة" فهمي

"انت شاكك في ديننا، اطلع منه يا فهمي، هاتتعب وتتعبنا" مختار

بعد عقدين من إسلام فهمي لم يمنع عم فهمي يحيى من خوض الشعور الوليد بالحب لكينونة الرب مهما كان استيعابه العقلي لهذا الحب، لم يجادله، لم يخلق تلك الفراغات العقلية المميتة التي كان يخلخل بها فسيفساء صورة الدين في أدمغة أبي وعمي صلاح وأبناء البيلي، ترك يحيى يصحب أبي إلى صلاة الجمعة على عكسه هو الذي لم يجد من ذلك الطقس نفعا.

***

عاد فهمي من مشوار استخراج البطاقة ليجد قمرية تنظف الفرن بالفراشي الخشنة وأعواد القش المبتلة المطوية بحجم راحة اليد، يساعدها أولادها، فشمر عن ساقيه وذراعيه وساعدهم. رأى سلطان المنظر فدعا الله أن يجعله من نصيبها.

انطلق الفرن في عامه يبيع الخبز فترتين، الصباحية للخبز البلدي، والمسائية خفيفة للخبز الإفرنجي، أو الفينو. على أن رضا كان يساعد أباه على دفع عربة البسبوسة والبليلة في الصباح، وفهمي في الليل، مع عدم تركه العمل في وكالة جدي، الفعل الذي كان يثير غيرة رضا من وقت لآخر. يبيت في سرير قرب فهمي كل ليلة ويراه يعد نقودا كثيرة لا يراها في متناول أبيه، فأسر إلى أبيه ذات يوم

بهاجس خبيث، وهو أن يسرح أحدهما بالعربة مع فهمي ليلا ليراقبه، لأنه مرتاب في أنه يسرقهما.

كان لفهمي ثلث الفرن بالعدل المستقيم، خمس وعشرون جنيها منه، وأخرى من قمرية وأولادها، والثالثة من سلطان وزوجته، وتلك هي الحصة التي كان لرضا النفوذ من خلالها. لم يراجع نفسه ساعة عدل في أن فهمي قد آمن لهم على حمايته هو شخصيا، وفي أن أكبر ماله، ثلث الفرن، أمانة لديهم طيلة الليل ولم يشعر بخيانة، لكن رضا غرير يحاول استغلال عطف والديه وسمعته كطالب علم شرعي قديم لطرد فهمي من الصورة، أو الحد من شراكته إن أمكن. هل كان فهمي يعلم؟

بعد شهور وكان شتاء آخر قد حل، تعب سلطان من مرافقة فهمي في الليل، مع تأكده من أنه لا يسرق، الربح مستمر ويزيد. في حال أن عائد الصباح من بيع البسبوسة ينقص، رضا لا يستيقظ مبكرا، لا يعامل الزبائن بمرونة، رفع سعر بعض الأصناف فهجرتها الناس. هذا وقد كان فهمي رأى نقودا كثيرة بين أغراض رضا لم يكن ماهرًا في إخفاءها وإنما يظن أنه ماهر، فأدرك فهمي أن هذا اليافع سيتعب والديه، وسيسرقه هو أيضا يوما ما.

في الصباح نقل فهمي ماله من مكانه إلى يد جدتي "وِد". لماذا جدتي؟ لم يسأل أحد هذا السؤال، ولا حتى أنا. قالوا فقطَ إنه كان حزينا وهو يسلمها مدخراته، وأخبرها أنه ربما سيترك بيت سلطان قريبًا.

حكوا أيضا أن ذات عَشاء، بعد أن نقل فهمي ماله من غرفته لبيتنا، وكانت العادة أنه يتناول معهم تلك الوجبة، سأل إن كان أحدهم يريد بيع حصته من الفرن فيشتريها منه، فانزعج الجميع. فسأل: ولا

أحد يريد أن يشتري منه؟ فقال رضا: "أنا". نظر له أبوه باستغراب وقال: "انت إيه؟ معاك تلاتين جنيه؟ تمَن منابه النهارده تلاتين جنيه". فقال رضا: "تلاتين إيه؟ هم سبعة اللي معايا، ياخدهم ويبصم على الورق، وكل أربع شهور أدي له زيهم". ازداد اتساع عيني سلطان، وكأنه فوجئ بأن ولده يمتلك سبعة جنيهات، بل ويمكنه ادخارها كل ثلاثة أو أربعة أشهر. لم يكن هدف فهمي هو البيع فعلا وإنما إلقاء حجر في البركة، ليعلم ولتعلم كل سمكة في هذا البيت حجمها وطموحها.

***

زينب

استقر وضع عفت على أن يتقاضى الشهرية القديمة من إخوته، انتهى عهد "رايح الوكالة، راجع من الوكالة"، أصبح قعيد بيته. صرفته مصلحة مياه الشرب بعد إجازات مرضية عدة على ذمة معاش مبكر، ذلك الذي لم يصل حجمه إلى نصف الراتب. ومع ذلك ألزمت زينب أخوة عفت بعلاجه، هددتهم بفضيحة لها أول ليس لها آخر، عائلة قنديل التي منها زوج ابنتها أمينة لو علموا بما فعل أبناء مرعي بالأشعل وعفت لهدد ذلك سمعتهم كتجّار. نعم، في ذلك الوقت كان الناس ما يزالون يتعاملون بالكلمة والأخلاق والسمعات لدعم المصالح.

إضافة لذلك فالشريف القيسي تكفل بطعامهم تقريبا عبر نفيسة، تزورهم يومين بطعام شهر. وفي إحدى الزيارات أرسل عفت إلى فهمي يريده.

كانت حالة عواطف تتدهور إلى الحد الذي يجعل أمها تنظفها وتبدل ملابسها وتمشطها، ثم تطعمها فوق مقعد في الصالة، تتركها هناك حتى تقارب الشمس على المغيب في الصيف، فتساعدها على الجلوس قليلا في الشرفة. ولا تنسى أن تمر عليها كل ساعتين أو أقل لتدخلها الحمام. عمرها يكبر، عدسات نظارتها تزداد سماكة، جميلة مبتسمة طوال الوقت، تراقب المارة وأهل البيت ولا تنتبه أو تستجيب لشيء، يزداد وزنها وثقل لسانها، وتحب العطر، تتعطر بنفسها طوال الوقت من قنينة صغيرة في جيبها، ما أن يلامس السائل الزيتي ذو الرائحة النفاذة عنقها وخلف أذنها حتى تضحك، تستنشق الهواء بنهم

وسرعة، ثم تعود فتمسح يديها بهذا السائل، تغلق القنينة، تدسها في ملابسها، وتطمئن كل دقيقتين على أنها موجودة. كانت نفيسة إذا جاءت لزيارتهم تقضي معظم وقتها مع عواطف لتتجنب خالها وزوجته، كان الشجار بينهما يزداد جنونا وبذاءة كلما مرت بهم الأيام، هو يبدأ السباب وهي ترد عليه، ينتهي العراك بأن يلقي خالها بما تطاله يديه أرضا، طعام، أكواب، جريدة، وسائد. نصف جسده بالطول يتحرك بشكل سليم والآخر أكثر بطئا وعجزا، له عين ثابتة في محجرها والأخرى مائلة، زواية فم لا يسيطر عليها في الكلام والأكل، لكنه يتكلم في النهاية، وكلامه مفهوم.

ضرب زينب يوما بحزام أخفاه خلف ظهره وهو جالس مكانه. بيّتَ النية، وكانت طريقته أن يضايقها فإن ردت عليه الإهانة بمثلها، ضربها قبل أن تسرع وتبتعد عن نطاق يده. بالطبع لا يمكنه اللحاق بها، لكنه يكون قد ضربها ضربتين موجعتين أو ثلاثة تتأوه لها بألم فيشفى هذا غليله. أزعجه منذ مرضه أنها تجرأت على الرد عليه، وأن معظم إنفاق البيت صار بيدها، وأنه لا يمكنه خدمة نفسه، ومن ضمنها عدم اكتمال شعائر تزينه وتأنقه والتباهي برجولته القوية بالطريقة التي اعتاد عليها. هذا مع عدم وقوفها وإصغائها بأدب وإعجاب بحديثه الفخم كما السابق، حيث أصبحت تقول: "بس بالراحة بس، أنا مش عايزاك تجهد نفسك"، غير عابئة بأن هذا الإجهاد هو أحب الحياة إليه.

يوم الحزام وقعت أول ضربتين على ظهر وجنب زينب فصرخت، قفزت مبتعدة عن مجلسه وقالت فيما معناه أنه مؤكد فقد عقله، وقف يحاول الركض خلفها ليوهمها بقوته، وكأنه سيكمل ما بدأه، لكنها كانت أسرع، خرجت من الغرفة مندفعة وأغلقت الباب خلفها بالمفتاح، حبسته. كان هذا اليوم تحولا كبيرا في حياتنا كلنا.

"طاااق، طالق، طاالق"، هذا ما قاله عفت وهو ملقى على الأرض يغالب وزنه محاولا النهوض بمفرده، وباب الغرفة موصد عليه.

كلمة طلاق سهلة، رجل يضحي فجأة بعشرة قوامها ربع قرن مثلا لأنه يريد الانتقام من الدنيا في جسد زوَجته باعتباره الطرف الأضعف، فلما اكتشف العكس عمد إلى الطلاق لكسرها.

قالت زينب لجدتي حينما هربت إليها ذلك اليوم وهي تبكي: "شوفي؟ شوفي يا ود" ورفعت جلبابها حتى رقبتها لترى جدتي العلامات الحُمْر على جلدها. "ميت له عيلين؟ طب ما هم ضنايا أنا كمان، خرجوا من لحمي، بقوا يدبلوا في حضني ساعة ورا التانية بعد ما بقوا رجالة طولي.. أنا بتقطع أكتر منه ولا حدش داري بيا".. ولم تأت على ذكر عواطف التي كنا نرثي لها أكثر من رثائنا لأبويها، كانتَ تراها سليمة جميلة مستعدة للزواج في أي لحظة.

حينما فتح جدي مصطفى الباب على عفت كان قد نجح في النهوض عن الأرض والاستلقاء بالعرض في سريره على نحو عشوائي، أنفاسه غير مضبوطة يحدق بالسقف، وقال جدي، بعد أعوام حين مات عفت، إن عفت ذلك اليوم كان يبكي، وحين شعر بجدي يدخل عليه حاول رفع جذعه ومعاودة الإمساك بالحزام، لكن جدي طوقه بذارعيه، وساعده على الجلوس معتدلاً في فراشه. قالت جدتي إن جدي حينما عاد من هناك كان محسورًا، وحينما اختلى بنفسه بكى فعلا. ثم قال لجدتي حينما دافعت عن زينب لتقنعه بأن عفت ليس ضحية: "حزن النسوان بيزيدهم صبر ومناطحة في الزمن، بس كسر الراجل موت".

طلبت جدتي من دادة شوقة أن تراعي بيت عفت حتى تعود زينب من عند أهلها، مؤكد سيردها بعد أسبوع؟ شهر؟ سنة؟ لكن

عفت أرسل في طلب موظف رسمي يبلغه بطلاقه لهذه المرأة طلاقا بائنا.

واظبت شوقة على الاعتناء بالبيت والشقة، لكن تضررت من خدمة عواطف وأبيها خدمة شخصية. "يا ستي راجل كبير هدخل معاه الحمام إزاي؟".. وفي مناسبة أخرى: "البت تخينة، على ما بشدها عن كرسيها بتقطم ضهري، وغبية، ما بتفهمنيش".

هذه الغبية لم تتوقف عن البكاء على أمها ليل نهار، تميز قدوم أبيها من صوته وأنين الخشب تحت دحرجة عجلات كرسيه الثقيل فتتوقف عن البكاء لكن ما أن يقع بصرها على وجهه تقول: "أنا عايزة ماما".

زارت أمينة أمها زينب ببيت أهلها مرتين ثم حولت الزيارة إلى بيت أبيها لترعاه بطلب من أمها، فزارتهم مرتين في الأسبوع في البداية، ثم كل أسبوع مرة، ثم صارت مرة كل شهر بمساعدة دادة شوقة. عام كامل مر على الجميع بصعوبة شديدة. وذات يوم أطلق مكي رفضه في وجه جدي صراحة: "شوقة ماعادتش تخدم ف بيت عفت يا معلم.. البجح لمس دَنَبها، والا نسيبوها لكم عمرانة؟ آه، أنا أعرف كيف أصون حريمي".

"دنبها" يعني مؤخرتها، ولكن عفت لم يفعل، جميعنا يعلم أنه لم يفعل، شوقة استقرت مع نفسها على أنه لن ينهي هذه القضية المعلقة في خدمة بيتين إلا زوجها، هو من سيقف في وجه ود ومصطفى بوضوح ليقول "لأ"، فلتمنحه إذن سببا قويا يساعده على رفع هذا الرفض لمستوى لا مراجعة فيه، "حسيت بإيده.. إهيء إهيء إهيء". والكُهْن صنعة شوقة كما قالت دائما جدتي.

عجزت أمينة عن خدمة أبيها وأختها بمفردها، فلجأ عفت لخدم عدة من الرجال والنساء تنتهي الأمور معهم في كل مرة بمشكلة لا

يمكن حلها، أهمها عدم الارتياح لكشف العورات على جنس مختلف، السرقة، ارتفاع الأجور، الاستغفال، قلة النظافة. قال جدي إن عفت حينما كُسِرَت ساق عواطف بكي على صوت ألمها وقال: "وزينب بنت الكلب اتلككت ومشيت، ما اتحملتش مرضي"، فأجابته نفيسة: "اتحملت والله يا خال بس انت فرَّطت فيها".

كان عفت قد حاول في تجربة يائسة أن يساعد عواطف على النهوض من كرسيها ودخول الحمام، لكنه فشل، فبالت مكانها، تناثر البول حول الكرسي الخيزران في الشرفة والكرسي المتحرك وعلى الأرض وملابس عفت، هاج وصفع البنت وهو يشتم: "خنزيرة، كلبة"، جذبها من ملابسها بقوة فنهضت نصف نهوض ثم زلت قدمها في الماء فوقعت، في أي حركة من تلك حدث الكسر؟ لم يشرح لي أحد ممن زامنوا الحدث أي شيء، كُسِرَت ساق الفتاة وهذه خلاصة الموضوع.

تركت "ود" زوجها في السيارة الأجرة تلك الظهيرة، ودخلت بيت أهل زينب علَى نية أن تعود بها إلى لبيت عفت. رفض الأخ في البداية، وكان محقا، عفت لم يحضر لاستعادتها، ولا حتى واحد من إخوته، فقالت جدتي: "مصطفى بره أهو مستني إذنك.. ومصطفى لعفت أكتر من اخواته"، فقال الرجل على مضض: "خلوه يدخل".

دخل جدي، وبقي حال الرجل على مضض حتى أعدت شقيقته حقيبتها وهمّت بمرافقة الغريبين، أمسك بذراعها بهدوء وفـــــي عينيه عتاب أخير ثم قال: "أنا مش راضي عن خرجتـــك دي، بس هاسكت عشان بنتك، قلت لك نجيبها هنا، إنما إنتي ليكـــي كيف ترجعي المختلط.. إعرفي كمان إنه مش جوزك.. ما يجيش يمّك يا زينب".

حينما دخلت زينب بيتها بعد عام وبضعة أشهر من الغياب بكت، لم تعد رائحتها في المكان، لم يكن الأثاث بالترتيب الذي تحبه، وحتى عفت انتقل بسريره إلى الغرفة التي على الشارع ذات الشرفة، ووضع عواطف في التي كانت الصالون، وبقيت غرفة النوم الرئيسة التي مات على فراشها الولدان في نهاية الشقة كما هي تطل على الحديقة الخلفية. رأى عفت طليقته فدخل غرفته وأغلق الباب على نفسه، وقال لمصطفى: "هي هنا لبنتها، تطبخ لها اللقمة وتغسل الهدمة، ومالهاش دعوة بيا". فوافق الجميع.

لكن زينب عادت بعد مدة وبكت حينما زارتها جدتي ذات عيد وأهدتها جلبابين جديدين وقالت: "خدامة بلقمتي، بقى يعني مش لو كان جلال لسه عايش كان زمانه هو اللي جايب لي الجلابيتين".

***

جلال.. فهمي

لم يستوعب فهمي في البداية مقصد الرجل، تبني؟

فقال عفت: "هايبقى لك بيت وعيلة، أب وأم.. نسب معروف، وورث".

خرج من غرفة عفت فوجد زينب قرب نفيسة على أريكة جانبية في الصالة، توقفتا عن الكلام حتى يمر نحو باب الشقة وهما تبتسمان، عواطف بساقها الممدة في الجبس، ابتسمت وبلا أي مقدمات قالت: "نفيسة حامل.. هاتجيب لنا نونو".

دارت الدنيا بفهمي دورة كبيرة، وقبل أن تقف كانت زينب تنهر ابنتها بغير شدة "عيب يا بنت"، في حين ضحكت نفيسة ضحكة صغيرة صافية في وجه فهمي: "ازيك يا سي فهمي، لكم وحشة والله".

التوى الشارع أمام عينيه وهو يتلمس طريقه نحو سيدي يونس، تشابهت الحارات وظن أنه تاه عن بيت سلطان. حامل؟ حسنا، ولماذا يغضب؟ سؤال جعله يقف أمام باب غرفته ولا يدخل، اكتشف أن حبه لنفيسة مازال حيا، وفوق ذلك هي مسئولة في نفسه عن ذنب ساقه المخلوعة، وضياعه في مصر بلا سفينة أو شاطئ، وديانته وهويته عقدها على جهتها، رغم أنه غير متثبت منها أو من نفيسة. وضع المفتاح في القفل ثم عاد فأخرجه، استدار نحو باب الدار الرئيسة والتي غالبا ما تكون نصف مفتوحة طوال اليوم، وجد قمرية في الصالة ترتق شيئا بإبرة على ضوء مصباح كهربائي ضعيف، من حولها أبنائها يكتبون في كراسات سميكة الورق. جلس إلى جوارها

بهدوء وقال: "انتي صحيح مش هتتجوزي تاني بعد فواز؟". قبل أن يترك فرصة لارتباكها أن يمنعه من طلبه استطرد: "أنا عايز اتقدم لك.. توافقي؟".

طار الخبر في ثانية إلى سلطان وعائشة فجاءوا ينظرونهم. تركت قمرية بنطال ابنها والإبرة مغروسة فيه على الأريكة، أسرعت إلى غرفتها وأغلقت الباب. نهض فهمي عن مكانه يحاول العودة إلى غرفته من الخارج، فاستوقفه سلطان متهللا: "سيبك منها، هتوافق".

لم يكن وجه فهمي يدل على شيء، لا غضب لا مفاجأة لا فرح. عائشة تطرق باب قمرية تسألها الرد أو لتدخل لها، لا يهم، خرج فهمي من الدار إلى غرفته، أغلق بابه وبدأ في تبديل ملابسه وهو يعلم أن الليلة كبيسة، لم يشعر بأنه تهور، ارتباطه بقمرية ظل خيارًا خفيا في رأسه طوال الوقت، امرأة قريبة يشعر نحوها بعاطفة، ربما ليس حبًا بالمعنى الناري الذي يحمله لنفيسة، لكنها في كل الأحوال شاطئ رحب توفر منذ مجيئه إلى هنا وهو من أولاه ظهره.

لم ينتظر عفت رد فهمي كما اتفقا، أرسل في السر إلى موظف السجلات والمحامي الذي يسلك له الطريق. محا الأول بيانات وفاة جلال ابن عفت من القيد المدني بالمنصورة، وكلف الأمر رشوة كبيرة ليحدث المحو نفسه في أرشيف القاهرة. خطوة جريئة في نظري لرجل جبان مثل عفت. لكنه فعل. لقد نشأتُ على أن اسم يحيى على كراسات المدرسة هو "يحيى جلال عفت عبد الرزاق". وحينما سألت أبي وجدتي، ثم يحيى نفسه، لفك اللبس، يرددون الإجابة بهدوء وثقة: "عمك فهمي في البطاقة اسمه جلال".

أعد الموظف والمحامي أوراقا رسمية لشخص يستخرج بطاقة لأول مرة، باسم جلال الذي عاد للحياة الآن. سأل موظف السجل

عفت هل هو متأكد أن فهمي لم يستخرج ببصمة يده بطاقة من قبل؟ فيجيب عفت: ولماذا أقدم اسمي لشاب له أهل وهوية؟

هل كان يعلم عفت أن لفهمي صفة رسمية فعلا في الحكومة ببطاقة هوية وشهادة ميلاد أم لم يكن؟ تضاربت الأقوال، قال عمي صلاح إنه كان على علم تام بوضع فهمي، لكنه لينقذ حياته وماله وبناته لعب تلك اللعبة التي رآها عمي حقيرة حتى النهاية. أبي أيضا قال إن ما حدث غير قانوني، وحرام، لكن ما الفائدة؟ فهمي من الأصل مجهول الهوية، إن ما صنعوه له من أوراق أولى كان ملفقا أيضا، ملأوا الخانات بالتخمين والتأليف وختموا بأصابعهم على أقوال وتواريخ لم تحدث، لم يكن أبو فهمي الحقيقي مسلما ولا مصريا، وأنا في شك من أن فهمي نفسه يعرفه، فلماذا لا يكون هذا الأب عفت؟

قال جدي حين علم بالأمر: "وماله لما يشتري له ضهر زي فهمي، عفت انكسر وبيته اتخرب، وأنا شايف إن ده كان حل كويس لهم الاتنين".

كانت قمرية بعد نوم البيت قد فتحت بابها بهدوء وخرجت، فتحت باب البيت الكبير، لفت شالا حول كتفيها ونصف رأسها وطرقت باب فهمي. رضا وقد ثقل بعد العشاء نام مكانه على أريكة ببيت أبيه، فتح فهمي الباب ووقف أمام قمرية ينتظر ما جاءت لأجله.

يقول يحيى إن من ضمن الاحتمالات التي فكر فيها عم فهمي حين رآها بوجه مرتعد أنها ستكون مجددا سببا في أن يترك البيت، ستسأله بحق الشهامة والجدعنة أن يخرج من حياتهم خاصة وأنه كان يعرف مدى حبها لزوجها الراحل وإخلاصها لأبنائه. لكنها دخلت الغرفة بهدوء وسألته أن يغلق الباب عليهما فلم يفعل. أخرجت من حضنها من بين الشال وملابسها كيسا من القماش الأبيض المطرز

صنعته من مناديل عرسها بعد موت فواز. قلبته في حجرها فخرجت منه صورا بالأبيض والأسود وأوراق كثيرة. ألقت حياتها في باحته، وبكت بهدوء. أخبرته أنها إن رفضته فستتحول حياتها في دار أبيها إلى منطقة قريبة من الجحيم، كما أنها ترتاح لشراكته معهم لتضمن أن رضا لن يطمع في نصيب أبنائها من الفرن. مستقبلها بعد رفضه لن يكون سعيدا على أية حال، ذاك لرغبة أبيها في مصاهرته، ولرغبتها القديمة أيضا، وحينما اندهش فهمي اندهشت هي الأخرى، وسألته ألم يبارك لها عن طريق رضا منذ أعوام على زواجها من غيره بعد أن عرضت نفسها عليه، عن طريق رضا أيضا؟ فنفى. أيا منهما لم يكن ناقما على رضا لهذا الموقف، لقد تبدل الوضع، فهمي لم يكن ليتزوج قمرية في تلك الأيام، وقمرية لم تندم يوما على زواجها من فواز.

أدخلتها تلك القصة إلى صفقتها التي جاءت من أجلها "احنا هنتجوز يا سي فهمي، بس ع الورق، صحيح ما يحقليش أطلب حاجة زي كده" وبدأت في بكاء أشد من سابقه ثم قالت من بينه في خجل: "أنا مش هقدر أتكشف على راجل من بعده، انت مش عارف.. والله يا سي فهمي كأني لسه بنام معاه". سحبت طرف شالها نحو وجهها غطته، رشفت وجففت سوائل أنفها ودموعها، ثم انتبهت لتربيتة فهمي على ركبتها وقال: "ما تقلقيش، أنا موافق".

على هذا القرار الذي اعتبرته مريحا، باتت قمرية قريرة العين، هي التي بكت ليلة زواجها من فواز لأنها تحب فهمي، بكت الليلة لأنها تحب فوازا وتفتقده. تقلبت في فراشها نظرت لوجوه صغارها فشعرت بأن الرحلة لا تزال طويلة.

في الصباح لم يطق سلطان صبرا حينما أخبرته ابنته بأنها موافقة على الزواج من فهمي، ذهب فحجز موعدا عند المأذون ليعقد لهما، أعلم أخواتها وأخوها والمحيطين من أهل الحي بالخبر، ثم أمر

أحد صبيان المقهى المجاور أن يأتي بعشرين كرسيا من دار الفراشة المشهورة بسيدي يونس ليحضر الجميع العقد، تحقيقا للإشهار، ثَم قال لفهمي: "وانت بقى اعزم أصحابك".

فوجئ فهمي بأن عقد القران سيتم اليوم، لكنه لم يعارض، بل يمكننا أن نقول: لقد كان سعيدا، ولم يدعُ أحدًا من أصحابه، لم يهتم، إنها خطوة كان يتخيلها دائما تحدث في خصوصية شديدة بأقل جلبة ممكنة، في النهاية قمرية هي الهدف وليس كل هؤلاء.

الوحيد الذي كان صريحا عنيفا في رفضه لذاك الزواج هو رضا. لأسباب كثيرة لم يحب مصاهرة فهمي، وطفق يذكر والده بأنه سيزوج ابنته لرجل أمهق أعرج مجهول الأصل غريب الأطوار، ليس من حقه أن يملك نصيبا في فرن ولا بيت ولا أن يطمع في بناتهم، من أي مصيبة جاء هذا الأشعل؟ قال، وخرج من البيت ولم يعد إلا في اليوم التالي. ظهر تأفف بقية الأخوات من هذا الزواج ولكن بطرق أخبث وأسوأ بعد شهور.

صلى الشيخ العصر ثم عقد لفهمي على قمرية زوجة على سنة الله وحبيبه المصطفى، على مذهب الإمام أبي حنيفة، حلالا تطيعه وترعى الله فيه وفي بيته، يأمرها فتلبي، وينهاها فتستمع.

كان فهمي مبتسما تترنح وصايا الزيجة في رأسه، ويحاول رغم الزحام والتهاني مراجعة ما حدث ولو بذهن مشوش، ذاك حينما جاءه رسول عفت يطلبه. تلكأ فهمي دقائق ثم لم يملك إلا أن يستأذن سلطان ويصحب الرجل. في بيت عفت وقف شخص مهيب ببدلة ربيعية من الكتان ذات أكمام نصفية، كان شديد اللهجة غليظ الصوت قال: "ابصم هنا"، "وهنا"..

سأل فهمي ما هذا، ما هذه الأوراق، لكن عفت بتركيز جراح أنهى قراءة آخر ورقة وأخفض رأسه قليلا خلف نظارة القراءة ليرى عيني فهمي وقال: "أبصم بس"، فقال فهمي: " أنا بوقع". نظر له شخص أخر قصير نحيل وجهه قمحي وملامحه رفيعة، كان يضع نظارة قراءة هو أيضا، منهمك في كتابة أشياء على ورق فارغ، رفع نظره نحو فهمي وقال "بتوقع؟ باسم مين؟ وبتوقع على إيه"

تذكر فهمي أنه فعليا لم يوقع على شيء حتى الآن سوى وثيقة زواجه من قمرية، فوثيقة الفرن بَصَمَ عليها، لكنه أرجأ الكلام، فقال: "بوقع بفهمي الأشعل"

ضحك الرجل ذو البدلة والصوت العريض ضحكة قصيرة سخيفة وقال: "أشعل إيه بس؟ شهرتك ف الخواجات؟ ركز معانا يا ابني.. انت دلوقتي جلال عفت عبد الرزاق مرعي، وهتوقع هنا جلال مرعي".

كان في الصباح فهمي حكيم هارون، لديه بطاقة معتمدة موثقة تزوج بها قمرية، وفي الليل أمسى جلال عفت عبد الرزاق مرعي. هل وافق؟ اعترض؟ أدرك ما يحدث؟ استسهل؟ الأمور عبثية.

"بُصي، عفت كانت دماغه جزمة، فهمي اعترض أو ما اعترضش كان هاينفذ طالما ملاقي الموظف اللي يسمع له، والمحامي اللي ينفذ" فيما بعد قال لي ذلك عمي صلاح.

جلس فهمي مع عفت على انفراد بعد رحيل الرجلين، ثم ارتفع صوت عفت بحنق وهو يوبخه: "يخرب بيتك، اتجوزت؟"، ولم يكن زواج فهمي عموما، أو من قمرية خصوصا، هي مشكلة عفت، بقدر ما كانت مشكلته في وثيقة الزواج تلك ستسجل في محكمة الأحوال

الشخصية، وتنتقل المعلومات منها إلى السجل المدني بنفس البصمة، قال عفت بعدما أخفض صوته مضطرا. لعلمه بأهمية إخفاء الحدث:

"يعني أنا دلوقتي لو عايز الدولة تنسى اسمك القديم في البطاقة، بقى كمان مطلوب أغير اسم حضرتك في قسيمة جوازك ع الغندورة بنت سلطان، صدقني أنا الغلطان، انت مش وش نعمة".

عاد فهمي لغرفته وهو غير عابئ بما فعل عفت أو قال، للمرة الأولى لا يهتم لأحد، لا يحزن لمشكلة وشيكة، لا يفرح بغنيمة سهلة. نظر في وجه قمرية، وللغرفة المرتبة المزينة من حولهما، غمره شعور بثقة غامضة، أسرة المرء هي المرساة التي تثبت قاربه في النهر، ملاءات السرير جديدة، الغطاء نظيف، الطعام والشراب، سألها: "هو كده خلاص؟ بقينا أجواز؟" فقالت قمرية: "آه، أنا مش بنت بنوت لفستان وزفة، هنأجل لإيه؟ فرشتك اتوضبت وحمامك موجود، هو ده الجواز عند الناس".

نظر لها نظرة رضا، بدل ثيابه في الحمام، وعاد فأكل شيئا يسيرا من طعام الفرح وهو شارد. استلقى على الأريكة المقابلة للسرير، حملق في سقف الغرفة كما يفعل كل ليلة، ونام. تركها تفعل ما يحلو لها من تبديل ثياب أو تحضير مكان لملابسها في الخزانة، إطفاء الضوء أو إشعاله، انسحب من الصورة كي تهيئها زوجته كيفما شاءت.

رأى في حلمه أنه يصل من سفر إلى محطة صغيرة ذات بناء من الخشب، وضع رحاله، وأسند ظهره على عامود فيها ثم فزع خوفا من أن يتزحزح ذلك العامود عن مكانه حينما يصل القطار، فينهار المبنى على رأسه، لكن العامود كان متينا، فصمد، رحل القطار، وجاءه رجل من أقصى اليمين يسعى، يشبه ألفريدو، أخبره بأنه في

أمان، وأن ليس كل المباني البسيطة ضعيفة، بالعكس هناك قصور من رخام أوهن من الخشب في هزة زلزال.

في الصباح وجدها صبوحة مغتسلة، أخذت الفطور من أمها وأيقظته، أكلا ووقف بجوار الخزانة عند أعرض جدار في الغرفة، نادى زوجته وأبعد الخزانة والجدار، وضع يدها في جيب خفي في القفطان القديم المعلق بشماعة سلك خلف الخزانة. ثم سحبها. ثم وضعها في نفس المسلك مرة ومرة حتى علمت المكان بالتحديد ثم قال: "كل ما توصل فلوس الجيب ده لخمسة جنيه نروح نحطهم عند الست أم صلاح.. احنا مش هنفضل هنا كتير"، اندهشت قمرية وبقيت صامتة، لكن عيونها ضحكت في النهاية.

بعد شهرين أخذت بنات عائشة في تبكيت أمهن على هذه الزيجة "العرّة"، فبعد أن كانت أرملة فواز، الشهيد البطل، أصبحت زوجة الأشَعل؟ لم يعجب عائشة الكلام، أقفلت هذا الباب ذات يوم بأن منعتهن من مناقشة الموضوع وإلا فلن تستقبلهن. بعد أسابيع طرق بابهم بضع رجال من أهل فواز بصحبة أمه، "عايزين ولادنا"..

توسلت قمرية لحماتها القديمة ألا تحرمها من أطفالها، لكن الحماة كان بها من الغضب والحسرة ما أعمى عيونها وقلبها عن أي رجاء.

قالت عائشة: "ولو اتجوزت يا ست أم فواز ما انا موجودة، العيال معايا انا ف بيتي.. بالأصول".

"أصول؟ إن بنت ابني تتكشف على جوز أمها داخل خارج عليكو؟" أم فواز.

"وهو يعني غريب؟ انتو داخلين علينا وهو معانا من سنين" عائشة.

"وأهو اتجوزها وولاد الحلال فتحوا عنينا على النوايا" أم فواز.

همت قمرية بقول شيء آخر فيه مذلة عل قلب المرأة يرأف بها، لكن فهمي منعها من الكلام بإشارة واضحة وقال لأم فواز أنها محقة، بل وطلب من سعد ابن قمرية أن يستعد للرحيل مع جدته لأبيه هو وأخته.

استغرب الجميع وأول من نطق هو رضا قال: "إتفضلي.. أهو باع عيالك في أول مفرق.."، لم يكمل قوله حيث أسكتته صرخة من أبيه، الذي حاول مجددا إثناء السيدة الفلاحة عن رغبتها في انتزاع الطفلين الباكيين من حضن أمهما، لكن فهمي بنفس الإصرار الأول الذي منع به زوجته عن التوسل، أوقف سلطان عن الاستجداء قائلا: "حقها يا جماعة.. سيبوها تاخدهم". نظرت له قمرية في عتاب ناقم من بين الدموع الغزيرة، فاحتضنها لأول مرة في تاريخ زواجهما، قبّل جبينها، وهمهم في أذنها: "والله هارجعهم تاني.. بس اسمعي كلامي".

لم تهدأ قمرية بالمعنى الحرفي للهدوء لكنها صبرت، قامت فعادت إلى غرفتهما، ووقف فهمي حتى ركب الولدان السيارة الأجرة مع جدتهما، مسح على رأس كل منهما ولوح بيده للوداع ولم يعطهما أو يدع سلطان يعطيهما مال.

كان الشهر التالي شهرا عاصفا، زوجة لا تكف عن النواح، أحوال عمل سيئة وصعبة، لم يشتر سلطان مواد خام جديدة، لا عمل مستمر، لا معاملة حسنة من أهل البيت، ساقه تؤلمه أكثر من المعتاد، زد على ذلك أنه ترك العمل في وكالة جدي، وكارثة تبنيه من عفت. هل عليه الآن أن يبلغ الحكومة بما حدث ويسلم البطاقة والشهادة

القدامى ويستبدل اسمه في كل الجهات على هذا الأساس؟ هل هو فعلا يريد أن يكون ابن تلك العائلة؟

كان يأسره أن قمرية كانت تبيت في حضنه كطفل حزين كل ليلة، دعته في المرة الأولى يوم رحيل أطفالها أن ينتقل إلى السرير وهي تبكي، ففعل، ثم لم يعد الأمر مستغربا، صارا يبيتان في فراش واحد لا رغبة لأحدهما في جسد الآخر وإنما في رحمته.

ذات حيرة قصد عم فهمي الأفندي شاهين ليفتيه في أمر تغيير الاسم في البطاقة ففاجئه بحجم المصيبة: "فيها سجن..تزوير ورشوة وانتحال شخصية يروحوا كلهم في حديد، عفت ومحاميه والموظف وفهمي". ثم قال إن هناك حل من اثنين، لو أن ورق التزوير لم يُختم بعد، يمزقوه، وليكتب الأملاك باسم الأشعل، أمانة للبنات، إن كان الغرض هو حفظ البيت والمال من أن يرثه معهم أخوة عفت. لكن غرض عفت لم يكن البيع والشراء وضمان حفظ المال بوريث ذكر، وإنما أن يرى جلال حيًا، أن يظل اسم عفت عبد الرزاق وسيرته حيين بعد مماته، وأن يكون هذا الوريث قادرًا على انتزاع المال المسلوب، بما فيهم نصيب نفيسة، الذي اكتشف فهمي فيما بعد أن عفت لم يبعه أبدا لأبناء عبد الرزاق، ويكبر يوما بعد يوم.

والحل الثاني هو أن ينسى فهمي شهادة ميلاده وأوراق ثبوته الأولى تماما كأنها لم تكن، وأن يبدأ في اعتماد صفته الجديدة في كل مكان وعلى كل الأوراق حتى ينسى الناس أنفسهم من كان فهمي الأشعل. "والله حتى الحكومة هتنساه، كل يوم بيتردم ع الدفاتر القديمة بدفاتر جديدة، مواليد زي الرز، إلا إذا حد بَلّغ، ساعتها ينبشوا وراه"، قال الأفندي شاهين محدثًا جدي مصطفى الذي حضر السر، وعليه فقد نصحه جدي بالخيار الثاني على أن يمشي داخل الحائط لا بجواره، "وربنا يسترها معاك يا ابني".

رد فعل أخوة عفت هو ما حيرني على الدوام. لم يستنكروا ما فعله أخوهم، أو ربما استنكروا ثم اختاروا اللا حرب. في كل الأحوال لم يضايقهم فهمي بصفته الجديدة حتى مات، وحتى مات يحيى أيضا. أسهم عفت ونفيسة في وكالة مرعي إلى الآن لا أعرف إلى من آلت. كما أنهم لم يروا يوما بيت المختلط لُقطة أو غنيمة، وهو كل ما مَلَك عفت. كما كانوا مايزالون يتشاءمون منه منذ سجن أبيهم ومرض إيقان، انتحار الموظف الكبير، ثم ليلة عفاريت فهمي.

***

سعد وعايدة

وقف رضا بعدائية في وجه فهمي ذات ظهيرة وألقى في وجهه القسط الأخير من الثلاثين جنيه التي كان متفقا عليها ليشتري حصته، فأخذهم فهمي وقال: "لسه باقي اتنين جنيه"

"نعم يا خويا؟" رضا

"أيوه.... نصيبي النهارده اتنين وتلاتين.. ولو زودت كلمة كمان هعملهم أربعة وتلاتين، آخد فلوسك ومش هكتبه لك بردو" فهمي

"تصدق أنا كنت عارف انك طماع ووسخ" رضا

"بقوا أربعة وتلاتين" فهمي

"يا واطي يا اجرب، انت ناسي يالا انت كنت داخل علينا شكلك ايه؟" رضا

كانا قد وصلا إلى مرحلة التشابك بالأيدي حينما اندفع سلطان إلى الفرن منزعجا مما رأي، جرح ابنته برحيل أطفالها يؤلمه، موقف فهمي الغامض من هذا الأمر يحيره ويثير ضغينته، حرص فهمي على المال بات واضحا، قمرية التي أصبحت طوع أمره بلا عقل أو حيلة تزعجه، كان سلطان نفسه يشعر بالغضب مثل ولده ولكن لم يفصح.

"سيبه يا ولا.. واد يا رضا.. هتقتله وتروح ف داهية يا بهيم" سلطان

كان فهمي يشعر مسبقا بما يغلي في صدورهم، لكنه لم يختر الهجوم، ثبت حتى النهاية على هدوئه وقال: "انت خايف عليه هو بقى"، فقال سلطان: "عليكم انتم الاتنين.. جتكو القرف" ثم استدار وعاد للمنزل.

في المساء كان سلطان يخبر ولده بحقيقة أن نصيب فهمي فعلا قد وصل إلى الخمسة وثلاثين، وبأن عاما ونصف من اتفاقهم الأول هو وقت كبير كاف لنقضه.

"دا إحنا آويناه وجوزناه بلاش" قال رضا.

فقالت عائشة: "اسكت كده وانت أهطل، يا اخويا بس حصله، ده إحنا ما تعبناش ولا صرفنا عليه قدك، ومع ذلك مؤدب وملحلح وقرشه بيزيد، تعرف دافع مهر لاختك كام؟".

"مالوش لازمة الكلام ده يا عيشة.. أهو أول ما.." قال سلطان، ثم قطع حديثهم طرق على الباب، دخل فهمي البيت أول ما دخل بساقه العرجاء وقال لرضا دون مقدمات، "الحبر معاك؟" لم يفهم رضا الكلام في البداية، وضع فهمي الورقة المكتوبة بالأزرق والأسود أمام سلطان وزوجته يشهدهما وكانا أميّيْن، وقال لرضا: "تعالى إمضي وابصم على نصيبك الجديد في الفرن".

كان رضا سعيدا سعادة لا توصف بعدما وقع باسمه وختم ببصمته العقد وجعل والده يبصم عليه، لكن هذه الفرحة لم تحيَ لدقيقة تالية، إذ دقق رضا في العقد فرأى في خانة البائع اسم أخته قمرية، هي من باعت نصيبها لأهلها لا فهمي.

زاد الغموض في قلب سلطان ولعبت به الظنون، فهمي إذن كما قال رضا ليس سهلا، ولا أمينا أو محبا لهم. لماذا جعل البنت تبيع نصيبها من حطام الدنيا وهي أول من أراد امتلاك حصة فيه؟

حاولت عائشة تخفيف الأمر على زوجها فقالت: "يمكن حامل يا أبو رضا وعايزة تضمن حق ولاد فواز بعيد عن حياتها الجديدة".

تقدم رضا بسرعة نحو والده يريد جذب العقد وتمزيقه، لكن سلطان سحبه في الوقت المناسب وأخفاه خلفه ثم سأل فهمي: "صحيح اللي بتقوله أم رضا؟ والا انت غصبتها على البيع ده؟"

فكانت إجابة فهمي المختصرة: "بنتكم عندكم كلموها، أنا عملت اللي عليا، وإلا، يبقى الحال على ما هو عليه".

خرج سلطان من بيته حافي القدمين ينفث نارا من منخريه، لم يتخيل أن فهمي وقمرية بأي حال من الأحوال سيخرجان عن طاعته، ظن أنه سيبقى المحرك الأوحد والأهم للأمور طوال عمره حتى في بيت أناس آخرين، لم يدرك حتى تلك اللحظة أن فهمي وزوجته صارا أناسا آخرين. دخل على ابنته بنفس الحالة وبدأ في توجيه الصراخ واللعن والملامة. ثم سألها لماذا فعلت ذلك فقالت: "اللي كنت بشغّل الفلوس عشانهم راحوا، وانا ما بقيتش عايزة أبقى شريكة بين جوزي واخويا، آديك شوفت خناقة النهارده، لو واحد فيهم قتل التاني أنا اللي هنكوي بحرقة الاتنين، خلوني أنا بعيد".

رآه سلطان رأيا سديدا، ورجاحة عقل، فهدأ.

" عفارم يا بت، حتى ما يبقاش واحد فيهم يستغلك ضد التاني".

وافقته ولم تضف، لم تشأ أن تخبره الحقيقة، رضا طامع وهو لن يرتاح حتى يبلع الفرن بأكمله في كرشه، وأنها أرادت الخروج من هذه الشراكة بعد فترة وإنما علمت بأن أخاها لن ينقدها المال الذي دفعته في الشراء سابقا، هذا إن دفع من الأساس، فتنازل لها فهمي عن الثلاثين جنيها مقابل أن تبيع هي أولا وتضمن حقها.

في هذه الليلة طرق باب سلطان شخص آخر غير متوقع، سعد ابن قمرية، كان جائعا منهكا مغبرا يسير في الطرقات وبين الحقول منذ أسبوع حتى وصل إلى المنصورة.

مكث بينهم قدر ما مكث واشتكى واسترحم وأطلق الدمع الكاره للعودة إلى بيت جدته لأبيه، إذ أخرجوهما من التعليم، وأجّروهما باليومية للعمل في الغيطان. لكن، بعد يومين وحينما لم يأت أحد يسأل عن الولد في بيت جده لأمه، صارح فهمي قمرية بأن على أحدهم أن يوصل هذا الصبي إلى بلد أبيه، غضبت منه زوجته وأجابته بقهر: "بقى أنا بقول يا رب بنتي ترجع هي كمان، وانت بتقول نرجع لهم الولد"

عائلة فواز لم تكن تملك أرضا ولا ماشية، أُجَراء سمح لهم الإصلاح الزراعي بالتحكم في الأراضي التي كانوا يزرعوها لأصحابها قبل الثورة. لم يكن أحد من أخوته متفرغا لرعاية أبناء الأخ أو على استعداد للتفريط في قرش واحد لتربيتهم، والأم أكبر مقتنياتها لسانا مسبّحا وقلبا عطوفا وأذن تستمع لما تحمله الريح من أخبار، سيئة وجيدة، فتصدق.

قمر كانت تتمنى بعد موت زوجها ألا تعود إلى بيت أبيها، أن تبقى في غرفتها هي وفواز ببيت أهله حتى تشتد أعواد أطفالها، لكنهم شهرا بعد شهر بخلوا وضيقوا ثم فرضوا عليها زيجة من أحد الأعمام حتى لا تمكث في الدار بلا رجل، لم تقبل، فسألتها الحماة إن كان بمقدور أبيها أن يوفر لها بأطفالها غرفة في بيته فلترحل، فرحلت.

معلومات استوعبها فهمي من زوجته عن حياتها السابقة. وهو يصر على عودة سعد لقرية أبيه، كان يعلم أن الجدة التي طردتهم وأمهم منذ أعوام لن تتحملهم بدونها الآن، خاصة وأنهم بلا مال.

بكى الولد وسأل فهمي: "انت بتكرهنا ليه؟"

فقال فهمي: "والله يا بني أنا بحبكم، بس لازم عشان ترجعوا، تروح تقف ف وش عمامك قدام ستك وقول لها إن أبوك لو كان عايش ماكانش هايعمل فيكم كده". وقال وعاد وألقى ببعض الحجج القوية في عقل الصبي حتى حفظها عن ظهر قلب، ووعد بأن يخوض هذه المعركة بجرأة مهما كلفه الأمر.

استبشرت قمرية بهذا الحديث واطمأنت، في الصباح تركته يصطحب ولدها إلى محطة سيارات السنبلاوين، ومنها إلى موقف عربات قريتهم، أعطاه المال الكافي لذلك وأعاره بعضا من عزمه ودعا له بالسلامة. بعد شهر عادت الحاجة اعتماد لسيدي يونس فوق عربة كارو مكشوفة يجرها حصان، وفي رفقتها سعد وعايدة، وأغراضهم، ومشنة فطير. تركتهم عند جدتهم عائشة للأبد ورحلت. رحلت بعد أن وعدتها أم الأم بأن تتركهما يزورانها أو تزورهم وقتما شاءت أو شاءوا، ووعدتها أم الأب بأن ترسل لهما الهدايا والملابس كلما تيسر المال، وسألتهما أن يجمعا في الأعياد قروشا وحلوى يذهبون بها إلى القبور، يوزعانها على الفقراء والمحتاجين على روح أبيهم الشهيد.

آخر ما رأت أم فواز من أحفادها قبل أن تموت أن دخل عليها سعد في غرفتها بنفس الدار في نفس البلد ببدلته العسكرية وقد طعنت في السن وقال: "بقيت طالب في الحربية يا ستي.. باركي لي" ارتمى في حضنها وترحما على فواز.

***

حلويات إيڤان

بعد أسابيع من عودة أبناء قمرية إلى المنصورة استأجر فهمي شقة متوسطة المساحة في شارع الأتوبيس القديم بعقد دائم باسمها، قمرية أحمد سلطان العفيفي، انتقلوا إليها بسرير فهمي وخزانته، وسرير قمرية من زواجها القديم، وكنبة بلدي، وطاولة بيضاوية قصيرة فوقها قرص من الخشب الحُبيبي، وأربعة كراسي خيزران.

وضع فهمي سريره في غرفة قمرية وأبنائها، لتنام عليه هي وعايدة، وسعد ينام على سرير أبيه. في غرفة على الطرف الآخر من الصالة أريكة، تقابلها خزانة الملابس فوقها حقيبة سفر قديمة بها بقايا أشياء من أيام قصر سيرافينو، حذاؤه الأول وملابسه التي وجد بها يوم الحادث، وبضع شموع. صليب لوسييل وأشياء أخرى من بيت إيڤان، وتذكارات من صلاح ومختار. على الأرض كليم صوفي أحمر عليه زخارف على الأطراف بالأخضر. على الحائط مزقة بحجم مصراعي نافذة من قماش خيمة، خيمة مناسبات، كانت له منذ عام ربطه في النخلة، كان الشيخ محمد رفعت قد زار المنصورة ذات عيد، قرأ الكهف وتبارك في عزاء رجل له عائلة كبيرة ضخمة على خلاف مع أخرى أكبر. جلس فهمي قرب الخيمة يتلمس شيئا لا يعرفه، وجه الشيخ هادئ والترتيل كأنه يحكي قصة، لكن ما أن قال المرتل صدق الله العظيم واستعد للرحيل حتى نشبت المعركة على أمر يتطاحنون لأجله، هاجمت العائلة الأخرى صوان العزاء المهيب، هذا الجزء من الخيمة تحديدا كان قريبا من جلسة فهمي تمزق من الداخل بسكين، ففصل هو بقيته عن جسد الصوان، ودثر به نفسه عائدا إلى المختلط سيرا على الأقدام، كان هادئ النفس هائما بصوت

الشيخ، رغم ما رآه من مشاهد عنيفة. لمح شبحا يتحرك في شرفة بيت عفت يسرع بالدخول للبيت، فعلم من شعرها أنها نفيسة. مذ حينها وهو ينام قرب هذه المزقة يعلق عليها من وقت لآخر شيئا يحلم بالغد.

بقيت في الشقة غرفتان خاليتان ومطبخ وحمام صغيران، وضعوا الطاولة والأربع كراسي في الصالة للأكل ومذاكرة الأولاد. تذكر فهمي أنه نسي مذياعا قديما كان قد وجده في جراج سيرافينو حينما كان يبيت هناك، وبعد أن خرج منه تركه أمانة لدى صلاح، ونوى الآن أن يسترده. كما عزم على شيء آخر فاجأ قمرية لكنها لم تظهر دهشتها، وشجعته على ذلك عايدة ابنتها، اشترى طاولة كبيرة لها سطح من خشب أملس تصلح لصنع الحلوى والمخبوزات.

سافر إلى القاهرة وعاد بموقد كبير يعمل بالغاز، وجهاز يخلط البيض بالسكر والدقيق، ثم نفذ بذلك ما كان يدخره عند جدتي من مال. شهر ونصف ثم تمكن من شراء بعض المواد الخام وشرع في تجربة كل وصفة كعك أو معجنات في كراس لوسييل.

جرب فهمي كل الوصفات على مدار العام، لم يعد يدخل فرن سيدي يونس إلا لماما، لم يكن يسأل سلطان عن الإيراد، يتلقى منه ما يعطيه إياه دونما محاسبة، بل وترك بيع البسبوسة أيضا. سلطان نفسه توقف عن بيعها بالليل على العربة، وإنما فقط في البيت لمن يعرف طريقه. بررت قمرية أحوال زوجها لنفسها بأنه منشغل بمشروعه الجديد، لم يكن يبتاع المواد الخام من المنصورة بل من طنطا، وقته مقسم بين غرفة الخبز الجديدة والسفر.

أول قالب كعك باعه في طنطا، لنفس تاجر الجملة الذي يعطيه السكر والدقيق ولوازم الطعم والزينة، ونصحه ببضع نصائح حول

ذوق الزبائن. مع الوقت اشترى الرجل من فهمي معظم إنتاجه من النواشف والكعكات المرتفعة والبسيطة، ثم سأله أن ينتقل إلى طنطا بصنعته في مطبخ يقيمه له التاجر ويلحق به مكانا للعرض. كانت الفكرة غريبة على فهمي، لكن ليس كثيرا، هو في النهاية يطمح لخطوة كهذه ولكن هل حان وقتها؟ تذكر أنه يسعى للاستقلال بنفسه في هذه الصنعة، وفي حياته كلها، فلماذا يقيد نفسه بتاجر يقيم حوله مشروعا، ويستنزف أفكاره وصحته في تجارة تنفع غيره؟ إنما هو محتاج للتاجر في كل الأحوال، للمال، المكان، الدعاية، فجاء فهمي صريحا مع نفسه ومع الرجل، أخبره بأنه زوج وأب ولا يمكنه مغادرة المنصورة، كما أنه ينوي الانفراد بمكان يخصه فيما بعد لبيع الحلويات. خالط صوت الرجل شيء من الحنق وهو يلوم نفسه: " كنت عايز أخدمك، الحق عليا، أنا غلطان لك". طيّب فهمي خاطره واستعطف وده بأن قال: "ما انا ما كملتش كلامي" ثم طلب منه أن يعطيه أفضل مساعد عنده، أكثرهم ثقة وذكاء، ليعلمه الصنعة، وسأله أن يقيم المطبخ من الغد.

اشترى التاجر المعدات وجهز مكانا واسعا بإمكانات حديثة دقيقة بمقاييس زمنها، أدهشت فهمي، اعتنى الرجل بالتأثيث بنفسه، فأعجب ذلك فهمي، علم أن الوصفات لن تذهب لمجرب مختل. أيضا، أرسل التاجر ابنه الأوسط لتعلم الحرفة من فهمي، ذلك أنه رفض في البداية تعلم صنع الحلويات لكن أبوه أقنعه بأنه مصدر ثقة لنقل الخطوات والمعلومة، ولندرب عليها عاملا واثنين فيما بعد، لكن الفتى تبرم بعد جلستين، كان يكره أوامر فهمي في تنظيف اليدين وحلق شعر الساعد، وتغطية الرأس وارتداء مريلة مطبخ، "دا شغل نسواااان، أنا عمري ما راجع للجدع المجنون ده تاني"، فاضطر التاجر لملازمة فهمي لستة أشهر لاحقة حتى أصبح حلوانيا ماهرا.

عفت، الذي آلمه أن فهمي لم يعد للبيت أبدا مذ حاسبه على زواجه من قمرية، شعر بأن فهمي ليس بحاجة إليه، وبأن اكتساب ابن لا يكفيه التبني على الورق، وإنما شيء آخر أكبر وأثقل، الصداقة. بحث عنه مجددا في الفرن وبيت سلطان حتى أخبروه بوضعه الجديد. فوجئ فهمي ذات يوم بعفت على باب شقته بشارع الأتوبيس القديم، يستند على عكاز غليظ في يمناه، ويتكئ من يساره على صبي أسمر حاد النظرة بالكاد تصل قامته إلى خصر جده، موسى ابن أمينة والعرابي.

"يعني روحت وقلت عدوا لي"، كان في عبارة الرجل عتابا حقيقيا، يفتقده، فهمي رقيق القلب، وعفت يعرف ذلك. فقال فهمي: "تحت النظر يا باشمهندس" وكان في وجهه وداعة وفي صوته عاطفة، "مش انتو بخير؟" قال عفت: "بخير يا ابني، الحمد لله،.. بلاش باشمهندس دي".

نظر فهمي لقمرية التي كانت تقف قرب مجلسهما فقال: "كوبايتين شاي من ايديكي الحلوة يا ام سعد"، عاد فنظر في وجه عفت الذي كان يراقب ظهر قمرية بشيء من التأفف وهي تتوجه للمطبخ، لم يكن فهمي يريد رفع الكلفة، كلمة باشمهندس حصانة شكلية تمنع امتزاج العذب بالمالح، تحفظ الخصوصية، توقف عفت عن خطوته التالية.

"قول لي يا بابا".

كان لفهمي أب بيولوجي ذات يوم لم يعد يتذكره، وأب في المهنة زوّجه ابنته، وأب أضافه في الأوراق المختومة ابنا دون أن يوافق، كم أب يمكن أن يكون للإنسان؟

حينما انصرف عفت كان العرض الذي بجعبته قد راق لقمرية، لكنها حتى بدون العرض قالت لزوجها: "الحمد لله إنه محبب خلقه فيك وكلهم عايزينك ولد". فأجابها فهمي: "ما أنا لو كنت غبي أو عالة ماكانش واحد فيهم حبني.. بتمنى حد يحبني من غير سبب يا قمر"، فقالت قمرية بعذوبة: "أنا والعيال بنحبك من غير مصلحة يا سي فهمي".

**

كان عمي صلاح قد تخرج في الكلية الحربية عام تأميم القناة ١٩٥٦. هو أيضا عام العدوان الثلاثي. كم من قصص ملحمية كثيرة جميلة رُوِيَت على لسان عمي عن تلك الفترة حتى مات. ضراوة النزال وإصرار فدائيينا على السيطرة على مدن القنال، الحرب الأولى التي شهدها وهو ضابط حربية.

أعلن عبد الناصر، غزة منطقة حكم ذاتي داخلي. لم أفهم يوما معنى تلك العبارة، ففلسطين في مخيلتي حتى الآن قطعة واحدة محتلة منذ ولدت. أعجب هذا الخبر عمي ودافع عنه أمام جدي مصطفى الذي كان يرى ناصرا حاكما غبيا.

"ضيع مننا غزة، والسودان، واليمن، وسوريا، والحجاز" ظل جدي يردد هذا القول للنهاية، أحب أنور السادات لفوزه بالحرب مع اليهود أكثر مما تقبل عبد الناصر.

"عبد الناصر زعيم ماجابتوش ولّادة، نضيف، محترم، كفاية إنه ميت ماسابش لولاده غير معاشه"؛ عمي صلاح في بداية عصر مبارك.

كان صلاح قوي الشكيمة سريع الغضب، إذا اعتنق فكرة أو انضم إلى شخص دافع عنهما وإن كانا على خطأ، مبدأه "انصف شريكك الأول قصاد غريمه، لما بينك وبينه اخلع عينيه". وكان مشبعا بعبد الناصر يعتبره شريكه.

نقل أبي مِن وقت لآخر مقولة أخرى عن جدي في حضور عمي صلاح: "عبده فقَر الغني، وما غناش الفقير"، يرددها فلا تعلم إن كان مؤمنا بها أم ينشدها بنبرة أبيه فقط ليضايق صلاح، ينهي كلامه ويضحك ثم لا يشترك في خلاف الآراء بينهما.

مع هذا، وبعيدا عن هذه الجملة، كنتُ أشعر بأن أبي يريد العيش ببساطة، يحتفظ بمعظم آراءه لنفسه، لا يرغب في أن يكره أحدا ولا أن يكرهه أحد، فتضجر أمي من دبلوماسيته التي تراها ضعفا وسلبية.

إن زواج أبي وأمي لم تكن قصته استثنائية مثلما صادفت الكثير من قصص تلك الحقبة، لكنه أيضا لم يكن زواج صالونات.

أول مرة رآها كانت على باب شقتهم في شارع المديرية القديمة، حينما أوصل حقيبة صغيرة لبيت الملازم/ حسين عبد السلام فياض، زميل عمي صلاح في الجيش، من القاهرة للمنصورة. قال صوت أنثوي فاتنٍ من خلف الباب: "مين؟" عرّف أبي عن نفسه، فتحت الشابة كاميليا الشرَّاعة، شعرها كستنائي خفيف والشريطة متوسطة العرض بيضاء تقسمه لغرة قصيرة على جبهتها وشعر منسدل فقط حتى الكتفين، اللذين كانا مكشوفين لأن فستانها بلا أكمام. ابتسمت بترحيب مهذب ثم استأذنته دقيقة، بعدها عاد جدي عبد السلام ووقف في نفس مكانها بنفس الابتسامة الباشة وفتح الباب. صوته مؤثر، ترحيبه بأبي أيضا كان مؤثرا. صافحه بحميمية وأصر على أن يدخل ويتناول معه القهوة، وافق أبي بعد تردد، ولكن كاميليا لم تعد للظهور ثانية في هذا

اللقاء، ولا في اللقاء التالي بعدها بأيام حينما عاد لأخذ الحقيبة ثانية منهم ليوصلها لحسين.

كان بالحقيبة في المرة الأولى ملابس متسخة، ولم يكن أبي يعلم، شكره جدي عبد السلام على ذوقه وخدماته الكبيرة قال: "نعمل ايه بس يا ابني، ما بيعرفش يغسل هدومه.. ما تعرفشي هو ماجاش الأجازة دي ليه؟"

في الإجازات التالية ظل يرقب خطط عمي وصديقه، هل يبقيان في القاهرة أم يسافران للمنصورة؟ يبقيان أم يسافران؟ يريد أن يوصل شنطة الملابس المتسخة لبيت المديرية ويرى أمي. في معظم الأحوال كان عمي صلاح يفضل قضاء الإجازات يتسكع بين سينمات عماد الدين، وريفولي وميامي، حسب نجوم الشباك والصحبة، أما خالي حسين فيختار مائدة جدتي أم حسين غالبا: "المحشي والملوخية يا عم.. أكل، أكل، مش مسلوق الجيش".

لكن حانت الفرصة لأبي للعودة إلى ذلك المنزل مرة أخرى مع اقتراب نهاية العام، كان لا يزال طالبا في السنة ما قبل الأخيرة بكلية الصيدلة جامعة القاهرة، يشكو ازدحام العاصمة وصخبها، يجهز أغراضه للسفر إلى المنصورة للانعزال والمذاكرة حينما دخل عليه عمي صلاح ذلك الخميس آخر النهار وبصحبته خالي حسين "إلا يا شهدي عندنا طالب ثانوي عايزين نزقه السنة دي ف الكيميا، تقدر؟" تأملهما أبي لا يعرف كيف يجيبهما. كان كعادته كل سنة يراجع مواده مرة ومرات، ثم يقوم بحل أكبر قدر من اختبارات الأعوام السابقة ليكون مستعدا، ويفضل أن يحتفظ بوقته الأخير قبل الامتحان كاملا لنفسه، لكن عمي قال: "الأبلة كاميليا أخت الملازم حسين".. "روّحوا مع بعض يا أندال، حسين مسافر المنصورة هو كمان".

كانت لأمي عقلية أدبية بحتة، جدي عبد السلام كان فيلسوفا بغير شهادة فلسفة، قارئا ممتازا يحفظ شعر الجاهلية والعصر الأموي، وسجالات طويلة بين جرير والفرزدق مدونة في مخيلته وكأنها حوار مرئي. كان يقول: إن ما تقرأه في الليل لا يغادر عقلك ولا صدرك، فالتصورات والمشاعر تنشط ليلا حين يهدأ العقل شيئا ما، فيصبح التسجيل في جهتين، العقل والقلب. داوم جدي على قراءة الشعر ليلا حتى مات.

كانت أمي تقول إن لأجل تلك الأشعار، التي كان يرددها كطُرف وغزل وأقوال مأثورة طوال الوقت، رفضت التخصص الأدبي حينما وصلت للثانوية العامة. زهدت؟ خشيت تدخل جدي؟ كانت تتحدث عن القسم العلمي وكأنه تخصص الأذكياء المميزين، يمنحها خاصية التباهي بالعلم والحداثة. فإن ذكرت القسم الأدبي كان أسلوبها مبتذلا ساخرا، وأعتقد أنها لو قبلته لتمكنت من دخول الجامعة، لكن أمي بهذا الاختيار المسدود- قبل أن يبدأ- لم تنل حتى شهادة البكالوريا.

عاد أبي من القاهرة مباشرة إلى بيت جدي مع خالي حسين، وقضى أربع ساعات بين اطلاع على المنهج وبين محاولة شرح بداياته لأمي. أدرك منذ البداية أنها ليس فقط لا تفهم الكيمياء وإنما أيضا تكرهها، ابتسم في نهاية الدرس وسألها: "طيب دخلتي علمي ليه؟ الكيميا عصب كل العلوم"، فقالت: "وابقى أقل من حسين؟"

"ومين قال الأدبي أقل؟".. "فرصة تحوّلي من أول السنة لو عايزة"

فأجابته أمي إجابة حادة قاطعة: "لأ، أدبي لأ". انقبض جزء من روح أبي وهو يرى الجانب الخشن من تلك الفتاة، إنما أجزاء أخرى تهللت لأنها ستكمل طريقها المظلم مع الكيمياء ومن المفترض أنه هو من سيضيئه لها.

يضحك أبي ملء قلبه وهو يقول: "يا بنتي أمك كانت بتفهم حتى ف علم الفلك، ونيجي عند الكيميا ومخها يطفي، كأني بشرح لها الآخرة"

"انت بتهزر؟ طب ما هي آخرة فعلا".. "أنا ما وقعنيش إلا باب العضوية" ماما.

"باب العضوية؟ كتاب سنة تالتة كان كله عضوية" بابا.

"بس نقطنا بسكاتك" وقذفته بالجورب الذي كانت تكور فردتيه داخل بعضهما وهي تطبق الغسيل، ثم أشاحت بنظرها عنا وأكملت: "قال يعني انت عرفت تشرحه؟"

نجحت في السنة الثانية في الكيمياء بأعجوبة، وفي السنة الثالثة كان أبي منشغلا بالبكالوريوس ومع ذلك يسافر إلى المنصورة كل عشرة أيام ليتابع الدروس معها. وبرغم أن جدي عبد السلام وفر لها مدرس كيمياء في البيت غير أبي، إلا أن تحصيلها للمادة كان يزداد بطئا وصعوبة.

في منتصف العام الدراسي لم يجد شهدي مانعا من مفاتحة أبيه برغبته في خطبة كاميليا شقيقة حسين عبد السلام زميل صلاح، لم يفكر جدي طويلا، كان يعرف بيت الأستاذ فياض عز المعرفة، أصله الريفي، وسمعته الطيبة في شارع المديرية، نظافة يده وإخلاصه للأميرية الإعدادية بنين التي يعمل بها منذ زمن معلما للغة العربية ووكيلا للمدرسة، فوافق.

قالت جدتي "وِد" بطريقة غير مرحبة: "رايح تجري على أبوك، هي يعني هاتطير؟"

فقال أبي: "طب والله أنا فعلا خايف تطير يا ماما، يا سلام لو شوفتيها"

"أشوف ايه بقى، ده انت حتى ما خدتش رأيي" تيتة.

"انتي الخير والبركة يا أم صلاح" أبي.

لم تحضر أم صلاح قراءة الفاتحة، ولم تهادي العروس هدية المعاينة، "الشوفة" كما يسمونها بالبلدي، عللت ذلك بـــ: "أول مرة يشوفها؟ ما كان دايس البيت سنة وقاعد معاها مرة وعشرة".

لطفت جدتي أم حسين الأجواء على أمي مع حماتها حتى ماتت، ولكن البداية أوحت بالطريق، كانت حياة أمي شاقة مع جدتي، رغم أن كلتاهما كانتا من النساء الجيدات.

"صعبان عليا شهدي يتجوز قبل صلاح"، فيجيبها جدي: "النصيب، هو صلاح قال يا جواز وعارضناه؟ بلاش تنكدي على شهدي يا وِد، ده حبيبك، وبيحب البت"

"بيحب ايه ده أهبل، مجيّرة وبوزها رفيع، وقعته بالكيميا" تيتة.

**

تزوج شهدي وكاميليا في يونيو ٥٨، قبل ظهور نتائج اختباراتهما النهائية بأيام. أبي يعلم أنه ناجح، أما أمي فلم تكن تعلم شيئا.

ظهرت النتيجة وكانت راسبة، الكيمياء والفيزياء وفرع من الرياضيات. قال أبي إنه كان بمقدورها أن تحوّل أدبي في كل وقت، لكنها أصرت على إعادة السنة علمي ولو لم تحقق مجموعا يدخلها الجامعة "هاخد ثانوي واقعد ف البيت يا شهدي". لكنها في السنة التي

تلتها رسبت في أربع مواد، وكانت قد وضعت قبلها بشهرين أختي هدى.

سألها أبي: "ها، هنعمل إيه دلوقتي يا كوكو؟" فأجابته بجملتها الشهيرة التي كانت تقولها لنا كلما قررت عدم فعل شيء: "سيبني أفكر".

تركها تفكر حتى الآن. من كانت؟ ماذا أرادت؟ من نحن؟ من هي الآن؟ ماذا نريد منها؟ أسئلة تدور في عينيها والزهايمر يقرض عقلها. لكنها رغم كل ذلك لازالت تتذكر "وِد"، وأنهما كانتا غريمتين، وأن الحياة الحقيقية ليست في المنصورة، بلَ في القاهرة.

السفر للعاصمة كان دائما حيلة أمي للتخلص من نفوذ جدتي، هذا ما أظنه. لكن أبي ظل يؤكد أن أمي تتفتح في هواء القاهرة، تنتعش وتستقبل الحياة في بهجة وأمل، تصبح عطوفة محبة. تتفتح في هواء القاهرة؟ ممكن، إنما تصبح عطوفة محبة!!! أأكوَن جاحدة لو قلت إنني منذ جاوزت الرابعة لم أشعر كثيرا بأن أمي عطوفة محبِة؟

"سيبك م الكلام ده، أمك طووول عمرها حاطة ف دماغها صلاح والست اللي هايتجوزها صلاح ويجهز لها شقة مصر".. "ده غير حسين بقى لما اتجوز بنت رئيسه.. الخدم والحشم والعز والألاطة".. "كانت بترجع هنا وشها إسود من الغم، ع الفلاحين وعيشتهم، تفضل تغمق ف عيشة ابوكي وهو يكتم ف قلبه، عارف، ما بتحبوش"، وتسترسل جدتي في ذلك الحديث المتكرر الذي لا يخلو من إدعاءات أم أخذوا صغيرها منها لصالح شابة جميلة عيوبها الأخلاقية والاجتماعية قليلة، لكن من السهل اصطياد سقطات عصبيتها.

لو أن معضلتي الأولى والأخيرة مع أمي هي وزني كما كانت تردد طوال الوقت- تجحظ عينيها وهي توبخني بخيبة أمل- فإن الله

قد عاقبها بشيء من القسوة حينما جعلني نسخة طبق الأصل من جدتي ود في الشبه. وأن الحسنة الوحيدة في كونك تعاشر أما لا تظهر لك الكثير من الحنان، هو أن تكون خارج سيطرة هذا الحنان. ذاك الذي يسوق الأبناء المدمنين على رضا الوالدين عميانا يفعلون ما يُؤمرون. من هذا المنطلق الحُر أستطيع بوضوح أن أجزم بأن أمي كانت ضحية كلام جدتي "وِد"، وعناد أبي، رغم مظهره اللين، قبل أن تكون ضحية نفسها.

أفرغ جدي مصطفى الشقة الأرضي وقسمها نصفين، نصف أمامي مطل على البوابة والقوس الحجري، جاء بمن أزالوا جدران الغرف المطلة عليه، ثم هدم الجدار الذي كان بين الغرفتين فصار هذا الجزء وكأنه دكان كبير. جاءوا بأبواب الزجاج، وجرار من شبك حديد مضفور يعلو ويهبط يحمي الزجاج من الخارج، في الليل يضع أبي طرف الجرار في العروة ويغلق القفل ويتأكد منه، يدخل إلى القسم الداخلي من الشقة والتي تحولت بقية غرفها إلى مخزن أدوية وكيماويات، ومطبخها إلى معمل، ولم يكن لحمامها وظيفة جديدة غير أنه حمام. على هذا استخرج لهذا الطابق رخصة صيدلية، باسم أجزخانة جلالة، لصاحبها الصيدلاني الشاب شهدي مصطفى جلالة.

نقلوا جدتي للطابق الثاني حيث شقة صلاح. جريمة لم تسامح جدتي أمي عليها أبدا حتى قبل أن تدخل بيتها الجديد، فقد حرموها بسبب الصيدلية من حديقتها الخلفية وشرفتها الجميلة المطلة عليها. حرموها أيضا جلسة النافذة الشرقية المطلة على شارع الطلاينة وناصية المدارس وشارع اليونان، تلمح مبنى المحكمة من بعيد.

"كنت اطلع التراس الوراني أحس إني ف الجنة. زرع وهوا وفنجان القهوة، أطلع أودام على شباك المختلط أحس إني مع الناس ف

الشارع".. "لما نقلوني فوق أروح فين؟ ابص من شباك أوضتي على الجنينة واتحسر، أطلع البلكونة اللي أودام أتحط ع الكرسي ف وش عواطف لا حاسة بحد ولا حد حاسس بيا"..."لما طلعوني الشقة اللي فوق حسيت انهم قرطسوني، ركنوني على جنب علشان يكبروا".

ضغينة لم تفصح عنها جدتي في وقتها، صارحتني بها بعد موت أبي. لكنه شعور كان يصلها بأمي أربعا وعشرين ساعة، لأربعة وعشرين سنة، كالكهرباء، بلا كلام.

ومع ذلك لم تسعد أمي أيضا بنقل جدتي للدور الثاني، لم تشعر بانتصار كما ظنت جدتي، بل ولم تسعد بإقامتها في المنصورة أساسا، في أي شقة. حينما عاد أبي من القاهرة للمرة الأخيرة في حياته، لم يكن مبتسما وإنما على وجهه راحة وقناعة، سألته في فضول مشحون: "يعني مش مزربن ومزرزر زي كل مرة إن ماما ماجاتش معاك".

"لا، خلاص، أمك عاد صعب ترجع المنصورة".

كان عامي الأول في الانفصال عن ماهر، العالم مهروسا مقلوبا يسبح في رأسي، لا شيء له قيمة، لا مبدأ ثبت على معنى، علاقة الرجل بامرأته مهتزة في قلبي. لُمته بشيء من التحامل: "ولما انتو عارفين كده من زمان انت وتيتة، ضغطتوا عليها ليه وعيشتوها غصب عنها ف مكان ما بتحبوش؟"

"ياااه!! غصب عنها؟".. "ومالك بتكلميني كده كأني واكل عيالك؟"

استكمل إفراغ حقيبته أمام الغسالة وحاول أن يبتسم، فأجبته بجفاء: "لا، قتلت أمي، يجوز لو كانت خدت من الدنيا اللي نفسها فيه كانت بقت معايا غير كده؟"

دخل غرفته بهدوء وألقى حقيبته فوق الدولاب بقفزة خفيفة، ثم عاد فدخل المطبخ وأخرج من الثلاجة جزرة وبدأ بتقشيرها ثم قال: "طول عمرك تقولي الهبل ده، كأنها عدوتك، أمك بتحبك، وأكتر من بقية أخواتك كمان، بس انتي..، بصي.. مش هتفهميني إلا لما تخلفي"، قضم الجزرة وأنا أزداد غضبا من المنحى الذي راح معه الحوار.

"سيبك مني أنا دلوقتي، أنا لا هتجوز تاني ولا هخلف، يبقى عمري ما هفهمها، انما انت، عملت فيها كده ليه؟"

توقف عن مضغ الجزر الذي في فمه وقال بوجه جاد: "عملت إيه؟ أنا ما بحبش القاهرة، وكاميليا عارفة، بلد ملزقة ومنافقة، كل حتة فيها ريحتها صنان، إعلانات ألاضيش الانفتاح، وفنانين المقاولات من ناحية، وبواقي شعارات ناصر والقطاع العام والنقل العام والبيتنجان العام من ناحية تانية. بتشوفي كمية الشحاتين والنصابين هناك؟ الموظفين زي مساخيط الفراعنة طافحين فوق كل شق. بتشوفي ثكنات الجيش اللي محزمة البلد؟ مدن جديدة قال، نصر وعبور وعاشر، خرابات يدفنوا فيها أحلام العيال اللي طالعة ويسرقوا عرقهم، أعيش فين؟ أنا ما ضحكتش على امك، يوم ما اتفقنا نتشارك حياتنا، كنت صريح معاها، أنا باكره القاهرة، ومش هتنقل أعيش هناك في يوم من الأيام زي صلاح وحسين، أبدا. هي ما بتسمعش مش ذنبي، انتي ما بتفهميش مش ذنبي، كنتي بتقاوحيه كده؟" "يعني ماهر ظلمك واستغلك وما حققتيش معاه كده" ثم أزاحني من طريقه بحركة عنيفة وخرج من المطبخ متجها نحو الحمام، أغلقه على نفسه وظل يدمدم ويهمهم بكلام لم أقف لأسمعه، سحبت باب الشقة خلفي ونزلت لجدتي.

**

على هذا الأساس الذي بنيت عليه حياة أبي وأمي، الصيدلية، جاء تفكير عفت، لماذا لا يستميل ابنه الجديد بفتح دكان كبير للحلويات في مقدمة شقة إيڤان كما فعل مصطفى لولده؟

قمرية التي نظر إليها بقرف وهو في بيت فهمي، هي من أقنعت فهمي بقبول العرض: "أهو على ما تجهز المكان وتعمل لنفسك سوق هتاخد وقت، ايه يمنع تبدأ من دلوقتي؟" حسبة جيدة. بالطبع كان قد خطر ببال عفت أن يعطي ابنه الجديد الطابق الثالث كما فعل مصطفى مع شهدي، لكنه فكر بسرعة في ابنة البائع الجوال التي ستأتي بصحبته لتسكن فوقه هو ابن الأصول وتربية الذوات، وعليه فقد نهض من صباحه بنفس الترتيبات والمحامي والموظفين المعارف فكتب الطابق الثالث بيعا وشراء باسم ابنته الكبرى أمينة، والثاني باسم عواطف وزينب مناصفة، والأرضي لجلال عفت عبد الرزاق، وترك أسهم الوكالة للزمن، إن انتزعوها من عبد الله الذي أزاح بقية أخوته من وكالة مرعي، فسيتوارثوا فيها تبعا للشرع والقانون، وإن لا، فلا، على ألا ينتفع أي طرف منهم بهذا البيع إلا بعد وفاة عفت نفسه.

من لم ير أن الباشمهندس حاول طوال القصة باستماتة نزع فهمي من جدي كمساعد أو عامل أو ولد، فقوة ملاحظته ضعيفة. كلا الرجلين كان يعلم قدر فهمي، غير أن عفت التزم على امتداد الخَط طريقة الزجر والإمارة، أو المواربة والكذب. في حين ترجم جدي اقتناعه بالشاب على هيئة مساعدة في وقت حساس تدفعه للأمام، أو على الأقل تيسر دربه، لأن فهمي في عداد الذين لا يحملون شهادة كان في الأمام فعلا. جمع من الحرفية والثقافة والسمعة ما يغنيه عن جمع المال، ومع ذلك فقد كان موهوبا حقيقة في جمعه. رأيت جدي في نهاية حياته يحييه باحترام بالغ وحميمية وكأنه ابنه أو ابن أخيه، ليس بسبب المال الذي كان قد طفا فوقه عمي فهمي في تلك الحقبة،

فلم نكن يوما أقل ثروة منه، وإنما شيء ما بينهما كان يجعل جدي يتمشى في جلبابه المرتب المنشّى الممسد، بطربوشه وعصاه، مرتديا جوربا جيدا وحذاء لونه متناغم مع لون الجلباب والكوفية ليجالس فهمي في محله في أمسيات الصيف الحارة، أو الشتاء الباردة، يشربان القهوة ويستمعان للراديو، يتناقشان في الدراما والشعر والسياسة، يراقب جدي يدي فهمي وابتسامته المهنية ولكن العذبة، معطفه الأبيض، وغطاء رأس على شكل قارب مقلوب على شعره، أبيض أيضا، صوته الهاديء وهو يعرض سمات حلواه ويسأل عن مناسبة الشراء وذوق الزبون، يلف كل صنف في عبوة ولفة تناسبها، شرائط تزيين لامعة ونظيفة، هدايا إضافية للزوار الجدد، كل عميل يخرج وقد أخذ واجبه وزيادة، راضيا وإن لم يشتر شيئا، وهذا نادرا ما يحدث، فقد كان لديه طلب كل فضولي يدفع الباب الزجاج ويدخل، فقيرا أو غنيا، شعبيا أو غير مألوف، شرقي وغربي. لقد باع عمي فهمي في دكانه حتى البسبوسة، وأضاف لها في الشتاء البليلة لنهاية حياته.

على أن جدي لم يفعل ذلك مطلقا إلا حينما مات عفت. قبلها، ومنذ أن فتح فهمي المحل، لم يخطُ بلاطة واحدة من أملاك عبد الرزاق.

**

حينما قارب العام ١٩٦٢ على الانتهاء عاد عمي صلاح من حرب اليمن، وولدتُ أنا، لأب يحاول جاهدا إقناع الناس بعلمه ودماثته بأنه صيدلاني حقيقي لا يعمل لدى الدولة، وأن هذه فعلا صيدلية خاصة تبيع دواء يساعد على شفائهم بإذن الله تماما كما تفعل أقراص ومحاقن الحكومة. فكرة الذهاب لطبيب خارجي في عيادته ومن ثم

صرف وصفة دواء من صيدلية خارج مبنى المستشفى العام كان أمرا من قبيل التبذير والسفه، إلا للمعتاد سلفا على مراجعة أطباء خارجيين، أو الكاره لمستشفيات ومشاريع الحكومة كأبي نفسه.

قبل أن أتم العام بعشرة أيام مات الشريف القيسي، فلم يحتفلوا بذكرى مولدي الأول. أصيب الرجل بتوقف مفاجئ في القلب، وعمره يناهز التاسعة والثمانين عاما، تاركا خلفه قبيلة من الأبناء والأحفاد، وأبناء الأحفاد. ذكورا وإناثا، وأموالا كثيرة، قطعان ماشية وبيوت وأراضي زراعية وصحراوية، وزع معظمها عليهم في حياته، بمن فيهم زوجاته الأربع، وصغراهن نفيسة.

"ورثت عنه كيلو جراما ونصف من الذهب" هذا ما كانت تقوله بيننا من وقت لآخر بنسبة معتبرة من التفاخر. كما كتب بيت الزوجية باسمها وفدانين زراعيين. مات في مكانه، جالسا على الكنبة الكبيرة تحت الشباك في الغرفة الرئيسية بالبيت. بيده مسبحة، حليق الرأس مهذب اللحية، جلبابه نظيف ورائحته عطرة.

كانت المقارنة بين الزوجين (السابق والحالي) غالبا ما تجعل نفيسة نتائجها في صف الشريف، وهذا ما قادني مرارا لسؤال أبي، وعمي وجدتي ويحيى عن سر موافقتها على الزواج من فهمي.

لم يكن الشريف يضاجعها بالمعنى الشائع للمضاجعة، يهوى الدلال والملاطفة، يسعى لإرضائها نفسيا كامرأة بغزل متدرج بين الفج والخفيف، للجنس حكاية طويلة عميقة خبرها الشريف القيسي بحكم مدة معالجته شئون الفراش مع النساء وتعددهن. كان يعرف كيف يجعلها تنتشي تحت وطأة الحب وشوق استدام بين جسدها المكشوف وجسده، بعد أن يثقل جوانبها تماما بصمت المترقب لأنثى مرغوبة. ثم تأتي حسبة الجماع كيفما اتفق.

لم تكن حاملا فعلا حينما أطلقت عواطف الإشاعة بصوتها العالي البطيء في محيط بيت المختلط وأمام فهمي تلك الليلة، ليلة التبني. بل إن زينب صحبتها في الليلة التي سبقتها فزارتا القابلة قرب مقام سيدي عبد القادر، والتي أخبرت زينب على انفراد بأن نفيسة شبه عذراء، بالكاد خدش الرجل بكارتها خدشا. أعطتها قرطاسا من ورق، به نبات خشن وطلبت من نفيسة أن تنقعه وتشرب هي وزوجها منه، وأن يتحمما بمائه، وأن يعاشرها كل ليلة، وأن تستلقي على ظهرها ساعة بعد النفض.

أبتسم لنفسي كلما تذكرت النبات الخشن. هل كان مخدرا من نوع ما يزيد النشوة؟ أتصور فهمي المكلوم وهو يتصور حبيبته كل ليلة بين يدي زوجها، تحل له لا لسواه، يتلذذ بالنظر واللمس والتذوق، يضع بذور أطفاله في أرضها، تتفرع عائلة، فتسعى نفيسة للمنصورة تجر طفلا في يدها وآخر في بطنها، وهكذا. نعم أتصور هذا الفكر الذي أخرجه من حالة انتظارها لسنوات إلى حالة قتل حلمه عمدا واستبداله باستقرار وأمان. وكأنه قال لنفسه: ليبقى الحب إلى أن يمل، فيرحل. لكنه لم يفعل.

أول حديث دار بين نفيسة وفهمي بعد عام من موت زوجها: "كان نفسي ف ولد منه". العبارة التي أيقظت مؤشرات قلب القتيل من الصفر للمليون، قالتها بصوت منخفض متهدج، ثم شرعت في البكاء.

كان في تلك الآونة يستعد لنقل غرفة الخبز والعجين من شقته هو وقمرية بالأتوبيس القديم للجزء الخلفي من شقة إيڤان، وكانت نفيسة بين باكية وحيدة في غرفة الغسيل أعلى البيت، وبين زائرة لطيفة للطابق الأرضي. كم من مرة رأتهما قمرية يتحادثان ويلقيان الهموم أمامهما على الطاولة بالسرد والتأمل، أو بالاستسلام

ومصمصة الشفاه. كانت تعلم أن ليس فيما يقولانه خيانة، لكن وجه فهمي السعيد الحزين، المنفعل بما يسمع رغم صمته ينبئ عن قلب هائج، ونفس تموج في الليلة ألف مرة مع كل كلمة تضرب جروح حبه لنفيسة.

ذات ليلة شعرت قمر بالغيرة، وقررت نيل زوجها في الفراش ولو لمرة قبل أن يحلق نحو عش النسر، هو أيضا كان قد امتلأ بخيالات حديث نفيسة عن زوجها الراحل، حتى ظن أن عضوه الذكري قد خلق الليلة من جديد. لم تكن مهمة قمر صعبة، لم تكن حجة استحيائها التعري أمام رجل بعد فواز قوية، لقد رآها فهمي عشرات المرات بحشمة قليلة في موقف أو آخر. وفي اللحظة التي تعجبت فيها من مشهد جسده الأمهق الأعرج مكشوفا تماما، تحرك فواز بسمرته الآسرة، الحبيبة، وأكتافه العريضة، ورائحته القوية بينهما، يحاول وضع شفتيه على عنقها، أمسكت عن نطق اسمه علانية حتى لا تفسد شهية فهمي، الذي تنهد بدوره مع أول قبلة على جلدها وهو يقول: "نفيسة".

لم تهتم قمر بعد تلك اللحظة بتقديم خطوة أو تأخيرها، تركت جسدها للظلمة والرجل الجائع الذي يحتضنها، تنفست بهدوء وأفسحت له الطريق يتحسس مراده، لكنه بعد دقيقتين أو ثلاثة، تراجع في انتكاسة نحو أريكته ثم جلس، غطى خصره بجلباب نومه دون أن يرتديه، فرك رأسه بأصابعه المرتجفة وقال: "مش حاسس بحاجة.. أنا تعيس.. حياتي بتتمرجح قصاد عيني.. بتروح وتيجي". ثم أجهش في بكاء حزين مما أدهشها فعلا.

قال يحيى: "بابا قال: قعدت على الأرض على ركبها، حسيت بسخونة صدرها على قصبة رجلي، قالت لي لو بيك مرض وعايزني، هساعدك، ولو سليم ومشتهي غيري، بردو هساعدك".

من الغريب أن تنتهي ليلة كهذه بأن يرفعها عن الأرض ليشكو على كتفها قصته المريرة مع حب امرأة تبكي رجلا مات في التسعين، والأغرب أن تستمر زيجة قمر وفهمي بعدها بلا طلاق أو زواج. فقد مات وهي على ذمته شرعا وقانونا بصفته الأولى، الأشعل. في حين عاش سعد وعايدة يتصرفان ويشعران كأن فهمي خالهما وليس زوج أمهما. في الوقت الذي كان يحيى، وحتى بلغ الرابعة عشر، موقنا من أن "عمتو قمر" هي أخت أبيه الثالثة بعد أمينة وعواطف.

لم تستطع نفيسة إقناع خالها بهذا الزواج في المرة الأولى، لكنها بعد عام ونصف جأرت أمامه بمصيبتها: "الأرض ركبوها الفلاحين مش طايلة إيجارها، والبيت ولاد الشريف حطوا إيدهم عليه بعد ما رجعت المنصورة، دهبي عمالة أبيعه حتة حتة".. "وافق يا خالي إلهي يخليك".

تزوجت نفيسة من فهمي، أقصد جلال.. عفت عبد الرزاق مرعي، بمباركة الجميع بمن فيهم قمر في مارس ١٩٦٦، ليولد يحيى بعدها بتسعة أشهر تقريبا، في يناير العام التالي باسم يحيى جلال عفت عبد الرزاق، في النصف الخلفي لشقة إيڤان. حيث الأمامي صار دكانا كبيرا للمخبوزات الإفرنجية والحلوى الشرقية، بدأ يذيع صيته، يحمل نفس الاسم "إيڤان للحلويات"، لكن الاحتفال بسبوعه الذي حضرته لم يتم إلا في الصيف، أغسطس أو سبتمبر، بعد أن مر على موت عفت عاما كاملا.

***

بين ناصر وصلاح الدين

بُغْض أبي لعهد عبد الناصر ومن بعده السادات كان سبب خلاف حقيقي بين أبي وعمي، لكنهما بطريقة أو بأخرى وجدا فقاعة أخوية خارج إطار الزمن وضغط الأحداث ليتبادلا النكات والمساعدات والقلق والدعوات بالتوفيق.

حرب ٦٧ عاد منها صلاح بأعجوبة، كان هناك، في قلب المأساة، ولا أجد تفسيرا لهذه المفارقة إلا أنه كان مكتوبا له أن يعيش عمرا أطول، بلا جروح أو إصابات واضحة، معظمها شظيات رفيعة نثرت ندوبا دقيقة على ظهره وكتفيه والجانب الأيمن من وجهه، لا تميزها كندوب حرب إلا إذا أخبروك بذلك، وقد عشت أعواما أظنها آثار حبوب شباب قديمة. إلا أن هذه الحرب تركت في نفس عمي ما هو أعمق، إذ تهدم حبه لناصر.

استقال الرئيس، خرجت الجموع تثنيه عن قراره المفاجئ، وغير المفاجئ، في وقت واحد. وكانت مصيبة في بيتنا بكت لها جدتي طويلا وكاد ينهار جدي. عاد عمي صلاح سائرا على قدميه من حدود غزة، سلم نفسه في بورفؤاد، ثم نقل إلى القاهرة. بقدر ما سُرّ الجميع بعودته لكن أحدا لم يهنئه على ذلك. كانت حالته مزرية، عندما احتضنته جدتي "وِد" لتصدق أنه لازال حيا صرخ في وجهها داعيا على نفسه بالموت.

ثم كان خطابا لعبد الناصر يعتذر فيه للشعب عن الهزيمة، قالت جدتي: "رمى المعلقة ف الطبق وقام وهو بيقول: كذاب، كذاب"، دخل إلى غرفته، وقف الطعام في حلقي أبويه، وكان من عادته أن يغيب

في غرفته أياما يرفض الحديث مع أحد. يقولون حتى دخل عليه أبي بي. نعم، أنا، لم أكن أفارق أبي، عمي يبكي، الرائد محمد صلاح الدين مصطفى جلالة. ربت أبي على كتفه وقال: "بالراحة على نفسك يا صلاح"

فأجابه عمي ولم يرفع رأسه من بين يديه: "راحة يا شهدي؟ ده احنا سلمنا العساكر لليهود تسليم، أنا شوفت الطيران بيحصدهم زي الجراد، جيش بحاله ف صحرا مكشوفة بيموت أودام عيني ف لحظة، قائد خاين".

ولأول مرة يجد أبي نفسه مدافعا عن ناصر ولو من وراء قلبه، يريد استعادة أخيه، فقال: "لأ، يمكن طموحه أكبر من قدراته، مغرور زيادة، بس مش خاين.. انت عارف اني ما بقعدش لخطبه، بس ولا مرة سمعته فيها حسيت انه كداب"..."ارجعوا شغلكم وحاسبوه من هناك يا صلاح، خلوه يصلح أغلاطه".

عاد صلاح للبكاء بصوت أعلى وقال: "مش قادر، مش قادر يا شهدي، حاسس بخيانة".

قال أبي: "وحق اللي ماتوا؟ والا انت لما دخلت حربية كنت متخيل إن الجيش تشريفة ميري وأكل ف المواعيد وتهتف لناصر وترجع تنام؟ الحرب، أي حرب، مكسب وخسارة، من عشرين سنة والبلد ف حرب، ولما دخلت عسكرية كنت عايز ومضحي".

فتحت جدتي الباب بعدما كانت خلفه تسترق السمع مع جدي. قالت: "خلاص يا شهدي..أنا استنجدت بيك تطيب خاطره مش تعايره".

"واحنا مين يطيب خاطرنا؟ صلاح مش ست متطلقة بعيالها.. قوم يا صلاح". أبي.

صرخت جدتي: "شهدي". قال جدي مقاطعا: "شهدي بيتكلم صح".. "قوم يا حا الزابط، احنا لما دخلنا الحرب دخلناها عشان مصر والا عشان ناصر؟" رفع لهم عمي رأسه محدقا ولم يجب.

قال لي أبي: " شوفت الحيرة ف عينين عمك، كنت عارف انه شايف مصر وعبد الناصر شيء واحد".

جيل كامل نشأ على غناء أم كلثوم للزعيم الأسمر بشخصه ووسامته، تهليل عبد الحليم وچاهين، أدبيات الثورة برِواياتها وإعلامها وموسيقاها، تعززها جلسات الاتحاد الاشتراكي، خطَبه البسيطة في لغتها الجهنمية، في حلمها وحماسها، التأميم، تضافر الناس من خلفه في العدوان، قراراته حيال سوريا واليمن وليبيا والعراق وفلسطين والمغرب العربي والعروبة، والعالم، مشروع ضخم آمن به هؤلاء، انعجنوا به وفيه. كان من الصعب على صلاح أن ينجو، لأعوام، إنما في النهاية، رغم خسارات روحه، نجا.

***

أتمشى في الغرفة

أتمشى في الغرفة، أبحث عن فردة جورب نايلون قصير كانت في يدي منذ دقيقة، لم أرتح يوما في الملابس والأحذية التي تشتريها سماح للعمل، لستُ مضطرة لارتدائها حتى في ظروف يقولون إنه لا تتحملها إلا سراويل الجينز الغبية. لم أحبها مهما خفضوا خصرها أو زادوا نعومة قماشها ولمعته. أنا امرأة من زمن الفساتين. حمالات الصدر المبطنة عند الثديين أيضا أكرهها، صرعة قديمة عادت لترفع أنوثتنا عنوة وتكورها صوب الأمام، تجعل تنفسي أثقل وتحزّز أكتافي. أحب الأخرى، تلك الطرية ذات الدانتيل العريض، تحرر الحياة عندما نضحك، ونتحرك.

حينما أبلغوني بخبر الجلطة ودخول صفاء المستشفى لم أعد لبيتي، اكتفيت بملابس خزانة المركز. جمعتها في حقيبة، وأتيت.

خيالات ملاءة منشورة في إحدى الشقق تتحرك على هيئة شرائحٍ ترقص على سقف الغرفة والجدار المقابل للنافذة الموارِبة، جلستُ على حافة السرير في يأس، رفعت ساقي، ثنيت ركبتها لبطني، لازال يلفت نظري سهولة ذلك، يهاجمني أحيانا حنين لبدانتي القديمة. أدخلت فردة الجورب في قدمي اليمنى، لم أعثر على الأخرى، تمددت.

وضعتُ يدي في التراب، يد واحدة فقط في تراب ناعم ككحل جدتي الذي كنت أسكب بعضا منه على التسريحة، ثم أشرع في رسم دوائر ووجوه مخيفة، أو فراشات ودجاج وعصي وقطارات خرافية، تتحول الكومة بعد قليل إلى مساحة سوداء منتشرة ملطخة ببصماتي، كان المسحوق يلوث ملاقط شعرها وزجاجات الزيت المعتقة

بدرجات، رائحة الخشب والحيتان والغزلان، الاتساخ يضم الحيز الذي أقف فيه وملابسي ووجهي، في النهاية كنت أقترف الغاية التي من أجلها عبثتُ في غرفتها الباردة الظليلة صيفا، أفتح عيني بإصبعي بقوة مؤلمة، أدس اللون الباهر فيها، أدمع، أرشف، أبربش، أرقب نظرتي. كان يثيرني فعلا شعوري بأنني امرأة صغيرة.

كيس التراب ممتلئ حتى منتصفه، أفرغته في عتمة بيضاء من البراح، يختفي الغبار مباشرة، لمستُ وبرا خفيفا وشعْرا وكرات كحب اللؤلؤ والزجاج. شكّني سن صغير في إصبعي، حدوة فرس لها زاوية مدببة، ما لبثت أن صارت فرسا كاملة تجري على جسدي وأنا ممددة بين البياض، ثم قطيعــاً من الأفراس، تضرب بحوافرها الأرض وهي تركض مسرعة باتجاه عنقي، وحينما أخشى رفستها على وجهي لا أستطيع إخفاء ملامحي بكفي، تنزلق من على أكتافي مخثرة الندف إلى أطباق دائرية صغيرة، أكتشف بعدها أن يديَّ نظيفتان وأنني أقف في شرفة بيتنا القديم، مشهد الأطباق يتسع ويبتعد لتتركز في أدوار مربعة من صواني عم عزب بائع الزبادي. أهلوس.

أستيقظ وصوت نفيسة لازال في ذاكرتي:

"ابعت صينية هنا"

أتذكر وجه يحيى وهو معلق بين ذراعها وخصرها المنحني برفق على سور البلكونة، حماتي كانت أجمل مني، من يصدق الآن أنني تزوجت من رجل رأيته رضيعا في حضن أمه وأنا طفلة؟ مع بعض الأهازيج التقليدية وإبريق السبوع، رأيته أول مرة، وكان عمره عام، رشات الملح، قطرات الشمع التي لسعت أيدينا ونحن نطوف خلف امرأة حملته في صينية لا غربال، ملفوف بقماش منقط خفيف، برزت منه رأسا صغيرة حمراء دميمة. كانت نفيسة مرهقة، وإنما

سعيدة، المرة الوحيدة التي رأيتها فيها سعيدة، عدا ذلك فقد قضت حياتها بوجه جاف التعبيرات حلو القسمات.

سأؤجل موعد حسن لبعد الظهيرة، جذبت الغطاء نحو أنفي، عيناي تغلباني. أبحث عن الهاتف، لا أتحرك، لا أراه.

هل حضرت جدتي السبوع؟ كانت ركبتاها تؤلماها، هذا ما كانت تقوله عندما لا يسمح غرورها بزيارة كهذه، وأنا لم أدقق. حتى نهاية عمرها كانت "تيتة ود" في العموم بصحة جيدة، أنيقة ونظيفة معتنية بنفسها، تتحرك بحسابَ من شقتها للشرفة الخلفية المربعة المطلة على الحديقة في ظهر البيت، بينها وبين أحواض النعناع الصغيرة والريحان والجرجير وشجيرات الحناء أربع درجات، لكن لم يعنِ هذا أنها لم تختلط بنساء الحي، كانت مضيافة بشوشة بتحفظ بسيط يضمن مكانتها بين الأخريات. أرسلت معي كيس ساتان أحمر نبيذي، مغلق من طرفه العلوي بدوبارة ناعمة باللون نفسه، مملوء لنصفه بالملبّس، استكشفته بحدسي المقدِّس للحلوى، وضَعَت في جيبي حفنة ملبس كي لا أفتح الكيس على السلم وأسرق بعضه، تهللتُ للحلوى على استحياء. كانت تعرفني، وكنت أحبها لأنها تعرفني. كنتُ أعرف أيضا أنني أشبهها، أمي لا تفتأ تقول ذلك كلما رأتني. تضيف أنني أثير جنونها مثلها حين أخرِّب في برود وبلا ضجة.

مهمتي تلك الليلة كانت تسليم الأمانة ليد نفيسة وسط السبوع، بدون أن يلحظ ذلك أحد، لا زوجها، ولا تيتة زينب، حملقتُ في وجه جدتي وأنا أتحسس ما بين الحرير والملبّس، لم أكن لأخطئ الورقة النقدية الكبيرة، شهقت:

"عشرة جنيه بحالها يا تيتة؟!"

كشفتُ الغطاء ولم أزل مستلقية، حركت قدمي، أشعر بجورب في اليمنى، والأخرى عارية، أنهض بصعوبة، أنزلهما عن السرير، الأرض باردة. وأنا مكاني أنزع تيشيرت البيجاما القطنية الذي لا أزال أرتديه فوق البنطلون الجينز. ألتقط قميصا من على ظهر المقعد ببطء، النسيج لين لمسته مريحة. ماركة ساتان شهيرة. لا يضعون رقع لتعليمات الغسيل والكي على قفا الثوب، تنهش أعناقنا من الخلف. بالعالم أناس يتعاملون مع التفاصيل بآدمية. لهذا أتحمل بقية سخافات الاستعداد للخروج.

بحثتُ عن شيء انتعله، دخلتُ المطبخ، لم يكن ليعاودني الحنين للتدخين مثل هذه اللحظة، علبة السجائر أمامي، الثقاب، المنفضة، أريكة صفاء القديمة التي طالما أغرمتُ بحشوتها الطرية، ووسائدها الكبيرة المنفوشة. حتى شريط الأقراص المسكنة، التي نصحتُها بها منذ أعوام، هنا. كل شيء لإبطاء التوتر أو تأجيله متوفر، لكنني بحثتُ بعصبية فوق الأرفف عن البن والكنكة، المكان مرتب نظيف، صفاء موسوسة وسارة اختارت أن تطيعها لترتاح.

فتحت كل ضلفة صغيرة أو كبيرة مغلقة، تركتها مفتوحة، ووقفت منتصبة وسط المطبخ أدعم ظهري بكلتا يدي، أمنّي نفسي بأنني سأضع ملعقة سكر إضافية فور أن أجد ما أريد، وسأؤجل موعدي مع حسن.

**

بعد سنوية والدها سرعان ما أعلنت أمينة رغبتها في بيع شقتها بالطابق الثالث لصالح بيت يبنيه زوجها في الحي الجديد قرب الجامعة، يحتاج لمال كثير. زينب التي لم يردها عفت لعصمته ثانية

عاشت وماتت من بعده تحمل لقب مطلقة، سألت ابنتها: "وهايكتب لك شقة في عمارته الجديدة بدل اللي هاتبيعيها؟"

"مش عارفة يا ماما..أنا كل همي ألحقه، ما يستلفش من اخواته أو أعمامي".

"وليه لأ؟"

"ما انتي عارفاهم.. قصاد السلف ده مش بعيد يبيَّعوه نُص عربياته"

"تقومي تبيعي انتي شقا ابوكي؟"

"يا ماما.."

"سيبيكي م الكلام ده، انتي عايزة فلوس، عرابي بخيل، مجوعك عشان يكنزهم ف البنك، الهدمة اللي عليكي بالخمس سنين ما بتتغيرش"

"لا والله يا ماما مش مأخر عني حاجة، العيال كتروا علينا، وأنا عايزة الفلوس لحاجة تانية"

بعد عام ونصف من هذا الحوار ماتت أمينة، في ظروف شديدة القسوة وإنما غير مفاجئة، معاناة متدرجة مع سرطان الثدي، انتهت بأن فارقت هذه المرأة الحياة ذات مساء كئيب في مستشفى المنصورة الجامعي.

دفع فهمي للعرابي ثمن شقة أمينة كاملا، ثم عاد فدفع السدس لزينب، كتب الشقة باسم نفيسة، وانتقلا بطفلهما وفرن صغير وطاولة المخبوزات إليها.

كانت نفيسة، استعدادا لزواجها من فهمي، قد أدخلت غرفة النوم الرئيسية بشقة إيڤان في المطبخ بأن هدمت الجدار بينهما، ثم نقلوا بقية أجهزة وطاولات ورشة الحلويات من بيت قمرية للمختلط. ثلاثة أعوام قضاها فهمي وزوجته الجديدة بابنهما في غرفة لها باب وحيد على المطبخ، وحمام. ظل هذا القسم كما هو حتى اليوم الذي خرج فيه يحيى من المنصورة بلا رجعة، ولا أعلم كيف صار الآن.

أُلغيّ باب شقة الطابق الأرضي بعدما جاءت تقسيمته مع المحل. فإذا أرادوا توصيل الكعكات والصواني من المطبخ للدكان خرجوا من باب الخدم بالمطبخ، منفذهم الوحيد للخارج، يسيرون حتى بداية المدخل ثم يستديرون يسارا حيث باب المحل وواجهة العرض.

حينما انتقلوا للشقة الجديدة بالدور الثالث، كررت أم يحيى نفس الهندسة، دمجت الغرفة الملتصقة بالمطبخ معه ليتسع لأرفف أطول وأعرض. طاولة كبيرة، ومقاعد، وبالطبع لم تفتح باب الغرفة الثانية على المطبخ، لتلك الشقة ممر متوسط المساحة يفضي إلى صالة كبيرة في نهايتها غرفتين أخريين. بهذا استطاع الجزء الخلفي من شقة إيڤان الذي كان سكنا لهم أن يستوعب عددا إضافيا من برادات الحفظ، مفسحا الطريق لثراء الأشعل.

حافظت تيتة زينب والعمة عواطف على شكل المطبخ الأصلي منذ سنة ١٩٢٠ بنافذتيه العريضتين وسلم خدمه ورفه الرخامي المثبت في الحائط قرب الحوض المصنوع من حديد الزهر، قابلته نملية خشب كان لونها أخضر، تخرج عواطف لنا منها الفوندام والبسكويت المسكر بعد جهد في الوصول إلى المطبخ. حدث هذا كله في عهد كان مسموحا لي فيه بالدخول والخروج من هذا البيت للعب مع يحيى.

هذا المطبخ الذي أقف فيه الآن، بالطابق الثاني من عمارة عبد الرزّاق، بقي لزينب وعواطف كما هو حتى ماتتا، وورث الشقة فهمي، وكتبها أيضا باسم نفيسة، التي لم تغير فيها شيئا حتى أجّرَتها بعدها لأنور وصفاء.

***

الحياة تعيسة

لقد رأيت الخالة قمرية في مأتم عم فهمي، وكانت امرأة عليها وقار لطيف، لم تكن قمحية فعلا كما كانت تردد أمي، وإنما أكثر بياضا من قمحية. لم تكن أيضا طويلة كنفيسة، ولا في شراسة نظرتها وفمها المتكئ على سخرية مقيمة. قمرية أشبه بحمامة، عيونها سوداء مستديرة، فمها أيضا مستدير، صغير، بشفتين غليظتين، أنفها صغير، ووجهها تستقر في جنباته الرحمة.

كانت حين رأيتها لا تبكي، لكن نظرتها التي لم تفارق الأرض إلا نادرا مبتلة. ملابسها السوداء مطرزة ببلورات زجاج أسود دقيقة، عليها حجاب من الشيفون الجيد، لم أر أثر الفقر القديم عليها، وإنما قصص الكفاح التي سمعتها عنها مدونة على صوتها الهادئ وحديثها العميق، سألتني إن كنتُ جارة عادية أم من عائلة عبد الرزاق فأجبت بأنني ابنة شهدي جلالة صاحب الصيدلية أسفل البيت المجاور، فقالت تشبهين المرأة الطيبة في ذلك المنزل، كنا ندخر مالنا عندها في الأيام الخوالي. فقلتُ: "جدتي ود". قامت معي فزارتها ووصلت ما انقطع.

شكر أبنائها لفهمي طوال حياته وحتى الآن صنيعان، أنه ترك لهما أمهما كاملة، لم يشعرا بأنها تزوجت من جديد، وكأنها دون مساس كما مات عنها أبوهما حتى مات فهمي هو الآخر، لم تنجب منه أيضا، الأمر لم يكن يتخطى عناقا عفويا في مناسبات الفرح والشدة، أو قبلة على اليدين والجبين، وأن يدعها تمرضه حينما يشتد

عليه ألم ظهره قبل أن يجري عملية ساقه بعد ذلك بأعوام. لم أكن أفهم كيف يزهد رجل امرأته المباحة وتزهده لردح طويل من الوقت.

الصنيع الثاني أن فهمي كان حلقة الوصل بين سعد وعمي صلاح، وإن صح القول فإن سعدا رغم انتسابه طبيعيا ورسميا لفواز، ورغم أنه تربى بضع سنوات في كنف فهمي، إلا أنه كان بالروح ابنا لصلاح. لسبب نفسي تماما كان عمي يرى في عزم سعد وعناده امتدادا له. صنعة معروف؟ ونَس؟ صداقة؟ شعور بالأبوة؟ مساعدة لفهمي؟ كل ما سبق؟ لقد كبرت على سيرة الفتى على لسان عمي صلاح كلما حكى عن القاهرة، ولم يعارضه جدي مصطفى أو تراجعه جدتي ود. حينما أتم الولد تعليمه الإعدادي رأى صلاح أن ينقله إلى مدرسة ثانوية بالقاهرة، واهتم بتدريسه الرياضيات والرسم واللغة بنفسه، بقية المواد دفع به إلى مدرسين جيدين، علمه ممارسة الرياضة ونوعية الغذاء السليم، جهزه بطريقة إعداد الجند للالتحاق بالحربية، تلك التي لم يكن يرى عمي غيرها مهنة للرجال.

لم يعد فهمي ثانية لسيدي يونس مطالبا بنصيبه من أرباح الفرن. كما لم يدخل وكالة مرعي منذ أن مات عفت، تعامل مع الحياة وكأنه نبت جديد في أرض جديدة حينما دخل بنفيسة، كانت نعمة لا تضاهيها لديه نعمة.

بعد أن صار عمر يحيى عامين كانت مشاكلهما الداخلية قد بدأت تصدر عن بيتهم كدخان خفيف ما لبث أن تكثف. شكت نفيسة لجدتي أن فهمي ضعيف الجماع، نطفه لا تستقر في رحمها.

"الكتكوت ده كده باينه جه صدفة" مشيرة إلى يحيى.

"يعني هو الشريف اللي كان عفي؟" قالت جدتي.

أدارت نفيسة وجهها، نظرت للأرض ورفعت حاجبيها. "الله يرحمه ماكانش في زيه" قالت.

وصلت أحاديث الضعف لمسامع فهمي ولم يعقب، كان قويا بالمعنى المجرد للذكورة فيما بينهما. أحبها بشهوة، واشتهاها بحب. سعيدًا، تغاضى عن التلميحات بابتسامة الواثق وهم لا يعلمون. بعد شهر اكتشف أنها تستعمل مانعا للحمل، فواجهها، لماذا لا ينجبان أطفالا بعد يحيى؟ فقالت: "مش لما تجيب لي حقي الأول؟ هنقعد نجيب عيال وفلوس أمهم متبعزقة عند الناس؟ أومال انا كنت متجوزاك ليه؟"

"عشان أجيب لك فلوسك؟".. "لو على كده ما كنت جيبتها لك من غير جواز.. كان أيه لازمته.." لم يكمل حديثه.

"هاتها الأول يا فهمي وبعدين تعالى حاسبني على نيتي من جوازي منك".. "أنا نفسي ما اعرفش اتجوزت تاني ليه". قالت نفيسة بصراخ فسمعنا.

حينما اختفت قمرية من الصورة، عقب سفرها للقاهرة بشكل نهائي، لترعى أبنائها الذين يتلقون تعليمهم هناك، تحولت نفيسة شيئا فشيئا إلى كابوس. يمر الأسبوع والشهر ولا تبتسم. تنشر الغسيل، تنظف النوافذ، ترتب الأغراض عابسة. لا ترد على تحية، ولا تجيب على سؤال.

"سيبوها، هي صنفها نمرود من يومها.." قالت جدتي. في الوقت الذي سحبت زينب نفسها من كل الأمور. حيث كانوا يتشاجرون على مرأى منها من وقت لآخر. فتشفق وتسخط على نفيسة، وتدعو الله في سرها لفهمي أن يحتملها.

"البيت بقى بتاعك انتي وجوزك، ماليش فيه غير نص شقة، سيبوني أراعي البت اللي باقية". قالت زينب لنفيسة. "ورث ايه وغم ايه، الراجل مش مخليكي ولا مخلينا محتاجين حاجة، ارجعي لعقلك ما تغلطيش غلطة خالك.. الله يرحمه بقى". زينب أيضا.

***

أنا ويحيى

لازلت أذكر القردة وهي تعبث بكل شيء، فوق الأسوار الحمراء التي نما عليها الطحلب، وبين الجدران المتهدمة أو التي لا تزال صامدة من المعبد البنغالي القديم، صار لونها كالتراب، لم أميز يوما لأي معتقد أو حقبة تنتمي تلك التماثيل الكبيرة والصغيرة المنتشرة في الباحات والغرف وفوق الأعمدة، القطع المتحطمة تستخدمها القرود لأغراض شتى، وقد تلهو بها لمجرد اللهو فتعيد كسرها. الإضاءة، وكأن الشمس تميل للمغيب. واحدة من الإناث تمر بإصبعها بين كتفي صديقتها، ثم تضغط على شيء تخرجه من الشعر وتضعه في فمها. السلم مدفون تحت الأرض تتحرك فوقه حية تتهيأ للخروج من جحرها، أتذكر الآن أنني كنت أسبح في بركة من التهيؤات حول رسومات القصر في كل مرة أشاهد فيها هذا الفيلم، الفيلة والفهود والرجال، جماليات فخمة لقباب وأبراج تنتصب فوق تل مرتفع، أشجار معمرة تحيط بالمكان، قنوات الماء تسري بين الجذوع المتراصة تجعل منه فردوسا خاصا مرئيا مُهابا، لا يقربه كل عابر، موسوم بلعنة قصة بين بني البشر، تهاجمني المشاهد برائحة حب أو هروب أو انتقام، أفيق على أنياب تأكل الشاشة، وصراخ بعض النساء في قرية مجاورة للقصر، أبقار بطونها منهوشة، ورجال شُوِّهَت سيقانهم وظهورهم، هياكل أطفال مخطوفة ومأكولة. بحثت منذ عامين على شبكة الانترنت، لمصادفة توثيق أو فيديو يربط بين ذكرى الفيلم في مخيلتي واسم وصور أي مقاطعة يكون قد تحدث عنها البرنامج، فلم أجد شيئا. كنتُ في العاشرة من عمري ذلك اليوم ويحيى في

الخامسة سنة ٧٢، لم يكن التليفزيون ملونا فعلا إنما هكذا كنا نتمنى ونتخيل. البداية الحقيقية بيني وبين يحيى في حساباتي قبل أن يحاولوا فصلنا عن بعضنا كطفلين، ثم صديقين.

قبل هذا بعام، ذات جمعة، تعلقت بأحد أكمام أبي بعد الصلاة كما يرسمون في كتب القراءة وهو يخبر أمي بأنه سيزور فهمي لأنه مريض. دخلنا شقتهم بالدور الثالث التي كانت عالما مبهما مثيرا للفضول في رأسي على كل المستويات. انتهزت الفرصة وأطلقت أصابعي بين أرفف وصناديق الألعاب الغريبة التي يملكها طفل الجيران، سألته لماذا لازالت وكأنها لم تمس، حملق في ولم يجبني.

"مغلبني ما بيردش، وما بياكلش، طبق غداه زي ما هو ف المطبخ". قالت أمه.

" كلتوا ايه النهارده؟" قلت.

"بسلة". ثم نهضت بدون طلب مني وأحضرت الطبق.

رائحة الطعام يغلب عليها الثوم، الأرز مطهو على أنه أبيض، ولكن لونه تحول إلى الأحمر بفعل الصلصة الكثيفة المضافة إليه مع الخضروات. رأيت في جانب الطبق مكعبات الجزر والبطاطس وقطع صغيرة مفتتة من رؤوس القنبيط ثم بعض البازلاء، تأفف الولد وأبعد وجهه حينما قربت الصحن منه، تذوقت شيئا من الخليط بالملعقة فوجدته سيئا، قليل الملح كثير الحموضة بسبب الطماطم الحادة بالثوم والبصل، بارد. كانت تراقبني بسحنة متوجسة، جالسة نصف جلسة على مقعد مغطى بكامله بالمخمل، قريبا من سجادة اللعب الصوفية الحمراء الكبيرة في غرفة الألعاب، فكرة غرفة الألعاب في حد ذاتها بالنسبة لي كانت مفاجأة.

"ينفع نسخن الأكل ده؟" قلت. نهضت المرأة منفرجة السريرة وكأنني وجدت لها الحل، ثم عدت فقلت لها قبل أن تغادر الغرفة تماما: "ويا ريت يا طنط لو تقللي الصلصة وتزودي الملح والخضار"

كانت إجابتها المرتابة: "حاضر"، وانصرفت.

غادر أبي دون أن أشعر ولم يأكل يحيى كل طبقه، اكتفى بخمس أو ست ملاعق من الخليط المحسّن، ثم التقط بأصابعه بعدها بضعا من حبات البازلاء ومكعبات الجزر ووضعها في فمه، ضحكنا حينها وأخبرته بأن شعره له لون الجزر الذي في الطبق، استهوته اللعبة.

"دا شبه الرمل" قلت أصف النمش على وجهه.

"السمسم" هو.

"الرمل" أنا.

"السمسم" هو.

تأملت النمش على وجهه بتمعن كان بين الحجمين رمل وسمسم، تملكني شعور بأنه طفل مثير للاهتمام، وذكي. فجأة لم تعد تزعجني ضحكته التي تشبه عجوز منفعل، مع لعثمة ابن الرابعة حين يتكلم وهو يضحك، لم يركب جملة مفيدة لكنني أردتُ أن أفهمه.

توالت أكواب العصير وأطباق الكعك والبسكويت عسى أن يأكل طفلها منتهزة فرصة وجود طفل آخر. في النهاية دق باب المطبخ لتنتهي الزيارة.

"ماما عايزاكي" أختي هدى.

"سيبيها شوية، ده لسه يحيى بادئ يتحرك ويضحك، نفسي يكلبظ ويبقى جميل زيها".

ابتسمت هدى ابتسامة سمجة وكررت نفس العبارة: "ماما عايزاها".

"ما بتخلفيش تاني ليه يا طنط؟ يحيى محتاج اخوات" قلت.

ابتلعت المرأة ريقها بغصة، حافظت على ابتسامتها الواسعة.

"تعالي انتي بكرة العبي معاه، لحد ما نشوف حكاية الاخوات دي" قالت.

أضحك الآن وأتحسر على ما جرى بيني وبين نفيسة بعد ذلك، وحتى ماتت. ألا أعيد تاريخي معها في ذاكرتي كل ليلة لا إراديا؟ كل ساعة، كل دقيقة، أحاول أن أصل إلى سبب الخلاف العميق بيننا. سبب الكراهية الحقيقي الذي جعلني أكبر منغص في حياتها؟

ثم في كل مرة، وأنا بين الدموع والنعاس، يقدم لي عقلي مهدئا قويا أتمسك به. نفيسة في الأصل ومن قبل أن أولد لم تكن امرأة سعيدة، أو محبة لشيء. كرهتني كما كرهت كل تفصيلة في حياتها، لهجتها الإقليمية، ملابسها، لون شعرها، أثاث بيتها الذي تغيره كل عامين، اسمها الذي على اسم أمها، كل تفصيلة، لم أشعر يوما بأنها أحبت شيئا أو أحدا، حتى يحيى لم تحبه بأمومة صحيحة.

أتذكر في ذلك اليوم، يوم برنامج عالم الحيوان، كانت المرة الأولى التي تقفز فيها الكراهية من عينيها بحدة، لاحقتني بالرفض أينما حللت وأيما فعلت، أذكر أنني حركتُ رأسي يمينا ويسارا تقززا من بشاعة منظر النمر الذي يلتهم ساق رجل حي انفصلت عنه بعد الهجوم، انقض عليه وهو نائم أمام بيته ليلا يحرسه، يحمل حربة باتت بلا قيمة الآن، فظل يصرخ في هلع قرب الحيوان الجائع، عاجزا، يطلب النجدة.

رفعت بطني عن الأرض لأقعد مظهرة انزعاجي من الصور، أغطي عيني بكفي، فيصيح "يحيى" ضاحكا: "خلاص خلاص، راحت".. "بصي بقى".

كنت أتأكد من المشهد الذي أحبه قبل أن أرفع أصابعي عن وجهي، أبعد الوسطى عن الخنصر وأختلس نظرة، هكذا حتى أسمع صوت البطات والإوزات التي تصيح في سماء زرقاء فسيحة مهاجرة نحو الجنوب في أسراب، حيث الدفء والابتسامات السمراء.. مع موسيقى أفريقية شهيرة وصيحات في الأدغال تعلن انتهاء البرنامج.

"طنط" أم يحيى– كانت تكره لقب (خالة)- جلست ترتق شيئا بعصبية على مقعد مجاور لجلستنا، أو رقدتنا، فوق السجادة الصوفية ذات اللون القاتم. نرتمي كيفما اتفق فوق الحشيات الغارقة في شمس الشرفة فتنهرنا وتأمرنا بإعادة الحشيات إلى مكانها على آرائك غرفة الأنتريه. تذكرنا بأنها باهظة الثمن، جديدة، وبأنها قضت نصف النهار تنظفها وتعتني بترتيبها ورعاية البيت كله. ننفذ ما طلبت في طاعة مفتعلة، ثم نختفي منها في غرفة ثانية، نعود فنضحك ونحن نقفز فوق المقاعد الطرية المحفزة على تكرار القفز، ثم يبدأ فيلم عربي على نفس القناة غالبا ما كنتُ أحبه. يومها طلبت الخالة من يحيى كل المهام الصغيرة السخيفة كي تنتزعه من أمام التليفزيون، ينهض لدقيقة ثم يعود محضرا الغرض مرددا شيئا من الأقوال التي نحفظها لبرامجنا المفضلة، فأضحك، ثم يثرثر بعدها بعبارات المعلقين على الدعاية باللهجة القاهرية المعروفة، كان يحفظها عن ظهر قلب، خاصة إعلانات البونبون وشفرات ومعاجين الحلاقة. كنتُ أحسده طوال الوقت لأن لديهم جهاز تلفزيون في بيتهم، يشاهدونه ما لا يقل عن ست ساعات يوميا. التليفزيون الأول في حينا، وكان يحيى يضيف: "والأول في المنصورة كمان"، في سياق قصص أسطورية يرددها

الصبي عن إنجازات والده في إحضار التكنولوجيا إلى عالمنا، تلك القصص التي أقنعتني في البداية وكنت أشعر بأهمية بيت عم فهمي بسببها وبيحيى بالتبعية.

انتهى الفيلم أيضا وهممنا بتغيير القناة حين جحظ نفور الخالة وقالت باختناق: "كفاية، روّحي بقى زمان ماما بتدور عليكي".

أجبتها: "مش هتدور، هي عارفة انا فين"

"طب روحي عشان يحيى هاينام" قالت.

فيقول يحيى بعناد: "انا مش هنام، المغرب ما أدنش حتى".

ضغطت الخالة على أسنانها، نهضت لتدخل مطبخها الفخم المنظم الذي يعج بالأواني البراقة المرتبة، كان يعبق دائما برائحة ميرنج البرتقال والليمون المسكّر، هنا أو هناك قوالب الحلوى الأوروبية التي تبرع في خبزها دونا عن جاراتنا الأخريات ليبيعها عم فهمي. ظننتها ستلتهي بفعل شيء ما، بإلقاء أمر على أم فطيم، خادمتها، لكنها توجهت مباشرة نحو سلم الخدم بعدما سحبت في طريقها منديل رأس، ربطته بغير إحكام على شعرها الأحمر الطويل، عبرت الجسر الخشبي بين البنايتين وطرقت باب مطبخنا. لم تنفعل أمي لاعتراضات السيدة، إذ كانت تعتبر نفسها أكبر من خلافات كثيرة بين الأسرتين، حرصت والدة يحيى حتى نهاية عمرها أن تظهرها للجميع على أنني السبب فيها. لم تكن المرة الأولى خلال العام التي تنوه فيها إلى أن بقائي للعب مع ابنها كل هذا الوقت يزيد من اعتلال طفلها الضعيف بالولادة، الشاحب دائما، قليل الأكل غريب الميول من وجهة نظرها، وأنني أزيد من تلك الغرابة. تبادر بطردي بطريقة تراها لبقة بالنسبة لما تحملته مني طوال الزيارة، كنت في نظرها مزعجة، بل وأحرض ابنها على التمرد وقلة التهذيب.

"مش كل يوم تبعتيها لي عشان تفضي نفسك لقراية المجلات" قالت نفيسة لأمي.

هذه العبارة مثلا كانت دليلا واضحا على عقدتها الأبدية من أمي؛ المتعلمة، في حين أن الخالة نفيسة لم تدخل مدارس..

في ذلك اليوم كان قد طفح كيل أبي نفسه، جذب أمي للداخل وتقدم بسرعة مكانها قبالة جارتنا أم يحيى حافي القدمين ببيجامته النصف كم من قماش اللينو المخططة بالبني والعاجي، وقال باقتضاب: "مالوش لازمة الكلام ده يا ست أم يحيى، ارجعي شقتك خلاص، البنت ماعادتش هاتيجي عندكم تاني".

دخل، أغلق باب مطبخنا بقفله النحاسي، الذي ما يزال موجودا حتى الآن، ومنعنا جميعا من فتحه إلا بإذنه، بل ومنع أمي من فتح النافذة العريضة الممتدة على نفس الجدار والمطلة على المطبخ المقابل، ثم منعني أنا بالذات من اللعب مع يحيى "لا في البيت ولا المدخل"، فكان يوما مصيريا.

تألمتُ لهذا الفراق أسبوعين كاملين وهو وقت طويل للألم بالنسبة لطفلة، أعيتني الحيل في البحث عن تسلية جديدة، جربت القصص الصغيرة المصورة، والعبث في حديقة جدتي مع شعبان ملاحقين الدبابير والفراشات الصيفية، جربتُ الجلوس في مدخل البيت لمراقبة زوار الصيدلية، ورسمتُ خريطة "حجلة" على أرض شرفتنا ورميت حجرا متوسط الحجم بين مربعاتها واتبعته في قفزات اللعبة بالترتيب.

لفتني وقتها أن صدري بدأ يكبر كنتوء هلامي ينفر خارج سطحي المعتاد، مع الوقت لاحظت ردفاي أيضا، كانا يهتزان مع القفز والأرجحة، جديلتي تنتفض للأمام عبر كتفي وعنقي، فأعيدها

بحركة سريعة للخلف وأكمل اللعب. يحيى فشل في اللعب بالشارع مع الصبية الكبار، لأنه أكثر وداعة وبيتوتية رغم التحدي في عينيه، وكالمتوقع مع أول جرح في وجهه نتج عن سقوطه وهو يلاحق كرة (شَراب) في الهواء مصوبة بقوة أفلتت منه كحارس مرمى هش فسقط، كان قرار والدته الحاسم والأخير: "مفيش لعب تاني في الشارع".

كنتُ أفكر في حل عقدة مهمة حين نادتني أمي، فقد رسمت مربعات اللعب على بلاطات شرفتنا الأمامية، وكنت أفكر جديا: أأمحو الرسم حيث أنني بعد الغذاء سأثقل عن مواصلة اللعب؟ أم أن ما بقي من النهار سيكفي للهضم ثم معاودة اللعب؟ كررت هي النداء بصوتها الهادئ الثقيل لأتغدى، متممة وصلة التوبيخ بـــ: "مش كفاية مش مستفيدة منك في شغلانة؟ كمان عاملة نفسك مش سامعة؟".. "تعالي الأكل اتحط". وقفتُ أنظر للرسم على البلاط، ثم أنظر لاتجاه الشمس لأقدر متى ستغرب. تنبهت فجأة إلى تكرار وتدرج ارتفاع الصوت: "بِسسس.. بِسسسس"، خفت في البداية، لا أعرف لماذا، لم أخمن بسرعة مصدره، لكن مع تمييز الوجه المألوف في الجهة المقابلة لجانب البلكونة، ومع اقتراب نهاية ذلك الصيف اهتديت أنا ويحيى إلى اختراعنا الخاص الذي دام لأعوام، سرقة حديث من الشرفة.

***

ابن وردة

في مطلع العام ٧٥، في اليوم الذي أبلغونا فيه بموت أم كلثوم، عدتُ من المدرسة ما يقارب الثالثة بعد الظهر، أفكر في عبارات مثل "ظاهرة في الغناء لن تتكرر"، "فقيدة الفن والوطن"، "صوت التاريخ والمواقف" المذياع في مايكروفون المدرسة قام بالواجب. تبادلنا أنا وزميلاتي أمارات حزن حقيقية بين الحصص وفي الفسحة، ومنا من طُرِدَت من الدروس لأنها لم تتوقف عن البكاء في الفصل. كنت أظن أن دادة شوقة تبكيها أيضا حينما مررت بهم في طريقي لشقتنا "هياخدوا الواد مني يا ستي" قالت بين يدي جدتي بحرقة وخوف.

لوى شعبان فمه، أخذ قنينة ماء لأبي في الصيدلية ومضى.

"حرب إيه يا ولية اللي هياخدوه ليها.. ما خلصت". قالت جدتي. نظرت نحوي واستطردت بصوت منخفض"ثم إن النادي بقى شحط على إنهم ياخدوه ".

كانت الأقوال تتردد حول أن الرئيس سيبرم اتفاق سلام مع اليهود لتتوقف حالة اللاحرب واللاسلم التي وصلنا إليها بعد ٧٣، و٧٤. هناك من أيدّ وهلل ككثير من أفراد عائلة مرعي. وهناك من اكتأب وعاتب وتبرأ كجدي مصطفى.

هناك أيضا من ظل يتخبط في حيرة بين الموافقة والمعارضة، كعمي فهمي، قضى ليالي طويلة يحقق مع عمي صلاح خلال زياراته للمنصورة حول وضع الجيش وحقيقة تلك الأخبار، فيرضى ويسخط، يتردد ويحسم، ثم يتراجع في النهاية على شك ليتابع شئونه الخاصة.

شخصان لم يكترثا للأمر، أبي الذي لم يهتم بالحكم على الأمور الآن، خاصة وأن شئون السياسة طالما أزعجته. لم يحب حزمة سياسات الانفتاح التي وطد لها السادات. كما راقب أمرا آخر باهتمام شديد؛ ارتفاع الإسلاميين في المناصب واقترابهم من أهل الحل والعقد، إن لم يكن منهم فعلا من يحل، ويعقد. تزايد نشاطهم في الشارع، المساجد الجامعات. كان مشغولا بقراءة الحراك المجتمعي في الداخل أكثر من التكهن بما في رأس السادات نحو إسرائيل. الشخص الثاني كان جدتي، كلما اختنق جدي بالحديث حول الحرب والعهر والكرامة مقسما بأن تلك الخطوة ستفكك الجيش وتقلبه على رئيسه، ضربت جدتي على ظهره ضربات خفيفة وهي تناوله الماء ليبتلع ما وقف في حلقه من طعام قائلة: "ما يتحرقوا كلهم على بعض يا خويا، صحتك يا ابو صلاح".

أمي خارج كل الحسابات. كانت ستتكلم في السياسة فقط لو تكلمت أختي مريم فيها.

لم تأتِ الشرطة إلى بيتنا تلك الظهيرة تسأل عن النادي أبو ستيت لنداء الحربَ كما تكهنت أمه. تخطى ابنها الأربعين. أدى خدمته العسكرية أيام عبد الناصر. يعمل بالحدادة، متزوج ولديه ثلاثة أو أربعة أبناء. لم تجده الشرطة في بيته أو ورشته، فسألوا عليه عندنا. أبوه، مكي أبو ستيت نفسه مختفي منذ بضعة أيام. حتى عن أبنائه أو زوجاته. لم يكتشفوا ذلك إلا يوم البحث عن النادي. طرق شعبان كل الأبواب واستقر في بيت أخيه في النهاية. جلس يلاطف الصغار ريثما تسأل أمهم عن زوجها في بيت معلم الورشة.

بعد ساعة عاد النادي إلى بيته، نظر شعبان إليه غير مصدق أنه عاد، كان منهكا حزينا لسبب غير واضح. دقيقة وكانت ضربات أقدام

المخبرين على السلم، طرقات سريعة قوية على الباب لم يصمد أمامها، انفلت المزلاج الهش الذي يمسك ضلفتيه، وأصبحت الصالة تعج بأحد عشر رجلا ضخما عكر السحنة، غير شعبان والنادي والأربعة أطفال.

صاحت زوجة النادي وهي تركض بشبشبها الزحاف خلف سيارة الشرطة: "واخدينه لييه؟ سيبووه"، وبدأت تبكي: "عشان ولاده سيبوه". خرجت السيارة من شارع الحسينية الذي ضاق بانتشار ورش الخراطة والحدادة وبداية محلات بيع قطع غيار السيارات. ذلك المشهد لم يفارق مخيلة شعبان حتى الآن.

النادي، الابن البكر لدادة شوقة، لم يرث عن أبيه لونه الأسمر، أما شعبان فقد ورثه كله. للنادي أنف غليظة كأمه، وعيون قاتمة، وفم واسع ممتلئ، طويل مكتنز قوي البنية، له كفان عريضان أصابعهما سمينة، صوته هادئ غير حاد.

"محبوس ليه يا بيه؟"

"يستحسن ما تسألش يا حاج مصطفى، الواد وابوه متهمين في قضية قتل"

ضربت دادة شوقة صدرها بكفها وقالت بفزع: "يا خرابي؟ قتل؟ ده النادي نسمـــ.."

"اسكتي يا ولية يا تطلعي من هنا" قال الضابط بقسم ثان المنصورة، "خدها يا شاويش" فقالت شوقة بحسرة مكتومة والدموع تتزاحم فوق جفنيها: "خلاص والنبي يا بيه هاخرس خالص"، نظر الضابط لجدي وقال: "خدها وروحوا يا حاج مفيش معلومات، الواد هايفضل هنا لحد ما ابوه يبان".

"طب نبعت محامي؟"

"ابعت، بس بردو مش هيوصل لحاجة"

لم تكن هناك سجلات تحقيق ولا محضر، ولا ما يدل على أن النادي محجوزا في القسم، هذا ما قاله المحامي. وحينما أعلم جدي عمي صلاح بالوضع قال: "شكلهم عاملين بلوة يا بابا".

مر على الحادث شهر أو يزيد ومع اقتراب استعدادات المدرسة لعيد الربيع، واشتراكنا في تنسيق الزهور تعلمنا أنواعها وطرق زرع بعضها في حصة الزراعة، نادى جدي باسم أبي على السلم صباح يوم جمعة في وقت مبكر، وطلب منه أن يرسل مفتاح الجزء الداخلي من الشقة الأرضي معي، ومعي أنا بالذات. كنتُ أحاول إقحام كمية أكبر من مربى الفراولة في قطعة الخبز المطوية بيدي حينما سمعت ذلك، وضعت القطعة المغمورة بالهلام الدبق في فمي بسرعة، وضعت فردة الشبشب الساقطة من قدمي في القدم المكشوفة ونزلت. أنهيت المضغ وأنا أرتب خصر فستاني الذي ضاق ببطني وعيناي جاحظتان لمظاريف الورق البيضاء الصغيرة في يد جدي، كنتُ أعرفها، كتب على إحداها ورد بلدي، جارونيا، عباد شمس، هبط السلم ببطء أمامي وهو يقول: "دورت لك على بانسيه قالوا لي مش موجود، وكان ف المشتل ياسمين هندي وأضاليا ستك طالباهم، حجزتهم، الحنطور يروح يجيبهم".

فتح باب الشقة الأرضي ودخل مباشرة إلى الغرفة التي كانت له هو وجدتي في السابق، فتح باب الشرفة الخلفية ونزلنا إلى حديقة جدتي، أحضرنا الجواريف وسكاكين الزراعة والمرشة وبدأنا في مراجعة التعليمات المكتوبة بخط اليد على كل مظروف وإتباعها عمليا بالخطوة، في هذه اللحظة شعرت بفلاش كاميرا يضيء فجأة

وصوت كليك محبب لدي، كان التصوير في مخيلتي في تلك الحقبة مرادف للمناسبات الخاصة والحفلات الليلية فقط. وقف عمي صلاح والكاميرا في يده ويقول: "كنت ببص عليكم من فوق ما حسيتوش بيا، دخلت جيبت الكاميرا وقلت الجوز دول لازم يتلقط لهم صورة". لازالت هذه الصورة لدي حتى الآن.

رشف عمي صلاح رشفة من قهوته واستند بكتفه على جانب فتحة الشرفة في محاولة لقول شيء جذل يثير اهتمام جدي الذي لم يتحمس كثيرا لفكرة الصورة أو وجود صلاح هنا الآن، فجأة قال: "يعني الواد ها ياخد حكم زي أبوه؟"

قال عمي صلاح: "بيقولك قتلوا البنت يا بابا ".. "أبو ستيت ماعندوش ضمير وانا من زمان قلت لك سرَّحه، مجرم، ما اعرفش مصمم عليه ليه؟"

قال جدي: "وهو فين عشان أسرحه هو متسرح لوحده، مراته بتخدم أمك ولو طردته هعمل مشكلة للولية، مالهاش غيرنا، هاتتبهدل هي وابنها".

عمي صلاح: "دا قاتل، كده خطر، زمان كنا شاكين دلوقتي متأكدين."

"متأكدين منين؟ هم قالوا لاقوها مقتولة ومرسال أمها اللي كان رايح يهربها قال ان آخر مرة شافها حية كان أبوها معاها، كده بقى قتلها خلاص؟"

"بتتستر عليه، وهو عارف انك عارف انه قاتل وقابل"

"عشان تعرف انك مش عارف مكي، كلامك مش عاجبني"

دخلت جدتي وقد شدت "روب" شتوي خفيف على قميص نومها الناعم ولم تقل شيئا، نظرت بحزم واهتمام من سور الشرفة على المربع الذي أسفله تماما، وبعد دقيقة قالت: "تعمل كشك صغير هنا يا سي مصطفى؟" في هذه اللحظة اهتم جدي، أوقف ما كان يفعله دون أن ينهض من قرفصائه أو يترك الأدوات: "ودا لإيه بقاااا؟"

كان شعبان قد تشاجر مع أمه مشاجرة كبيرة في اليوم السابق يسألها أين أبوه، فتجيبه بـــ "والله يا ابني ما اعرف" فيطير صواب الولد. ألقى باللائمة عليه لأن النادي محبوس حتى الآن، ولأنهم لا يزالون يقيمون ويعملون في المختلط خدما عند الناس، لم يوفر لهم بيتا ولم يشغل عملا معروفا، صعلوك يقترب على السبعين، مجرم لازال يقتل ويتحمل أبناؤه ذنبه. في نهاية هذا العراك أعلن شعبان قراره بهجر البيت وترك المختلط والتشرد في الشوارع حتى يصبح رجلا له بيت وعمل مستقلين. هذا الموقف صادفته عائلتي من قبل مع الأشعل حينما كان صبيا، الفرق بينهما أن شعبان كان أكثر غلظة وخشونة من فهمي في الشجار، وأن نسبه معروف.

لحل العقدة بينهما اقترحت جدتي أن تبني كوخا في الحديقة يصلح لإقامة فرد، وستؤجره له في الشهر بعشرة قروش، وأكملت اقتراحها بـــ "يستعمل حنفية الجنينة ومش هنحاسبه ع الميه، نوصل له سلك كهربا من الشقة الأرضي للنور، لو اتزنق الفجر حمام الجامع موجود، حمام الأرضي مفتوح بالنهار، يستحمى يغسل هدومه، يشوف له شغلانة، يفكر ويقول لنا، إنما في الشارع؟ في وشنا".

كانت جدتي تعلم أنه ليس في خنوع النادي وثقل فهمه، لن يبقى في طوعهم طويلا، لن يتحمل انتهازية أبيه، وغباء أمه، التي لن يبقى

لها سند حقيقي بعد شعبان. فكان الحل الوسط أن يغادر غرفة والديه نعم ولكن لا يغادر البيت تماما.

غير أن الفتى لم يكن موجودا في البيت فعليا حينما بدأ بناء الكوخ بموافقته أو بدونها. ذلك الفجر لبس شعبان حذائه وتناول عصا أسطوانية غليظة قصيرة تشبه ساق نعجة لم تفارقه منذ سنوات، وانطلق نحو سندوب، انتظر رحلة قطار الصعيد التي لا تتوقف في المنصورة ولكن السائق عند سندوب يهدئ السرعة ليلتقط من كشك المزلقان بخفة كيس خبز وفلافل وزجاجة ماء. في هذه التهدئة قفز شعبان على جسم القطار، ومنه للسطح، تكوم في مكانه في انتظار الشمس.

في قرية بأسيوط، حيث تزوجت وردة مكي الطاهر أبو ستيت من قريب زوج أختها حابسة، الابنة، بعد أن قضت ببيتها عامين أو ثلاثة. ابنة طنطا التي تتوق للخروج لسوق المدينة والاختلاط بالنساء والرجال، البحث عن صداقات للثرثرة والشكوى من القوانين العرفية للمكان، لم تحترم رغبة زوجها في إبقائها بعيدة عن العيون. كانت جميلة، رأيت صورها مع شعبان، أحبها بشدة كأخت رغم أن أمها غير أمه، ورغم أنه لم يعايشها شهرا كاملا في حياتها. لكنه بقي يتحدث عن ذكراها وشكلها والطريقة التي ماتت بها عقودا. ومع أنه كان يحمل الصعيد في شكله وطباعه، إلا أنه لم يفخر يوما برحيل وردة على هذا النحو الأحمق، الظالم. أنجبت من مديح، زوجها، ثلاثة بنين، إلا أن حلم العودة إلى طنطا حيث النور ومقام السيد، وبيت أمها العالمة عزيزة، البهجة والطرب، ظل يراودها حتى على طريق موتها. طلبت من زوجها مرات عديدة أن يحملها إلى أمها، ففعل مرة

أو مرتين، ثم عيرها بأن أمها خليعة، مستهترة، فنفت: "أمي بتتجوز على سنة الله ورسوله".

"أمك كل شهرين في حضن راجل حتى لو على سنة الله ورسوله، ما اعرفش رب إيه ده اللي بتعبدوه". كانت تلك بداية المحنة، والتي كانت نهايتها أن أرسل مديح إلى مكي خطابا شديد اللهجة ليحضر: "بتّك راح تهرب مع جدع". رسالة مفزعة، عنوانها مقتضب. لو أنه شرح أنها توسلت مرارا أن يخلي سبيلها فهي "تموت في بني محمد بالحيا"، لو أنه ذكر عدد مرات محاولة هربها لتعود إلى حيث تنتمي بالروح، وأنه كان يربطها ويجلدها جلد العبد في كل مرة يمسك بها متلبسة بعد فشل المحاولة. وبالطبع لم يجرؤ على قول أنه سبها مئات الآلاف من المرات بعهر أمها وخسة أبيها، فكانت ترفع يدها أمامه بالدعاء عليه. ذات نهار لمحت أحد معارف أمها في سوق أسيوط الكبير وهي تشتري لأبنائها شيئا من حلوى المولد النبوي. لحقت بالرجل وسألته أن يذهب إلى أمها حين يعود إلى طنطا بعد انتهاء الموسم، وأن يطلب منها الحضور بالعدد الكافي من الرجال ليخلصوها من هذا البيت ولو بدون أطفالها. الأهم أن تنجح في المغادرة.

ما يحيرني في هذه القصة هو موقف حابسة، الابنة. امرأة من دمها ولحمها، وكلما هرعت إليها لتنقذها عادت فسلمتها إليه بعد أن تطيب خاطر الجميع وتتوهم بالصدق أو الكذب أنه سيحسن معاملتها في المستقبل.

جاء رجال العالمة فعلا على حدود بني محمد ومعهم سيدة في منتصف العمر غير العالمة نفسها. انتظروا حتى حلول الظلام ثم أرسلوا المرأة إلى بيت مديح ففتح لها، تكلمت بلهجة صعيدية صحيحة

أنها فلانة ابنة فلانة بالكذب وقد غطت نصف وجهها بعباءتها كما تفعل نساء البلدة. قالت إن حابسة، الابنة، تحتاج إلى وردة في بيت فلانة قريبتهم إذ أن تلك القريبة تضع مولودها الأول وحالتها سيئة، ولا أحد هناك للمساعدة. كانت تلك القريبة حبلى فعلا، ورغم عدم ترحيب الرجل بخروج زوجته، ورغم علمه قبلها بأيام بأمر تاجر الحلوى في السوق، وإرساله لمكي تلك الرسالة، إلا أن وردة نجحت في الفرار. في الليلة المشئومة تنبه مديح بعد منتصف الليل أن امرأته لم تخرج من بيت القريبة للآن. فذهب وطرق الباب. سأل صاحب الدار عن الحال فقال نائمين، وعن زوجته فقال لم تأتنا، ولا حابسة. حمل سكينه ولجأ لأبواب نفر من أخوته وأبناء عمومته للحاق بركب زوجته، مؤكد على الطريق.

أرسل بالصبي العصفورة إلى كهف بعيد في البر ليأتيه بمكي الذي يقبع هناك منذ يومين منتظرا. لحق الجميع بالسيارة المنطلقة نحو طنطا عند شروق الشمس على مشارف الفيوم. ظن رجال العالمة أنهم قد نجوا من الخطر في تلك البقعة المزدحمة ببعض بالمسافرين والمركبات التي تقل البشر والماشية والبضائع بمشقة من شمال البلاد إلى جنوبها والعكس، فتوقفوا للراحة. تبرع أحدهم برعاية وردة وحراستها ريثما يحاول الآخرين النوم لساعة.

لم يكن أيا من مديح ومكي ليخطئ سيارة أجرة عليها لوحة مرور طنطا، وبها امرأة واحدة ترتدي جلبابا أحمر مزركش بالأسود على أكمامه القصيرة، سقطت عن كتفيها عباءة صعيدي ثقيلة. كما لم يكن صعبا أن يبث عشرة رجال من أهل القرية الغاضبين الرعب في قلب الحارس الواحد وضرب النيام على رؤوسهم لينالوا من النوم نصيبا أطول، وعادوا بوردة من حيث أتت.

عادوا بها وهم يثبتون ابن عمهم وأخيهم على عزمه: "اقتلها". شد وثاقها وأغلق فمها وذبحها ذبح الشاة بعد أن حبس أبنائهما في غرفة ليست بعيدة. حفر حفرة في الزريبة ودفنها، خرج فغسل سكينه وجلبابه في ماء القناة وجلس ينتظر الغد.

يقولون أن طفل وردة الأصغر استيقظ في الظلام من تلك الليلة، وذهب بغطاء علبة سمن يحفر قبر أمه وهو يناديها: "قومي، أبويا نام". حينما وصل لقماش فستانها الأحمر أدركه أبوه، صفعه صفعة كادت تخلخل رأسه الصغير من فوق عنقه، "غارت في ألف داهية". اختفى هذا البريء الباحث عن أمه تلك الليلة بلا رجعة، همّام، تحول إلى ذئب آخر أشد شراسة وخسة ممن تخلصوا من حياة وردة بإصرار حقود.

طرقت عزيزة العالمة باب مديح بالكثير من الصراخ والردح والشلشلة بعد ذلك بثلاثة أيام: "بنتي فين يا قحف يا ابن الاقحاف". فتشت الشرطة البيت شبرا شبرا حتى الزريبة، فوجدوا مكان القبر ولم يجدوا وردة. هرب مكي قبلها من كهفه إلى كفر الشيخ قاصدا أحد معارفه هناك. عادت عزيزة العالمة إلى طنطا بيأس بعد أن مشطت قوات صغيرة البلدة والبلاد المجاورة والطرقات والبراري من حولهم عن المفقودة. ولم ينسَ رجال العالمة أن يشهدوا بأن والد المخطوفة يوم خطفها كان مع زوجها ورجاله، فبحثوا عنه هو الآخر. بعد يومين وفرت عليهم وردة كل هذا العناء فطفت جثتها من تلقاء نفسها فوق مياه الإبراهيمية، وعليها أثار قيود بالحبال وطعنات في البطن والصدر وحز عميق لقطع آلة حادة في الرقبة.

أخطأ النادي مرة حينما سافر إلى القاهرة يقابل رجلا غريبا من أصدقاء أبيه ليعطيه ملابس ومال، ثم عاد فسافر إلى كفر الشيخ في

أسبوع لاحق، ذلك النهار الذي قبض عليه بعده، لنفس الغرض. وأخطأ ألف مرة حينما أصر على إنكاره لمعرفة مكان أبيه. بعد شهر من احتجاز النادي وتوقف شعبان عن زيارته، لم يظهر مكي، الشرطة عاجزة عن إثبات التهمة على مديح، وعليه، فقد قررت نيابة المنصورة فتح ملف جنائي للنادي بتهمة الشروع في قتل، ومساعدة قاتل على جريمته والتستر عليه.

لم يكن مكي من أمسك بالسكين نعم، لكنه كان يعلم أن زوج ابنته سيذبحها، وسعى معه خلفها. ألم يشعر نحوها للحظة برحمة أبوة؟ لعله كان مصدقا لما قاله زوجها عنها، أو أنه يتخلص من ماضيه وحاضره الشؤم فيها. في كل الأحوال اتفق بنذالة مع مديح على أنه من سيقدم نفسه للشرطة على أنه غسل عارها بيديه، فيبرئ ساحة الزوج ليعود لأبنائه. قال إنه شيخ مسن ولم يعد بالعمر ما يندم عليه، فليكن هو البطل المضحي.

غير أن طبعه الجبان دفعه للهرب بكل طاقته، ربض في مكانه حتى كادت التحقيقات والمحاكمات تقذف بولده النادي في غياهب المؤبد، حينها صرخ مديح داخل القفص بتحد: "أنا اللي قتلتها". انتصارا لكرامته ليعيش أبنائه من بعده مرفوعي الرؤوس، فقد كانت أمهم عربيدة مثل أمها ولابد أن تموت. المزحة المؤسفة في الموضوع أنه نظر نحو النادي وقال: "ده شرف ما ينوله إلا الرجال، وأبو ستيت مَرَة وولاده نسوان".

***

شعبان أبو ستيت

ترتفع طبقة البن السميكة الساخنة في حلق الكنكة، أبعدها عن النار، ألوم نفسي لأنني لم أنتق كوبا مناسبا قبل التسوية من بين هذه التشكيلة المغرية من الأكواب بكل الحجوم والألوان والتصميمات. يمكنني تمييز ما يخص صفاء الصغيرة عليها زرافات وأسود وحمرا وحشية، هناك أكواب بدت خشنة ذكورية ومع ذلك منقوش عليها حرف S ، لسارة؟ لصفاء الكبيرة؟

صوت فرج بائع الخضر، ياه، ألا يزال ذلك الرجل على قيد الحياة؟ أجد خُفا كبيرا بلاستيكيا أسودا قرب باب المطبخ المفضي إلى جسر وسلم الخدم، أرتديه وأفتح الباب، استقبلتني شمس الصباح بشعاع لطيف لكنني تخطيته ببطء ووقفت عند منتصف الجسر في ظل العمارة القبلي، كان عم فرج بتاريخه السحيق ومفاوضاته مع شغالات الحي وبوابيه وربات منازله يحتل بصري ومخيلتي في وقت واحد، لا زال يحتفظ بعناده في بيع الثمار التي يريدها لسكان المختلط وإن لم يرغبوا فيها، "رخيصة وسليمة، اشتروها النهارده، بكرة تغلا".

من مكاني تستوي المسافة بين المطبخين على طرفي الجسر، ذاك الباب المغلق هناك على يميني تماما كان ذات يوم مطبخ جدتي، يقطع عم فرج حديثه مع السيدة لينهر بغلته، يمنعها من التسلل نحو شيء ما على الأرض تريد التهامه أو شمشمته، أبتسمُ بصعوبة، أخرج سيجارة من العلبة التي في يدي، لوهلة أنظر نحوها، أأعود للتدخين؟ أبحث عن القداحة ولا أجدها، أدخل فأحضر أعواد الثقاب ثم أعود، أتأمل العمارتين من مكاني هذا لأحدد من لازال يسكن هنا، الشقة التي

تعلو شقة صفاء كانت ليحيى وأمه بعد موت عم فهمي، ثم ليحيى وأمه وزوجته "نيفين" والدة سارة قبل أن يموت هو الآخر، رحل الجميع الآن وآلت الشقة لسارة وابنتها من محمد، هذا ما كان يصلني سابقا عبر قصص صفاء المبعثرة المنفعلة بالفرح أو الشكوى، وصدقت عليها أقوال شعبان، وتأكدتُ منها بنفسي الآن.

الجزء الخلفي من الطابق الأرضي قيل إنه بقي على ما هو من هندسة من أيام ولادة يحيى، اشترته من نفيسة أرملة معاقة ابنة أحد تجار الأحذية الرخيصة بسوق الخواجات قبل أن تموت ولا يرثها أحد، الشقة مغلقة للا أحد، لم أفلح في شرائها كما فعلت مع محل عم فهمي الكبير للحلويات بعد أن كان قد بيع بعد موته لشخص جعله معرضا للملابس القطنية بواقي التصدير. ينتابني شعور غريب الآن بأن البيتين رسميا منطقة مملوكة لنساء.

يدق جرس هاتفي فأسرع إلى الغرفة لأجده على حرف السرير يوشك أن يقع.

"طيب مش مشكلة عادي"

"معلش أنا آسف جدا.. "

"خلاص يا حسن ما تكبرش الموضوع"

تأجل موعد حسن للرابعة عصرا. اجتماع رئاسة قسم نسيه، لا يحب هذا الطقس ولأسباب روتينية مجبر عليه. هذا ما قاله. ومع ذلك فهو يحب المادة التي يدرسها "...." هذا ما أراه.

أتذكر القهوة، أضعها في أول كوب تمسكه يدي، أجلس على مقعد خشبي مستدير في المطبخ قرب نافذة عريضة من الألومينيوم فوقها ستارة من المعدن مشمورة بطريقة الحصير حتى الثلث، الشمس

تصبغ الأواني بالذهبي، الأرفف الرخامية البيضاء والأرضية والطاولة المربعة الأنيقة في منتصف المطبخ بلا مقاعد حولها، المقاعد هناك مصفوفة قرب بعضها في الجهة المقابلة للثلاجة، ثلاثة. النافذة على الجدار نفسه الذي فيه الباب، الذي لم أغلقه. من مكاني هذا أرى الشقة الأولى لجدي وجدتي في المختلط، هي لهدى الآن، هي والصيدلية، الغريب أنها لم تتخلص من بقايا أطلال كوخ شعبان خلفها. رحل ذلك الزمن الذي ملأه فيه بالخردة وأوراق الجرائد والأحلام. وربى فيه جروا أيضا، أتى به من أسيوط بعدما عاد من سفره الذي استمر شهرين.

"أبو ستيت مَرَة وولاده نسوان" عبارة وصلت شعبان وهو يدور بين طرقات القرية بحثا عن شيخ الكتاب الذي يعلم أبناء أخته القرآن. قالها رجلان في الظل يتصايحان حول عنترية مديح ونخوته، وكيف أن موقفه الشجاع قد أظهر تراخي زوج حابسة، الابنة، وحابسة نفسها. لم يكونا يعرفان شعبان بصفته أو شخصه، شاب طويل هزيل شديد الاسمرار بفعل الشمس ولون بشرته، يرتدي جلبابا فضفاضا من التيل الحائل، كانت قد أعطته له حابسة عند وصوله. كيف لم يحمل لها أبدا ضغينة أو لمحة نفور، لطالما تخيلتها ركن هام من أركان الكارثة. عبرت له عن ذلك منذ عامين في سياق إبداء كراهيتي لدور ابن وردة في حياتنا رغم أهميته. أخذ شعبان الأمر بجدية واستعد لموقف دفاع. أم ستيت كانت معروفة في القرية بحزمها ووقارها وكرمها، علاقاتها طيبة مع أهل القرية والبلدان المجاورة، لم تكن البلاد بلاد أمها وأبيها فهي غريبة. لكنه أحبها حبا جما وأنجب منها بنين وبنات. هل ضيق عليها فعلا بعد موت أختها ليرضى الناس؟ راقبها ونغص معيشتها وتغيرت معاملته مع إخوتها لفترة كما قال شعبان؟

حماة وردة كانت قريبة حماة أختها، ضمت الأولى أحفادها الثلاثة إلى كنفها، أغلقت بيت ابنها بعد أن سحبت الفرس والبقرة والغنمات لتربي من ريعها أولاده، فقد حُكِمَ عليه بالإعدام. قطعت علاقاتها بحابسة وبحماتها، منعت الأبناء مَن زيارة خالتهم أو أي مخلوق يدخل بيت خالتهم، وأقسمت على أن ترفع بندقية في وجه كل من يتعرض لأحفادها بسبب سلوك أمهم، سواء بشفقة أو كراهية.

لم تثبت تهمة الزنا على الفقيدة، لم يشهد أحد بمواقعتها النكاح في الحرام، ولم يقدم الزوج دليلا على أن امرأته اقترفت أكثر من الخروج عن أوامره، حدثت رجلا في السوق وحاولت الهرب معه، أو مع غيره على أنه ربما سيضاجعها فيما بعد، أو ضاجعها في الطريق. أين هو الرجل؟ من هو؟ تشريح الجثة لم يأتِ على ذكر سوائل جنسية، اعترافه وحديث غيظه أمام القضاة والشهود هو ما نقل تهمة النادي من القتل إلى تهمة أقل شأنا، ليس من ضمنها الموافقة على قتل أخته، حيث لم يعلم بالأمر إلا بعد موتها بالفعل. أكبر جرائمه أنه حمل مالا وجلبابا وطعاما لوالده في مخبئه. تستر على هارب لم يقتل. كانت المدة المحكوم عليه بها بسيطة، ولم يتمها كلها، إذ خرج بعد سنة.

في تلك الآونة نشط عقلي ومخيلة يحيى عبثا كتسلية للبحث خلف أسطورة أبو ستيت، ففوجئنا بما لم يكن في الحسبان، أبو يحيى ليس ابن "جدو عفت" و"تيتة زينب" فعلا وإنما متبنّى، مجهول النسب غير مصري في الأصل متزوج من امرأة أخرى وربما ينتمي بقرابة من جهة أو أخرى لرضا صاحب فرن دعبس الذي لم نكن نعرف أن دعبس ليس أبوه.

استغرقنا أعواما طويلة لنفهم هذا اللغز، وحينما فعلنا لم نسعد.

**

طوال فترة غياب شعبان مشطت دادة شوقة المنصورة شبرا شبرا، في جحور سور القطار وشقوق الحواري والبيوت المهجورة وأسفل كوبري طلخا وجسر السكة الحديد. سألت عنه أصحاب المحال في الخواجات وشارع بورسعيد والسكة الجديدة بأوصافه وملابسه، أهملت حالها وعملها فصارت كالمجاذيب، وقفت في طريق المسافرين والعائدين على محطة القطار والأتوبيس ومواقف سيارات القرى الكبيرة في المنصورة تسألهم عن ولدها اليافع الذي خرج ولم يعد. لم تنعم بعدها هذه المرأة بالراحة ولو ساعة، بكت كثيرا في الشهر الأول حتى توقفت عيونها تلقائيا عن إرسال الدموع، تحولت إلى مرحلة الهذيان ونثر السخط أو الصمت المخيف. كنت أخافها فعلا في تلك الفترة.

انتقلت دادة شوقة للعيش مع أبناء النادي وزوجته، حيث أن الأخيرة نقلت أغراض حماتها لبيتها لأسباب اقتصادية أكثر منها مراعاة للقرابة أو المودة، إذ تعلم أن بهذه الخطوة ستضمن الضغط على جدي وجدتي لمساعدتها حتى يعود النادي ويستلم عملا. في خضم هذه الأحداث جاء رجل من قرية دادة شوقة بخبر غريب: "أبوكي مات".

"أبويا مين" سألت دادة شوقة

"أبوكي يا عمة، جدي، أنا فلان ابن اخوكي علان".

سافَرَت معه وهي بين البر والغرق، مسرحية ضبابية مشاهدها متلاحقة غير قابلة للتصديق وإن كانت مفهومة. بعد أسبوعين من غيابها عاد شعبان إلى جدتي شاردا حزينا، يائسا من عدلِ الدنيا لو جاز التعبير. يرى الظلم في أي فعل وفي كل عين، يُكذِّب ويسخر ويعاند في كل كلمة ينطق بها، على ندرتها. وربما هو كذلك حتى

الآن. عاد محتضنا جروه، لا يبكي أمام كائن غيره، لا يأكل إلا معـــه.

حينما كبرتُ، بعد ذلك بأعوام كثيرة، حينما تعقدت حياة تلك العائلة وعاد مكي للظهور، قالت جدتي: "يا بنتي، فاتت علينا ليالي أنا وجدك ما كناش ننامها من عياط الواد ده، يقطع ف قلوبنا، وكلبه ينوح جنبه.. منه لله مكي ماعندوش عقل، ولا ضمير".

مكث شعبان في بيت أخته قدر ما مكث، كل يوم يتلصص حول كُتَّاب أولاد وردة، خصوصا حين عودتهم للبيت وقت الظهيرة أو قبل المغرب حيث كانت لهم فترتين. ذات مرة لم يصاحبهما الصبي الكبير الذي كان يرافقهما من بيت جدتهما للكُتّاب، وقف شعبان خلف جدار الطين ونادى بهمس على أولاد أخته، لم يفعل شيئا نظر في وجوههم واحدا واحدا، فخافوا منه، أمسك بوجه الأصغر وحاول حبس دموعه، كان يشبه أمه كثيرا. من قال إن الأخوة والرحمة بطول العشرة؟

"أنا خالكم شعبان" قال.

" بعِّد" قال الكبير، في حين زم الصغير أنفه وقال"ده انت أسود موت" بلهجة صعيدية. ابتسم شعبان بعيونه المحمرة وقال بما يقارب لهجتهم: "خالك الصِّغير". اعتدل بسرعة وكان منحنيا، حيث وجد الصغار يتلفتون خوفاً من أن يراهم من يخبر جدتهم بأنهم يتحدثون إلى غريب، قال: "اللي يكبر فيكم وينزل المنصورة يسأل عن شعبان الطاهر".

نبوءة لا أعرف كيف تنبأ بها شعبان في ذلك الوقت المظلم. بعد أعوام زاره أكبر أبناء وردة أثناء تحويله من تجارة المنصورة إلى

تجارة أسيوط، وقد صار شعبان بالفعل أشهر أبناء أبو ستيت صيتا في المدينة. أكثر من النادي وأبناء أم الرجالة. بعده بعامين سأل عنه الصغير (شبيه أمه)، فوجده قد انتقل للعيش في القاهرة، حط عليه هناك، ومكث للآن.

***

وِد

عادت دادة شوقة من بيت أهلها في ميت خيرون بعد ستة أشهر بحال أفضل، لم يزرها شعبان هناك خلال تلك المدة لكن هناك من أخبرها بعودته، وعدم رغبته في رؤيتها، وبأنها لو عادت فسيغادر المنصورة مجددا. على هذا الأساس تأقلم بيتنا على أن مساعدنا الوحيد في البيت والصيدلية هو شعبان، وعلى أنه موظف ذو أجر متفق عليه، وله حرية الرحيل وقتما شاء. كانت جدتي تتقاضى منه أجرة الكوخ شاملة قدر متفق عليه من فاتورة مياه وكهرباء النصف الخلفي من الدور الأرضي بحسب استخدامه، حيث كان للصيدلية عداداتها الخاصة. وفي المقابل تعطيه أجرة معتبرة على المشوار يقضيه لها أو الطلب. لم يعترض جدي. انتهى عصر الخدم.

في منتصف العام ١٩٨١ خرج النادي من محبسه ولم يقبله صاحب عمله القديم، قالوا استبدله بغيره منذ مدة ولم يعد له مكان الآن، في حين وصل إلى شعبان وأخيه أن الرجل قال أن النادي قاتل أو معين على قتل، وجوده في ورش الحسينية شبهة، فعرض جدي عليه العمل عنده. "ولاد شوقة تربيتنا". كان هذا موقفه الشهم الأخير رغم أن أبي حاول إثنائه عن عرضه المتسرع.

في مطلع ١٩٧٧ مات جدي مصطفى عن عمر يناهز الثلاثة وسبعين عاما على إثر حالة حمى شديدة لم نعرف لها سببا، ثمانية وأربعون ساعة وتوقفت الدورة الدموية وفارق الحياة. أصابنا الغم والحسرة، شعرنا بحجم البلوى، رحل السقف الذي يظللنا طوال

الوقت، نمرح تحته غير عابئين بثقله واتساعه. من قلة معرفتنا لم نفهم قيمته إلا بعد موته.

تغير عمي صلاح، أصبح شخصا آخر، طفل كبير هائم تائه، وكأنه كان يستمد مقاومته للحياة بكل هذا الجذل والسخرية والعناد "على حس أبوه في الدنيا"، فلما رحل الأب، رحلت معه الرغبة في الصراع. إنها المرحلة التي بدأت أنتبه فيها إلى أن أبي لم يكن متعلقا بشكل مصيري بجدي مصطفى في طموحه ومواصلته الكفاح، لكنه كان شديد الحزن كئيبا في معظم الأوقات، يعمل في صمت وهموم الكبار ترتسم على وجهه، إنما قوي هادئ يناضل كل يوم من أجل كلمة علم ينصح بها مريض، أو لقمة عيش يحصدها، أو صلاة يصليها. نعم، صار يصلي أكثر بعد موت جدي.

جدتي ود فعلت مثل ما فعل أبي، كانت تبكي في خلواتها كثيرا، لكن إن طلعت علينا كانت كنمرة متربصة بالحياة، أو هكذا أرادت أن تظهر، خاصة في وجود أمي، ربما كانت تستمد قوتها لمتابعة العيش من هذا العداء، في الوقت الذي كانت أمي فعلا تقضي وقتها بيننا وبين غيبوبات رطبة لذيذة متقطعة مع مريم.

أمرا آخر جعل لجدتي هذه السطوة على الحياة بعد رحيل الحبيب، الوكالة، لقد ارتدت فستانها الأسود "الميدي" ذات صباح بعد الأربعين، وضعت غطاء رأس من التل الشفاف بنفس اللون، انتعلت حذاءً له كعب مدبب ذو ارتفاع معتدل، كانت طويلة سمراء بضة، تحب الأناقة، ورائحة النظافة، ومجالسة اللطفاء، كل ما يبرز أنوثتها رغم أنها في الستين. ظلت تغدو إلى الوكالة وتروح حتى اليوم الأخير في حياتها. جدتي لم تيأس أو تمرض أبدا.

كتب جدي قبل موته بعشرة أعوام وكالة جلالة للأقمشة والأقطان باسم "ود السيد عنتر"، جدتي.

***

يتبع ..

أحدث إصدارات « دار الثقافة الجديدة »

السمسار
عمرو كمال حمودة
النيل مآسي
صنع الله إبراهيم
محاكمة رواية
حمدي البطران
هكذا يجب أن تُحكم مصر
د. ياسر شحاته
ذكريات الجوافة
جورج البهجوري
الانتفاضة الثالثة
نايف حواتمة
انتحار تاريخي (ما تيسر من حكم السيسي)
محمد طعيمة
الثورات العربية لم تكتمل - مسارات واستعصاءآت
نايف حواتمة
الملف القبطي
حمدي البطران
قلم رصاص حي (كوميديا مصرية سوداء)
د. خالد صلاح
حكايات القطط
درية الكرداني
يوميات الواحات
صنع الله إبراهيم
نوال
ياسر شحاته
سيناء ومشروع الوطن الفلسطيني البديل
د. هيثم محمد قاسم

عندما جلست العنكبوت تنتظر (سلسلة قصص علمية ١)
يوم عادت الملكة القديمة (" " ٢)
الدُلفين يأتي عند الغروب (" " ٣)
صنع الله إبراهيم
باتجاه الطريق - وقصص أخرى
حمزة قناوي
رحلة في الذاكرة
نايف حواتمة
رأس المال (في القرن الحادي والعشرين)
توماس بيكيتي
ترجمة وتقديم: محمود الشاذلي
الكتابة بالمشرط
د. إيمان يحيى
سوداني في القاهرة
عبد الماجد عليش
مذكرات إنجي أفلاطون (من الطفولة إلى السجن)
تقديم وتحرير: سعيد خيَّال
المسلمون والأقباط في التاريخ ط ٤
د. فكري أندراوس
برلين ٦٩
صنع الله إبراهيم
الحياة والموت في بحر ملون
صنع الله إبراهيم
على فراش فرويد
نهلة كرم
ذات (الطبعة السادسة)
صنع الله إبراهيم
اغتيال ثورة
عبد الحليم قنديل

مرض اليسارية الطفولي
لينين
ترجمة: دار التقدم، موسكو
إجهاض الديمقراطية
جايسون براونلي
ترجمة: أحمد زكي عثمان
حكم العواجيز، اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتي
فلاديمير ميدفيديف. ترجمة: د.نبيل رشوان
مأزق الاقتصاد المصري وكيفية الخروج منه
عبد الخالق فاروق
الثورة المغدورة (قصة كومونة باريس في شرائط مصورة)
برنار فيسك
ترجمة وتقديم: راوية صادق
العمامة والقبعة (الطبعة الثانية)
صنع الله إبراهيم
الحرب الأهلية في فرنسا - مع مقدمة لفردريك إنجلز وبفهرست للأعلام
كارل ماركس
الإمبراطور الأخير - قصة آخر إمبراطور للصين من مذكراته
إعداد: فتحي خليل
أمريكانلي (الطبعة الثالثة)
صنع الله إبراهيم
الدولة والثورة
لينين
تدقيق وتقديم: سعد الطويل
رشدي سعيد ١٩٢٠ – ٢٠١٣ " قراءة معاصرة لبعض أعماله "
د. فكري أندراوس
مدخل إلى المنطق الصوري
د. سهام النويهي
ثورات وتمردات المصريين منذ الاحتلال العثماني حتى عام ١٩٥٢
عبد العزيز جمال الدين

ثورات المصريين حتى المقريزي
عبد العزيز جمال الدين
يوحنا النقيوسي
عبد العزيز جمال الدين
خمسون عاماً من الغوص في مصر
د. البهي عيسوي
اللجنـــــة (الطبعة العاشرة)
صنع الله إبراهيم
حكايات إنسان في سلام مع نفسه
علي نجيب
وردة (الطبعة الرابعة)
صنع الله إبراهيم
الصندوق الأسود - قصة حسين سالم
كارم يحيى
يوميات الدولة الإسلامية في السودان
إعداد: عبد الماجد عليش. تقديم: حيدر إبراهيم
تغريبة (الجزء الثاني) من رواية مهاجر غير شرعي
جمال عمر
نظرتان على تونس (من الديكتاتورية إلى الديموقراطية)
كارم يحيى
م الدار للنار
فؤاد حجازي
طعامك علاجك
تأليف: فكري اندراوس/ د. أليسون أور- اندراوس
دليل الاشتراكية العلمية لشباب الثورة المصرية
بهيج نصار
رمال ناعمة
درية الكرداني
حرفوشيات (ديوان شعر)
د. فؤاد طيرة

الجلـــــيد
صنع الله إبراهيم
أحمد حسنين ودوره في السياسة المصرية ١٩٤٠-١٩٤٦
د. ماجدة محمد حمود
شـــــرف
صنع الله إبراهيم
أيقونة الجسد
جورج البهجوري
الرئيس البديل
عبد الحليم قنديل
مهاجر غير شرعي
جمال عمر
جمهوركية آل مبارك
محمد طعيمة
أفريقية عربية – ١١ مختارات العلوم الاجتماعية
مجموعة من الكتاب
حوار مع أطروحات حزب التجمع
بهيج نصار
جماعات الإسلام السياسي واليسار المصري
بهيج نصار
حركة التاريخ قضايا ومفاهيم
فوزي الإخناوي
الثقافات المحلية والعولمة
د إيمان يوسف البسطويسي
استراتيجية للثورة المصرية
بهيج نصار
أحوال الصين (دراسات نقدية)
مجموعة من العلماء الصينيين
سياسية القوة البريطانية في مصر ١٩٢٤-١٩٤٢
د. ماجدة محمد حمود

التفكير الناقد
د سهام النويهي
أفريقية عربية – مختارات العلوم الاجتماعية ١٠
مجموعة من الكتاب
الناس بين الكهنة والمؤسسات
حسني فرجاني سلامة
التجربة الأنثوية (الطبعة الثانية)
صنع الله إبراهيم
المثقفون
حمزة قناوي
أزمة مصر الحقيقية
عيداروس القصير
سفر الحياة (رؤى وتأملات)
فكري باسيلي
سفر الحياة (وكان شتاءً دافئًا) شعر
فكري باسيلي
العراق
بين صراعات في الداخل والخارج
حسين عبد الرازق
الأيام الأخيرة
عبد الحليم قنديل
ذكرى عاهراتي الحزانى
جابرييل جارثيا ماركيز. ترجمة: د أحمد يونس
اشتراكية القرن
سمير أمين
استراحة الشيخ نبيل
عبد الستار حتيتة
العمال وتحديات القرن الواحد والعشرين
إشراف: سمير أمين

الطريق نحو عولمة بديلة
بهيج نصار
المرسى
نجوى شعبان
حوارات ساخنة بين اليسار العربي والأوروبي
سمير أمين وآخرون
مدخل إلى دراسة "رأسمالية الريع"
علي نجيب
كتابات في الاقتصاد والمجتمع - مصر
علي نجيب

(توزيع) إصدارات " دار المستقبل العربي"
الثورة العرابية
صلاح عيسى
قبة الإمام الحسين
د. نعمات أحمد فؤاد
الاشتعال السريع
نبيل السلمي
الشيخوخة وقصص أخرى
د. لطيفة الزيات
على جناح التبريزي
الفريد فرج
الفن الفارسي
د. ثروت عكاشة
وعليكم السلام
محمود عوض
صحراء
لوكليزيو
ترجمة: أحمد كمال يونس

ميت بوتيك
فؤاد حداد
معارك المياه
د. محمود سمير أحمد
الكتابات الكاملة
يحيى الطاهر عبد الله